mustafa armağan مصطفى أرمغان

التاريخ السرّي للإمبراطورية العثمانية

جوانب غير معروفة من حياة سلاطين بني عثمان

ترجمة: مصطفى حمزة





التاريخ السرّي للإمبراطورية العثمانية

OSMANLI'NIN MAHREM TARİHİ



الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1122-6

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية

OSMANLI'NIN MAHREM TARİHİ

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsered by TEDA

T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi

Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu

Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)

06030 Ulus/ANKARA/TURKEY

e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

التاريخ السرّي للإمبراطورية العثمانية

OSMANLI'NIN MAHREM TARİHİ

جوانب غير معروفة من حياة سلاطين بني عثمان

مصطفى أرمغان

MUSTAFA ARMAĞAN

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة







تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» إحدى مبادرات معرض أبو ظبي الدولي للكتاب، بدولة الإمارات العربية المتحدة

This edition has been produced with a subsidy by the "Spotlight on Rights" an initiative of the Abu Dhabi International Book Fair, United Arab Emirates



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي	هاتف: 6345404 (2-971+)	فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي	هاتف: 2651623 (4-971+)	فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت	هاتف: 786233 (1-961+)	فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

مقدّمة

العثمانيون فاتحون مظفرون، انطلقوا في سبيل الله، وجمعوا الغنائم وأنفقوها في سبيل الحق ونصرته، وبذلوا الغالي والنفيس في سبيل الدين، ولم تغرهم الدنيا، وانتقموا من أهل الشرك.

أوروتش بيك

من المعتاد أن تتبادر إلى أذهاننا عند ذكر السلاطين العثمانيين صورة القادة العسكريين المستلين سيوفهم في ساحات الوغى، والقادة السياسيين المجلجلة أصواتهم أمام رجال الدولة في قاعات تقديم الطلبات. وبذلك نظن عن خطأ أو صواب أن جوانبهم الإنسانية قد أقصيت عمداً عن كتب التاريخ.

إن هذه الصور النمطية الذائعة عن السلاطين، والتي تظهرهم وكأنهم لا يبكون ولا يضحكون ولا يفرحون ولا يحزنون هي التي جعلتنا نضيء على جوانب غير معروفة من سيرهم، حيث نعمل على تغيير هذه الصورة النمطية الشائعة عنهم؛ فهم ليسوا أصحاب وجوه مقطبة ومملة على الدوام.

لقد حُوِّل السلاطينُ العثمانيون في كتبنا إلى رجال آليين ليست لديهم أي حياة شخصية خارج "حرم القصر". هذه المعطيات الشائعة هي السبب في عدم شعورنا بذلك الدفء الإنساني نحوهم، وهو الذي يفترض به أن يجذبنا إليهم.

من الطبيعي أن تكون لأولئك الأشخاص حياةٌ عاطفيةٌ وإنسانية؛ أي إنهم يصابون بالصداع، وتطول أظافرهم، وتُنخر أضراسهم، ويتضايقون، ويعشقون. ويظهر ذلك بجلاء في رسائل الغزل التي كتبها السلطان عبد الحميد الأول لجاريته روهشاه، فقد أظهرته تلك الرسائل كمن يعرف كيف يسكب عواطفه السرية في سطور ملتهبة.

لا يمكننا تفسير انشغالهم بالحملات والفتوحات على أنه وسيلة لتهدئة قلوبهم فقط، فليس سراً أن بعضهم سعى لتهدئة قلبه بإشغال نفسه بالموسيقى

والشعر، أو بالصيد والفروسية والمصارعة، أو بالنجارة وصناعة الحلي، أو ببعض الحرف النسوية كالخياطة والتطريز، ولكن هذه الأمور أخفيت عمداً أو سهواً من كتب التاريخ.

من غير الممكن تقريباً إيجاد كتاب مستقل يعرض لجوهر حياة السلاطين العثمانيين الإنساني بشكل متكامل، وغالباً ما تُخفى المعلومات التي تعرض لحياتهم كأشخاص وليس كقادة عسكريين وسياسيين، وتُمرر بشكل عابر بين السطور.

قد تقع أيديكم على بعض الأبحاث التي تعرض نظم السلاطين الشعر، أو إتقانهم فن الخط أو تلحين الموسيقى، وإلى حدٍّ ما رياضتهم المفضلة. ولكن هذه الأبحاث تكون ضمن سياق يتناول نشاطاً معيناً، فقد تجدون كتباً تحمل عناوين شبيهة بما يلي: **السلاطين الخطّاطون** أو **السلاطين الملحنون**. وقد ترد هذه المعلومات متفرقة بشكل عشوائي، ضمن سياقات أوسع وأشمل. ولكن، إذا أردنا الحصول على معلومات حول أمور أكثر خصوصية، فالصدفة خير معين لنا، وهنا تكمن الطامة الكبرى. لعل أكثر "المهن السلطانية" المعروفة كانت ممارسة السلطان عبد الحميد الثاني للنجارة. ولكن، لا يجد أحد أهمية لذكر المعلومة التي تفيد بأن هذه الهواية قد آلت إليه من والده عبد المجيد.

لقد أردتُ من وراء كتابة هذا الكتاب أن أُقدم معلوماتٍ نادرة وغريبة مستقاة من مئات الكتب والمقالات والمواد الموسوعية، وأن أرفعَ أحد الأغطية الملقاة على صورة التاريخ العثماني قليلاً، كي تشعروا - أعزائي القراء - بضربات قلب ذلك التاريخ الخجولة المخفيّة.

مما لا شك فيه أنه يمكن توسيع - أو نفش إذا جاز التعبير - هذا الكتاب المؤلف اعتماداً على معلومات مختصرة ومُثْبتة قدر الإمكان. ويمكن مضاعفة حجمه أضعافاً عبر أمثلة موسعة عن شعر السلاطين أو ألحانهم، وعن طرائفهم الممتعة، ونوادرهم ذات المغزى وما شابه ذلك، لكنني لم أرغب بعمل هذا. أردت أن أقدم معلومات مختصرة ومركّزة قدر الإمكان، وأن أذكر المراجع التي أخذتُ المعلومات منها، لكي يُفتح هذا الباب الملون أمام الباحثين الذين

سيأتون من بعدنا. وأكثر من هذا، أردت أن أكون رائداً لمن يريد أن يلج عملية البحث في تاريخ الأسرة العثمانية الثقافي، وأن أعرض لإخوتي الأصغر سناً التواقين للجانب السري من هذا التاريخ، ويريدون تحبيب الآخرين به حجم العائق الذي يواجههم. هدفي - كما هو دائماً - التحبيب بالتاريخ وفهمه.

ألا يهمسون بآذانكم بأن لهم وجوهاً أخرى مخبوءة محرمة مخفية غير تلك التي تُقدّم بشكل باهت في كتب التاريخ كصورة الفاتح الذي يطعّم أشجار الورد في حديقته، وسليم الجبار الذي يصهر الذهب ويصوغه كالتطريز، وسليم الثاني الذي يصنع عكاكيز للحجاج مخففاً عن نفسه عدم استطاعته الذهاب إلى الأرض المقدسة؟

ها هو **"تاريخ العثمانيين السري"** يدعوكم إلى العالم الخاص بالسلاطين الذين حكم أكثرهم ثلاث قارات.

بهذه المناسبة، لنذكّر الذين سيرون نقصاً في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "تاريخ العثمانيين السري" لأنه لا يبحث في حياة الحرم العثماني أنّ هناك كتابا يبحث بالمرأة العثمانية وحياة الحرم قيد الإعداد، ومن لديه الفضول فسيجد ضالته براحة بعد فترة قصيرة.

أخيراً، إليكم بعض الملاحظات حول موضوع الكتاب الرئيس...

ثمة تقليد يقضي بتدريب كل رجل من رجال الأسرة المالكة العثمانية تقريباً على مهنة يدوية أو فن جميل أو أكثر. يُوجّه الأمراء العثمانيون منذ الصغر إلى مهنة بموجب تقاليد الأخويات (تنظيمات تجمع منتسبي مهنة) أو الفتوة في القصر. عاش التقليد الإسلامي والتركي الذي يفرض على كل فتى تعلّم مهنة أو فن يُكسبه معيشته إذا لم يُحالفه الحظ في الحياة - ويسمى "سواراً ذهبياً" - قروناً في عقلية الأسرة المالكة، وطُبّق على أرض الواقع، ومن اللافت استمرار العمل في هذا التقليد.

يدّعي إسماعيل هامي ضانيشموند أن السلاطين كانوا يحققون دخلاً من ممارسة مهنهم، فيقول: "كانت تلك الأعمال اليدوية التي تُؤمّن للسلاطين نفقاتهم الشخصية تباع للدولة أو لأركان القصر أو يتهافت عليها الزبائن في

الأسواق". ستقرأون تفاصيل ملاحظته الغريبة هذه في الكتاب الذي بين أيديكم.

من الطبيعي جداً أن تُطوِّر هوايات سلاطين المستقبل وميولهم المهنية أثناء تنشئتهم في مدرسة القصر السلطاني "مدرسة الأمراء"[1]. ومن الطبيعي أيضاً أن تلعب الأسرة الأرستقراطية الوحيدة في مجتمع غير طبقي دوراً طليعياً في هذا المجال. ولا يمكن تفسير الأمر على نحو مختلف.

أدرجتُ في الكتاب هوايات السلاطين العثمانيين، وميولهم، ومهنهم، وفنونهم، وما أحبوه، وسلوكهم، وخصوصياتهم الشخصية، وبعض "المبادئ والقيم" حسب ما يتطلبه السياق على شكل مواد مختصرة ومكثفة[2].

هناك احتمال كبير بأن باباً سيُفتح على صالة عرض كبيرة بعد قليل، وستظهر أمامكم لوحات لشخصيات تشعرون أنها قريبة منكم وأنتم تستعرضونها، وستنطلقون في رحلة صامتة عبر التاريخ تستدعي فيها الصفاتُ الشخصية صفاتٍ شخصيةً أخرى. أوليس التاريخ رحلةً على طريق معرفة الذات؟

مصطفى أرمغان

عمرانية تشرين الأول 2008

---

(1) للحصول على معلومات عامة حول هذه المدرسة، انظر زيا إركنس، "مدرسة الأمراء في قصر طوب قاب" التاريخ يتكلم، العدد 25، شباط 1966، ص 2058-2059.

(2) هناك معلومات عامة تقول إن بعض السلاطين العثمانيين الذين لم ترد أسماؤهم قد اشتغلوا بمهن مثل صناعة السكاكين والتجليد. ومن المحتمل أن غالبية تلك المهن لم تجد طريقها إلى التدوين، ولن نعرف بها في أي وقت.

صرخة في سويوت: الغازي عثمان (1326-1299)

غدا عثمان غازياً بإرشاد من الشيخ أدبعالي، وثمة احتمال كبير بأن يكون هذا رئيس أخوية، وقد قلده سيفَ الغزو (وهذا تقليد الأخويات) ثم بدأ ينطلق بالحملات.

خليل إنالجيك

تعني دراسة التاريخ الانتباه. فمثلاً، ولد الغازي عثمان في العام 1258 للميلاد. هل يعني لكم هذا التاريخ شيئاً؟ أم يلفت انتباهكم إلى شيء؟ بالنسبة إليّ، يذكرني هذا التاريخ بسنة الشؤم التي تمكن خلالها المغول من انتزاع السيطرة على قلب الحضارة الإسلامية. ففي الثالث عشر من شباط عام 1258، أحرق المغول مخزوناً حضارياً إسلامياً عمره قرون وتشكّل بجهود عظيمة، وفي الوقت نفسه ولد لأرطغرول بيك الذي استوطن شمال غرب الأناضول صبي. سينجح أحفاد ذلك الصبي بالحفاظ على الأعمدة التي رفعت سقف العالم الإسلامي وكانت على وشك الانهيار ستة قرون أخرى، وبإحياء واحدة من أطول القفزات التاريخية.

غرابة هذا التزامن تكفي لكي تخبرنا أن ظهور أبناء عثمان في ميدان التاريخ لم يكن محض صدفة، بل بتلطف إلهي. وهذا ليس رأي كبير الفلكيين الشيخ أحمد ورجل الدين سعد الدين أفندي فقط، بل رأيي أنا الذي أتيت بعدهما بقرون أيضاً. لو لم تدخل دورة التاريخ قوة وحدت العالم الإسلامي، ورفعت راية الإسلام كالدولة العثمانية في الوقت المناسب، لكان من المحتمل أن يعيش هذا العالم الذلّ والتجزئة التي عاشها عام 1918، ولكن قبل فترة طويلة؛ أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وفق تصوير مؤرخ القصر يحيى بستان زادة بعد قرون، إن الغازي عثمان

مؤسس إحدى دول التاريخ الكبرى كان طويل القامة، وأبيض البشرة، وكستنائي الحاجبين. وبحسب تاريخ كبير الفلكيين، كان أسمر البشرة، وعاقد الحاجبين، ومستدير الوجه، وعريض المنكبين، وتصل يداه إلى ركبتيه عند وقوفه[1]. ونستنتج من هذا الوصف أن ساقي الغازي عثمان كانتا قصيرتين، أو أن ذراعيه كانتا أطول من المعتاد. ونرى أن نموذج البنية الجسدية هذا قد عاش ما يزيد على ستة قرون وصولاً إلى الخليفة عبد المجيد.

لُقِّب الغازي عثمان بين أصدقائه بعثمان الأسمر، ويعرف عنه أنه عاش حياة بسيطة بعيدة عن البذخ واللهو والسفاهة. وينقل الرحالة الشهير ابن بطوطة أنه كان يُلقّب بالعثماني الصغير. وتخبرنا وقفيةٌ (مدونة قانونية) باللغة الفارسية تعود لعام 1324 أن الغازي أورخان لُقِّب بشجاع الدين، ولُقب والده بفخر الدين[2].

عاش الغازي عثمان من عائد إنتاج أغنامه الخاصة (حليب، لبن زبادي، جبن...). ولم يستطع العثماني تقبل فكرة أن "باج/الضريبة" من حق البيكوية حين اصطحبوه إلى سوق مدينة فتحوها. وهكذا رفض ذلك الدخل الدسم. وكما تشير هذه القصة إلى حساسيته، وعدم مدّه يده إلى ما هو ليس من حقه، فهي تحمل أهمية من زاوية تعبيرها عن عدم اندثار بعض الخصوصيات الآيلة من حياة الرحّل.

إن عدم ظهور الذهب والفضة بين ممتلكاته بعد وفاته مؤشر كافٍ على زهده وترفعه عن الماديات. وبحسب المعلومات الواردة في المصادر التاريخية، إن ما وجد في تركته هو:

ثوب جديد نسبياً يدعى "صرطاق تَكْلَسي"، وخرج يعلق على جنب

(1) كبير الفلكيين الشيخ أحمد، تاريخ كبير الفلكيين (صحائف الأخبار في وقائع الآثار) المجلد الأول، ترجمة: إسماعيل إرونصال، إسطنبول/ بلا تاريخ، جريدة ترجمان، سلسلة 1001 من أمهات الكتب، ص 69.

(2) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، "وقفية الغازي أورخان بيك – 724 ربيع الأول – 1324 آذار" بللاتن، المجلد الخامس، العدد 19، أنقرة 1941، ص 281.



منمنمة غربية تظهر الغازي عثمان جالساً على فراش يشبه الأريكة وهو يحمل السيف.

الحصان يدعى "يانجغي"، ووعاء ملح، وحمالة ملعقة خشبية[1]، وزوج من أحذية طويلة الساق، وعدة خيول جيدة، وبضعة أغنام (ثلاثة) يعلفها من أجل إكرام ضيوفه[2]، ولفة من قماش الدنيزلي، ودرع للحصان، ورايات حمراء من منسوجات آقشهير، وسيف، وكنانة، ورمح، وما شابه ذلك.

ولكن، ليس لدينا أي معلومات ملموسة حول مُتع عثمان بيك الخاصة، وهو الذي تجلت فيه شخصية "الغازي" بكل معنى الكلمة. ولكن الموثّق وجودُ سبحةٍ خشبية كبيرة الحبات يقال إنه كان يستخدمها، وطبلٍ بقيا محفوظين في مزاره الكائن في مدينة بورصة، وبقيا يشاهدان حتى أواخر القرن الثاني عشر

(1) كانت الملعقة قديماً أداة يحملها المرء معه كالسلاح. تُدس الملعقة في الحزام على الخصر، أو توضع في حافظة من الشعر الأبيض في مكان قريب من الرأس كما يفعل الإنكشاريون، أو تُدس في الحزام الجلدي السميك، وتُخرج وقت الطعام، وتُغسل بعد الاستخدام، ثم تعاد إلى مكانها. إعداد أوغوظ آريقانلي، الأوّل في تاريخنا، إسطنبول 1973، منشورات مليبت، ص 8-9.

(2) ما ذكر من تركته مأخوذ من القائمة التي أعدها عاشق باشا زادة. انظروا إلى: تاريخ عاشق باشا أوغلو، إعداد [نهال] آطصز، إسطنبول 1970، منشورات وزارة التربية القومية، ص 40.

الهجري. وهما هديتان أرسلهما له السلطان السلجوقي[1]. ولكن السبحة الخشبية والطبل احترقا في حريق اندلع عام 1855 ويسمى "القيامة الصغرى"، ولم يبقيا إلى يومنا مع الأسف[2].

عندما نتساءل: "ماذا كان عثمان غازي يرتدي يا ترى؟" فإن رسومه تشكل المصدر الأول الذي يمكن أن يساعدنا؛ وهذه تعطينا إشارة إلى أنه كان يرتدي ألبسة بسيطة. ولكن الرسامين ألبسوا الغازي عثمان ما كان سلاطين العثمانيين يلبسونه في العصر الكلاسيكي. لقد رسمه قسطنطين قابِضاغلي في أواخر القرن الثامن عشر ضمن سلسلة اللوحات النصفية للسلاطين مرتدياً ألبسة كلاسيكية لا يمكن تمييزها عن ألبسة القانوني ومراد الثالث؛ مع أن العثمانيين لم يستخدموا هذا النوع من الألبسة المزركشة، بل حتى سادة الأناضول لم يلبسوها إلا بعد أن استقروا في القصور في القرن الرابع عشر.

وحسب بعض المصادر، كان يعتمر قبعة طويلة مصنوعة من نسيج أحمر يدعى خراساني ملفوفة بقماش أبيض رقيق عليه نوع من الخيوط المجدولة. وهذا نوع من اللفات يشبه ما كان النخبة في مجتمع الأويغور المسلم يعتمرونه في وسط آسيا. وكانت جبته طويلة وذات ياقة حمراء عريضة.

سنورد في ما يلي عبارة قد تبدو لكم للوهلة الأولى مدعاة للدهشة:

لم يكن الغازي عثمان يرتدي ثيابه مرتين. أعرف أن العبارة السابقة ستثير دهشتكم، إذ ألم يكن يعيش حياة بعيدة كل البعد عن مظاهر الترف والبذخ؟ الجواب هو نعم. ولكن العبارة السابقة لا يجب تفسيرها كتعبير عن البذخ، بل كتعبير عن العطاء الذي يهدف من ورائه إلى إسعاد من هم أصحاب حاجة مساكين[3]. فإذا نظر أحدهم إلى لباسه بانتباه خلعه فوراً، ووهبه إياه. وبحسب

(1) أحمد راسم، "تاريخ العثمانيين: مختارات" إعداد عصمت برمقصظ، إسطنبول 1968، منشورات وزارة التربية القومية، ص 7–8.

(2) زيا نور آقصون، "تاريخنا غير الرسمي: سلاطين العثمانيين"، إسطنبول 1997، منشورات المعرفة، ص 17.

(3) بديع شهصوار أوغلو، "آخر أيام السلاطين العثمانيين"، مجلة التاريخ التركي بالوثائق، العدد: 4 كانون الثاني 1968، ص 65.

نص قديم، كان يكسو العراة الذين لم يكن لديهم ما يسترون به أنفسهم، ويتصدق على الأرامل بشكل خاص.

كانت ثمة عادة قَبَلِيّة قديمة، يفتح بموجبها سيد القبيلة بيته للنهب يوم (الخضر وإلياس)[1]. فيخرج سيد القبيلة مع زوجته من البيت من دون أن يأخذا شيئاً معهما؛ حتى مجرد دبوس، ويهجم أفراد القبيلة على البيت بعد خروجهما، وينهبونه. وكانت هذه العملية تسمى "فتح بيت السيد/ نهب بيت السيد". وكان الغازي عثمان ملتزماً بهذا التقليد، فيفتح بيته مرة في السنة للنهب. وقد استلهم الشاعر توفيق فكرت من قضية "نهب بيت السيد" فكرة قصيدته التي يهجو فيها أعضاء حزب الاتحاد والترقي لكثرة نهبهم الدولة[2].

اعتبر الغازي عثمان أول السلاطين العثمانيين، ولكنه لم يكن سلطاناً، وحظي بلقبي "الغازي" و"بيك". ووصلت إلينا قصيدة نُسبت إليه، عجت من أولها إلى آخرها بصور البطولة والنصح لمُخاطبه. وعلى الرغم من الشك بنسب القصيدة للغازي عثمان، ولكن صحة نسبها تُثبت اعتماداً على مقياس غريب وهو: لماذا نسبت إليه هذه القصيدة وليس غيرها؟

إليكم في ما يلي جزءاً من قصيدته التي تنتشر على نطاق واسع:

ابنِ مدينةً وسوقاً جديدة بمواد بناء من القلب

اعمل ما تريد ولكن لا تظلم فلاحاً

انظر إلى المدينة القديمة الجديدة إنيغول فهي قائمة دائماً

اهدم بورصة التي كسرتْ فيها الكفار وابنها من جديد

اغدُ ذئباً واقصد قطيعاً، وكن أسداً ولا تتقهقر

افعل شيئاً وكن جندياً، وحاصر مضيق اللسان

لا تستخف بمدينة إزنيك، ولا تتدفق كنهر صقاريا

(1) يسمى تاريخ السادس من أيار في الثقافة التركية اسماً مشتقاً من اسمي خضر وإلياس. وبحسب الأسطورة، إن الخضر والنبي إلياس التقيا في هذا التاريخ... المترجم.

(2) هزيمة المتحالفين، والأعمال الكاملة لتوفيق فكرت، إعداد: فخري أوزون، إسطنبول 1973، دار الانقلاب والعنقاء للنشر، ص 36–37.

خذ إزنيك، ولا تبالِ، وابنِ سوراً لكل برج فيها

أنت عثمان بن إرطغرول من سلالة الأغوظ وقراخان

أكمل حقك، وافتح إسلامبول، واجعلها حديقة ورد.

تتفق المصادر جميعها على أن الغازي عثمان كان قنوعاً جداً، ومحباً للعطاء وليس الأخذ. ومن عاداته أنه كان يهب أصحاب الحاجة كل ما يغنمه في الغزوات. على سبيل المثال، كان يطعم كل من يكون في بيته وقت العصر. والغريب أن ذلك الإطعام كان يسبقه عزف الموسيقى. (كان العثمانيون يفضلون سماع الموسيقى قبل تناول الطعام، وليس أثناءه) فقد كان يأمر فرقة المهتر التي أرسلها السلطان السلجوقي علاء الدين باعتبارها أحد تقاليد البيكوية بمباشرة العزف، وكانت تتوقف عن العزف عند البدء بتقديم الطعام[1]. الخصوصية الأخرى لتلك المائدة أن كل من يتواجد هناك يجد له مكاناً فيها من دون تمييز بين غني وفقير، وبين مسلم أو مسيحي.

وهل يمكن لبطل كالغازي عثمان ألا يهتم بالمصارعة؟ ثمة مصادر تلبي فضولنا في ما يتعلق بهذا الجانب، فتفيد أنه مارس المصارعة، وأجاد استخدام السلاح.

توفي الغازي عثمان بعد وفاة حميه الشيخ أدبعالي بثلاثة أو أربعة أشهر، وبعد وفاة زوجته ابنة أدبعالي السيدة ملحون بشهرين. ومن المعروف أنه دفنهما بيديه في بيلَجيك. وعندما وافته المنية دُفن في سويوت بداية، ثم أمر الغازي أورخان بنقله إلى بورصة، ودفنه في قبره الكائن اليوم في حي طوبخانة التزاماً بوصيته التالية التي كتبها قبل وفاته: "يا بني، عندما أموت ضعني تحت تلك القبة الفضية في بورصة". (ولكن قبره الحالي يعود إلى عهد السلطان عبد العزيز. فقد تهدّم القبر الأول تماماً في زلزال عام 1855)[2] وقد أمر عبد الحميد الثاني

(1) بديع شهصوار أوغلو، "الأيام الأخيرة لسلاطين العثمانيين"، ص 64.

(2) يمكن مراجعة كتابي "مدائحية لمدينة بورصة"، إسطنبول 1998، إز/ أثر للنشر من أجل رؤية صورة تربة الغازي عثمان بحالتها الأولى. أعدت طباعته مرة ثانية بعنوان: "المدينة المؤسسة للعثمانيين: مدائحية لبورصة، إسطنبول 2006، منشورات تيماش. ولم تصل إلينا أيضاً تربة الغازي أورخان المجاورة لها كما كانت في حالتها الأولى، فقد أعيد بناؤها بشكل كامل في عهد السلطان عبد العزيز أيضاً.

ببناء مقام في سويوت حيث دفن للمرة الأولى.

من المحتمل أن موته كان بسبب داء المفاصل أو النقرس[1]. النقرس هو المرض الوراثي في العائلة العثمانية المالكة، والأسر المالكة عموماً. وعندما يتحدث عاشق باشا زادة عن الفترة الأخيرة من حياة الغازي عثمان باشا يقول: "كان ثمة عطب في قدم عثمان. وكان يتألم منها"[2]. ويستخدم الكاتب نفسه التعبير ذاته عند الحديث عن وفاة السلطان محمد الفاتح، فعبارة: "سبب وفاته علة في قدمه"[3] تجعلنا نأخذ بعين الاعتبار احتمال وفاة الغازي عثمان باختلاطات النقرس كحفيده.

انطلقنا في هذا الطريق على أساس أنه ليس ثمة الكثير حول المميزات الشخصية لمؤسس الدولة العثمانية، ولكننا عرفنا جانباً ملوناً من حياة هذه الشخصية الفذة.

(1) ألدرسون، المصدر السابق نفسه، ص 173.

(2) تاريخ عاشق باشا أوغلو، ص 35.

(3) تاريخ عاشق باشا أوغلو، ص 234.

إنه مقدام: الغازي أورخان
(1361–1326)

كان أورخان نموذجاً لجميع السلاطين على مدى قرن ونصف.

أحمد حمدي طانبنار

يرى كاتب تاريخ العثمانيين إدريس البتلسي في كتابه الموسوم بالفارسية **هشت بهيشت**[1] أن الغازي أورخان هو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية. بينما يرى خليل إنالجق المؤرخ العثماني الذي لا يغيب عن عينه أي تفصيل أن أورخان كان أول حاكم عثماني لُقِّب بلقب سلطان. ويعتبر عبد الرحمن شرف بيك آخر المؤرخين العثمانيين أنه مقدام، ووضع أُسساً قوية لبناء الدولة التي بدأ والده ببنائها، ونجح بنقل قبيلة كانت تجوب فيافي الأناضول إلى دولة حكمت في أوروبا وآسيا بفضل إدارته العادلة.

ويكمن خلف صفاته كمؤسس عظيم الأدب الذي وصله من الشيخ أدبعالي جد أخيه غير الشقيق علاء الدين، وإرادة والده عثمان الفولاذية، وصدقه الذي لا يحيد عنه، وتواضع أخيه علاء الدين[2]، وصراحته، ودعاء علماء المرحلة له بالبركة والحفظ.

يعد السلطان الغازي أورخان ثالث السلاطين العثمانيين، وأطولهم حكماً؛ إذ بلغت فترة حكمه ستة وثلاثين عاماً. وتفيد المصادر أنه كان وسيماً ومهيباً وقوياً، وأبيض الوجه مع ميل إلى اللون الوردي، وعاقد الحاجبين، ومدور

(1) تعني ثمانية سلاطين أو ثمانية جنان... المترجم

(2) تفيد بعض المصادر أن علاء الدين بيك أخوه من أم أخرى. وثمة احتمال كبير أنه الأخ الشقيق لأورخان. انظروا إلى: عبد القادر أوزجان، "علاء الدين بيك" الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد الثاني، إسطنبول 1989، ص 320. فقد أصدر أخطر القرارات المتعلقة بمستقبل الأسرة العثمانية المالكة، ورفض الجلوس على العرش على الرغم من أنه الأكبر، وبهذا أفسح في المجال لكي تكون السلالة العثمانية من أبناء أورخان وليس من أبنائه. وهناك جامع سُمّي باسمه بني في بورصة.

اللحية، وطويل القامة، وعريض المنكبين، وكان أنفه يشبه أنف كبش، وكانت عيناه واسعتين. أما المؤرخ الرومي هالكوكونديلس فيقول إن الغازي أورخان كان: "شديد اللباقة، وكريماً بشكل خاص مع الفاتحين والفنانين والفقراء". أما المؤرخ نشري فيقول إنه كان يحب العلماءَ وحَفَظة القرآن، وخصص لهم رواتب تسمى بالعثمانية: "أُلفة".

لا يُنكر دور الغازي أورخان في بناء الدولة العثمانية على أسس سليمة، وقد تزوج من ابنة والي يني حصّار المسيحي السيدة نيلوفر، وأنجبت له مراداً، لهذا السبب أُبرز كثيراً أن السلالة العثمانية من نسل السيدة نيلوفر[1].

بالنسبة لزواجه، يمكننا أن نستنتج من الناحية العمرية وضعاً غريباً في زواجه من السيدة نيلوفر: فعندما تزوّج الغازي أورخان من السيدة نيلوفر كان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره. وبهذا تكون السيدة نيلوفر أكبر من الغازي أورخان بخمس سنوات أو ست، وبالتالي يمكن القول إن زواجها منه – في البداية على الأقل – لم يكن سوى عمل رمزي. لهذا السبب، وكما يعتقد رشيد أكرم قوتشو، إنه من غير المعقول أن ينشأ "عشق جسدي" بين ولد في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وصبية في السادسة عشرة من عمرها.

الجانب الآخر الغريب أيضاً هو زواج الغازي أورخان السياسي من تيودورا ابنة إمبراطور بيزنطة يوانيس كانتاكوزين. (حسب إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، إن هذا الزواج تم في أيار 1346[2]) وبموجب هذا الزواج، وضع العثمانيون خمسة آلاف جندي تحت تصرف البيزنطيين. ويبدو أنه كانت للإمبراطور شروط أخرى كأن يُمكِّن الغازي زوجته من رؤية عائلتها كلما استبد بها الشوق لرؤيتهم. ونجد دليلاً على هذا الشرط في أحد السجلات الذي يشير إلى أن الغازي أورخان أتى مع زوجته إلى جوار أُسكودار في إسطنبول عام 1347، حيث مدّ جنوده سجاداً على العشب (هذا يعني أن الفصل كان ربيعاً أو صيفاً)، وأتى جنود بيزنطيون

(1) بعض الأبحاث تشير إلى أن العروس المجلوبة من بيلجيك لم تكن نيلوفر (هولوفيرا)، بل إحدى أولى زوجات أورخان، وأن نيلوفر جارية جلبت إلى القصر. انظروا: Leslie P. Peirce, The Imperial Harem, Oxford University Press, 1993, P. 34.

(2) أوزون تشارشلي، "وقفية الغازي أورخان بيك"، ص 267.



بحسب منمنمة طاشكوبرولو زادة يلتقي الغازي أورخان (إلى اليسار) بعلاء الدين الأسود أحد رجال العلم في عصره. يدا الغازي معقودتان أمامه، ويستمع لأستاذه بكل أدب.

على متن زورق إلى قرب برج البنت، واصطحبوا تيودورا إلى قصر والدها، وبعد بقاء تيودورا هناك فترة، وإشباع شوقها لعائلتها أعادوها إلى جوار برج البنت، وسلموها لجنود أورخان بيك.

ومن المعلوم أن عرس تيودورا أقيم في سيلفري، وجاءت السفن العثمانية إلى هناك لأخذ العروس، وانطلقت من مودانيا إلى بورصة، واصطحبتها إلى قصر أورخان بيك في (حصار)[1].

(1) انظروا إلى: جمال قوظان أوغلو، "زواج تيودورا والغازي أورخان في سيلفري"، التاريخ الاجتماعي، العدد 11، تشرين الثاني 1994، ص 27-29. انظروا كذلك إلى خليل إنالجك، "السلاطين العثمانيون في مرحلة التأسيس" (1302-1481)، إسطنبول 1010، منشورات إسام، ص 54.



الأصل موجود في سانت بطرسبورغ، حسب اسكندرنامة أحمدي فإن الغازي أورخان يلتقي بطرك سيلانيك الراهب غريغوري بالاماس. ألبستهم مختلفة بشكل لافت للانتباه. على رؤوسهم قبعات، ولم تكن قد درجت اللفات بعد.

ونظراً لافتقارنا إلى المعلومات المؤكدة عما إذا كان الغازي أورخان يهتم بالفنون الجميلة أم لا، يمكننا اعتبار المزهرية المعروضة في متحف اللوفر والتي تحمل اسمه بمثابة طرف خيط في هذا الموضوع، والتعمق في الجانب الفني للغازي أورخان[1].

يصفه لنا الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة الذي حظي بمقابلته شخصياً: "أسمى سلاطين التركمان" و"يفوقهم جميعاً بما لديه من أراض وجنود وغنى". ومن خصوصيات أورخان بيك حسب ابن بطوطة، أنه كان يحكم مئة قلعة، ويقضي أغلب وقته بالتجوال عليها. ويضيف الرحالة: "يروى أنه لم يكن يقضي

(1) ضوغان قوبان، "Turkish Culture & Arts" إسطنبول 1986، منشورات بنك الأناضول، ص 119.

أكثر من شهر في أي مدينة، ويخوض الحرب باستمرار ضد الكفار، ويحاصر قلاعهم واحدة تلو الأخرى، ويأخذها منهم".

ويروى عنه أن أكثر ما يدخل البهجة إلى نفسه هو إشعاله قناديل الجوامع التي أمر ببنائها، وتوزيعه الطعام الذي أمر بطهيه في قصره على الفقراء والمساكين بنفسه[1]. أما طانبنار فيصف خصوصية الغازي أورخان التأسيسية على النحو التالي:

"إنه في نقطة البداية لا يتوقف عند حدود بناء إمبراطورية، فيضيف إليها عمق الرحمة والشفقة أيضاً"[2].

حسب كتاب التاريخ الصافي ليحيى بستان زادة، كان الغازي أورخان يصوم أيام الاثنين والخميس، ويعتمر قبعة من وبر الصوف، ويلفها بلفة بيضاء تيمناً بمولانا جلال الدين الرومي[3]. ويحسب بعض المصادر، كان يعتمر قبعة من وبر حيوان أبيض.

دعونا لا نكتفي بالمقطع القصير الذي نقلناه عن صاحب الذكاء النوعي أحمد حمدي طانبنار في محاولة فهمه الغازي أورخان على حقيقته، ولنكمل كلامه. انظروا كيف تلتقط نظرة هذا الفنان الأصيل الثاقبة طيران الغازي أورخان بجناحي الشاعر يونس إمرة:

"أنا لا أميز بين يونس والغازي أورخان ومن معه ممن عملوا على تأسيس الإمبراطورية الثانية. كلما انحنيت نحو وجه الغازي أورخان، رأيت خطوطاً منعكسة من ديوان يونس. وأحيّي عالم القيم البناءة المتولد من لغته التركية وزوبعة روحه الكامنة خلف تلك الفتوحات كلها".

---

(1) يحيى أفندي بستان زادة، "التاريخ الصافي/ تحفة الأحباب" إعداد: نجدت صقا أوغلو، إسطنبول 1978، منشورات مليبت، ص 31.

(2) انظروا إلى: أحمد حمدي طانبنار، خمس مدن، إسطنبول 1988، منشورات وزارة التربية القومية، ص 114-115.

(3) بديع شهصوار أوغلو، الأيام الأخيرة للسلاطين العثمانيين وموتهم، مجلة التاريخ التركي الموثقة، العدد 5، شباط 1968، ص 48.

معجب بمولانا جلال الدين:
مراد الأول خداوندكار (مراد الله)
(1389–1361)

ذات ليلة، قال له ذو وجه منور في حلمه: "ابنِ قصراً في أدرنة"، وأشار إلى مكان القصر.

في اليوم التالي، وجد الغازي خداوندكار مع كبار رجال الدولة المكان، وأمر ببناء قصر عظيم، وجعل المدينة مركزاً للسلطنة.

الشيخ أحمد كبير الفلكيين

نعلم أن عدداً من السلاطين العثمانيين خضعوا لتربية عسكرية، خاصة السلاطين العشرة الأوائل، وفي ما بعد عثمان الثاني الملقب بالفتى، وقاد أمثال مراد الرابع ومصطفى الثاني شخصياً جيوش الحملات، وحققوا انتصارات كبيرة في ميادين الوغى وعمليات الحصار. من المعلوم أنه من الصعب إيجاد قائد عسكري يقود المعارك ويمتلك عقلاً عسكرياً مُخَطِّطاً، ومع ذلك نرى أن صفة القائد العسكري المحنك رافقت السلاطين العشرة الأوائل وكأنها خاصية وراثية.

ليس من السهولة بمكان إيجاد حالة كهذه في الأسر الحاكمة. ويمكن وصف ظهور قادة عسكريين بشكل متتالٍ في الأسرة الحاكمة العثمانية بأنه ضرب من ضروب الإعجاز.

ومن المعروف أن ثلاثة من السلاطين العشرة الأوائل قضوا أثناء الحملات العسكرية؛ وهم مراد الأول، والفاتح، والقانوني. ولكن، على الرغم من أن الأخيرين أسلما الروح أثناء الحملة، إلاّ أنهما لم يكونا على تماس مع العدو، ويحتمل أن تكون وفاة السلطان الفاتح خلال حملته ضد المماليك ناتجة عن مضاعفات إصابته بالنقرس الذي عانى منه لفترات طويلة، وهذا يخالف



حادثة استشهاد مراد الأول في كوسوفو حسب اسكندرنامة أحمدي. رسم لباس السلطان وأركانه بشكل أكثر تطابقاً مع الحقيقة في المنمنمة العائدة للعصر الأول في القرن الخامس عشر.

الادعاءات التي تشير إلى موته مسموماً. أما القانوني فقد كان في حملة سيكتوار، وهو أيضاً كان مريضاً، وتوفي نتيجة تأزم حالته الصحّيّة. أما السلطان مراد الأول فهو السلطان الوحيد الذي اغتيل وهو في ميدان المعارك.

تصفه المصادر بأنه مربوع القامة، وطويل الرقبة، ومستدير الوجه، وكبير الأنف (أنفه شبيه بأنف الكبش)، وواسع العينين، وعاقد الحاجبين الكثين، وصقري النظرة، وكبير الأسنان المتباعدة، وعريض الصدر. لحيته ليست طويلة ولا قصيرة، أما أصابعه فطويلة وغليظة وقوية جداً ومتباعدة عن بعضها بعضاً. (يقال إن طغراءه نجمت عن ضغطه بإصبعه على الورق). صوته كان قوياً في الحروب ويُسمع من مسافة بعيدة.

تُبرز المصادر العثمانية الجانب الخيّر والعادل لمراد الأول، أما بعض

المصادر الغربية فتصفه بأنه قليل الكلام، وأن عباراته جميلة على قلتها، وأنه "حاكم خيّر، وصياد لا يعرف التعب، وفارس شهم". ويصفه ديمتري كانتمير بأنه "رمز الاستقامة"، وإرادته لا تُهزم. يؤدي فروضه الدينية بالتزام، ويحب مناقشة العلماء كثيراً، ويرتدي قماشاً صوفياً خفيفاً ورقيقاً، وهذا رداء خاص بالدراويش ورجال الدين[1]. ويُروى أن الشعب كان يحبه باعتباره حامياً وأباً مباركاً. ونحن نرى أن هذا سبب تلقيبه خداوندكار. ويثق خليل إنالجق بأن لقبه "الغازي خداوندكار" يعود لشجاعته في الغزو، وحمايته الإمبراطورية[2].

يعرف عن السلطان مراد الأول تعلقه بالصيد شأنه شأن الكثير من السلاطين العثمانيين. ويصف المؤرخ نشري حبه للصيد بقوله: "كان يحب الصيد كثيراً، ولديه كلاب ذات سلاسل ذهبية وفضية. وكانت صقوره هكذا أيضاً".

ومما يدحض ادعاء هامر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، أن "مراد" الأول أولُ سلطان نعرف أن لديه مكتبة خاصة. من أين نعرف هذا؟ من بعض الكتب المنسوخة من أجل مكتبته[3].

كان السلطان مراد محباً بشدة لمولانا جلال الدين. وحظي بلقبي "هنكار" و"خداوندكار" نتيجة ذيوع حبه العميق له. لهذا السبب، أمر بخياطة قبعة من قطع ثوب عائد لمولانا جلال الدين بخيوط ذهبية، وصنع منها تاجاً، ولف عليها لفة مدورة[4]. وتمت المحافظة على هذه الرأسية في مقبرته في بورصة حتى مطلع القرن السابع عشر، حتى إن بعض السلاطين العثمانيين اعتمروا تلك القبعة

(1) ديمتري كانتمير، **تاريخ صعود الإمبراطورية العثمانية وانهيارها** I، ترجمة أوزدمير تشوبان أوغلو، أنقرة 1979، منشورات وزارة الثقافة، ص 43.

(2) خليل إنالجق، مراد الأول، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 31، إسطنبول 2006، ص 163.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد الأول، الطبعة الثانية، إسطنبول 1975، منشورات مجمع اللغة التركية، ص 497. ومن أجل المزيد من المعلومات انظروا إلى: سهيل أُنور، **مكتبة الفاتح الخاصة**، عالم التاريخ، عدد خاص بالفاتح، أيار 1953، ص 9–10. برأي أنور، إن "مراد" الأول لم يكن جاهلاً كما يُعتقد (اعتماداً على قصة أنه ضغط بإصبعه فظهرت الطغراء لأنه لا يُوقع)، وكان عالماً إلى درجة أنه يقرأ أصعب الكتب العربية، ولديه مكتبة خاصة.

(4) بديع شهصوار أوغلو، **أيام السلاطين العثمانيين الأخيرة وموتهم**، مجلة التاريخ التركي الموثقة، العدد 6، آذار 1968، ص 79.

على اعتبار أنها تاج السلطنة.

وعرف عن السلطان مراد تفضيله ارتداء ثوب أبيض مزين بالأحمر. وكانت القبعة التي يعتمرها مذهّبة، وتبرز أطرافها بمقدار إصبع عن اللفة.

نرى أن تنظيم الأخويات المستمر منذ الغازي عثمان قد قطع مرحلة جديدة في عهده. ويخبرنا المؤرخ إسماعيل حقي أوزون تشارشلي بأن مراداً كان رئيس أخوية[1]. ونرى خصوصيته هذه عندما لم يحتفظ بأي من الهدايا المرسلة له عند زواج ابنه الأمير بيازيد من ابنة علي بيك غرميان أوغلو، وتوزيعها كلها على السادة ورجال الدولة والعلماء والفقراء. وجاء في إحدى الوقفيات: "لففت وسط أخي موسى بالحزام الذي لَفّه الإخوة على وسطي"[2].

أعطى مراد الأول أولوية لفتح روملي (البلقان)، وخطط لتكون أدرنة العاصمة الثانية، وحقق تفوقاً على الإقطاعيات الأخرى في الأناضول، وبهذا يظهر لدينا أول مشروع للإمبراطورية العثمانية[3].

في حي طوبخانة البورصي، وإلى الأعلى من قبري الغازيين عثمان وأورخان بقليل هناك جامع يسمونه جامع الشهادة. تقول الروايات إن خداوندكار "مراد" الأول أقام صلاته الأخيرة قبيل انطلاقه إلى حرب كوسوفو في هذا الجامع الذي أمر ببنائه عام 1389. وعندما استشهد في المعركة، استُلهم اسم الجامع من شهادته، فسمي **جامع الشهادة**.

(1) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، تكنات الجيش الرسمي في تشكيلات الدولة العثمانية، أنقرة 1985، منشورات مجمع اللغة التركية، ص 147.

(2) انظروا إلى: نجدت صقا أوغلو، "مراد الأول (خداوندكار) موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم"، المجلد الثاني، إسطنبول 2008، منشورات "Yapı Kredi" بنك البناء والقروض، ص 235.

(3) إنالجق، مصدر سبق ذكره، ص 163.

أول الشعراء: بيازيد الصاعقة
(1402–1389)

كان سلطان سلاطين مثل سام[1].

أوليا چلبي

هل تعلمون سبب بناء مسجد أُلو مركز الجذب في بورصة؟ إليكم قصة هذا الجامع، فالروايات تفيد أن بايزيد الصاعقة نذر بناء عشرين جامعاً من مال غنائم الحرب إن قدر له النصر في معركة نيبولوس، وهذا ما كان، وعمل مع رجاله على تحديد الأماكن التي ستبنى فيها هذه المساجد. بعد فترة، اكتشف بيازيد الصاعقة صعوبة بناء عشرين جامعاً، وطلب من المحيطين به إيجاد حلٍّ له. فوجدوا أنه تحدث في نذره عن عشرين قبة، وأقنعوه أنه إذا بنى جامعاً بعشرين قبة يكون قد أوفى بالنذر، وهكذا ظهر جامع أُلو.

اشتهر الأمير بيازيد بصفته قائداً عسكرياً عندما غيّر سير المعركة في مواجهة الصرب في فيافي كوسوفو، واختاره رجال الدولة سلطان سلاطين من دون تردد عندما استشهد والده غيلة، وبهذا انتزع حقه بالعرش بقوة ذراعه. وقد أثبت للعالم أجمع نجاحه بانتصاره الأكبر في نيبولوس. حظي بلقب "الصاعقة" لأنه قاد قواته من الأناضول إلى روملي، وبالعكس بسرعة الصاعقة. ويروي أوليا چلبي قصة هذا اللقب على النحو التالي:

> عبر بيازيد الصاعقة من سينوب إلى إفلاك بسنة واحدة، ولأنه لحق بوالده السلطان سبع مرات في بورصة كالصاعقة قال له: "يا بيازيد، أنت أصبحت صاعقة". وصار اسمه بيازيد خان الصاعقة.

بيازيد الصاعقة عسكري جريء إلى درجة أنه تسلل وحيداً من بين صفوف

(1) والد البطل الأسطوري لدى الإيرانيين زال. وهو شهير بمصارعته وبطولته.

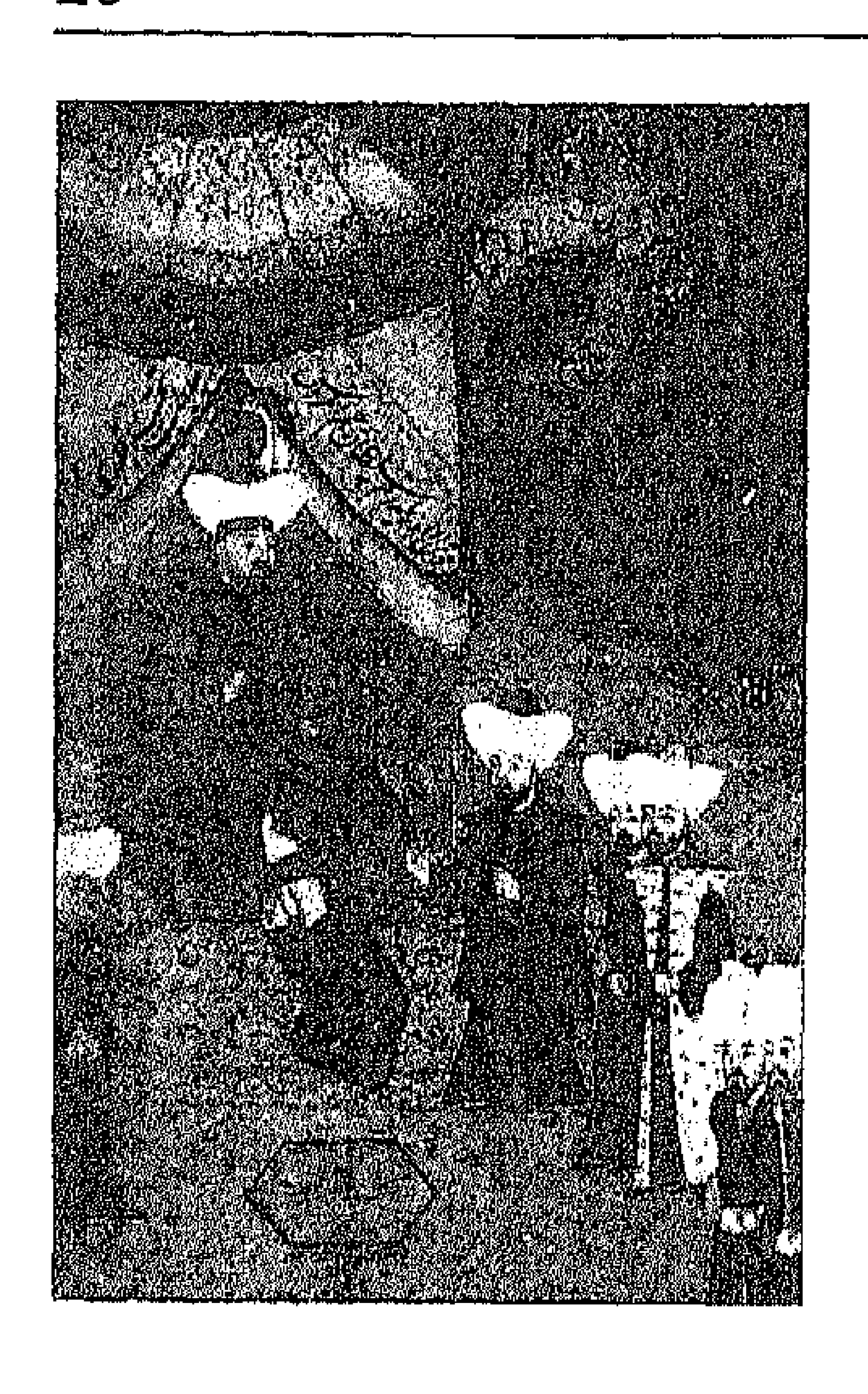
الجيش الصليبي الذي يحاصر قلعة نيبولوس، وأوصل شخصياً خبراً لقائد القلعة ضوغـان بيـك. تـروي الكتـب صفاتـه على النحـو التالي: أحمر البشـرة مع ميل إلى اللون البرونزي (حسب كبير الفلكيين كانت بشرته بيضاء مائلة إلى الحمرة والصفـرة)، ومسـتدير الوجـه، وأزرق العينيـن مع ميل إلى اللون الأخضر، وكث الحاجبيـن، ومصفـر اللحيـة، وضخـم الأنف، ومخيـف النظرة، ومربـوع القامة، وقـوي البنيـة. ويوصـف فـي مصـادر أخـرى بأنه أشـقر، وأصفر اللحيـة، وعاقد الحاجبيـن، ومحمـرّ الوجـه، وأزرق العينيـن، وضخـم الأنف، ومخيـف النظرة، وطويل القامة، وممتلئ الجسم إلى حدٍّ ما.

عـرف عـن بايزيـد حبـه الجـم للصيد، وقد قام بتأسـيس هيئة كبيـرة العدد مختصـة بالصيـد؛ ملتزمـاً بتقاليـد الأسـر المالكة التركية القديمـة، ومنحها مكانة رسمية في بنية الدولة[1]. وهكذا نجد أن بيازيد الصاعقة هو مؤسس هيئة الصيد التي ستصل في القصر العثماني إلى الذروة في عهد محمد الرابع. وقد جلب فرسان أوروبا المشاهير الذين هزمهم وأسرهم إلى قصره في بورصة، واصطحب هيئة الصيد العظيمة إلى الصيد في جبل ألو.

إذاً، هل يمكننا القول إن سلطان السلاطين الرابع كان محباً للصيد وبعيداً عـن أنـواع الرياضـة الأخـرى؟ كلا، فالمؤرخون يذكرون أنـه كان مصارعاً، ولا يشبعون من وصف مهارته باستخدام السلاح وركوب الخيل.

تفيد المصادر أيضاً أنه كان ينظم الشـعر، ولم يكن شـاعراً عادياً، بل كان سلطان السلاطين متميزاً بإلقائه الجدي للشعر. ويروى أنه كان يلقي الشعر في بعض المجالس باسم "الصاعقة" الفني (إن كان يمكننا وصف هذا اللقب على أنه اسـم فني. وهو أول سـلطان سـلاطين نعرف أن له اسـماً فنياً. وانطلاقاً من قول الخبراء إنه استخدم مصطلحات شعبية في نظمه المكتوب بلغة بسيطة يمكن القول إن بيازيد الصاعقة نظم شـعراً شـعبياً. ونلاحظ أثر الشـعر الشـعبي لدى حفيده مراد الرابع. ولكن، لم يصلنا أي نموذج من شعره.

(1) وصفي ماهر قوجا تورك، السلاطين العثمانيون، الطبعة السادسة، أنقرة 1968، منشورات دار أدبيات، ص 61.



هذه المنمنمة من هنارنامة تظهر مراسم جلوس بيازيد الصاعقة في كوسوفو.

خصوصية بيازيد الصاعقة الأخرى هي أنه أول السلاطين العثمانيين الذين حاصروا إسطنبول؛ وهو لم يكتف بحصارها مرة واحدة فقط. وحين كانت على وشك السقوط في الحصار الثاني، فك الحصار إثر قبول الإمبراطور البيزنطي تأسيس حي إسلامي في إسطنبول، وبناء جامع، وتعيين إمام وخطيب لهذا الجامع، واستقبال قاضٍ لرعاية شؤون المسلمين القانونية. جُلِبَ المسلمون الأوائل في إسطنبول من غوينوك وينجة التابعة لطاراقلي، وأُسكنوا هناك. ولكن الإمبراطور أخرج المسلمين من المدينة، وخرّب الجامع إثر هزيمة العثمانيين أمام جيش تيمورلنك في أنقرة عام 1402.

ويقال إن بيازيد الصاعقة أول من لبس السراسر (وهو فراء قيّم مطرز بالحرير والذهب والفضة)، وتناول الطعام من أطباق ذهبية وفضية. وبرأي كبير الفلكيين الشيخ أحمد، ارتدى بيازيد الصاعقة قفطانات مخملية مزهرة بورصية. وثمة قناعة عامة أنه أول من لبس المخمل المطرز بالذهب الخاص بالحكام، وأول من احتسى الكحول في الأسرة العثمانية المالكة[1]. أما طراز لفته فقد

(1) مدحت سرت أوغلو، ما خلف ستارة عصر القانوني مجلة حياة التاريخية، العدد 1، كانون الثاني 1976، ص 20.

كان على نسق لفة والده وأجداده. ويقال إنه أهدى الفرسان الألمان والفرنسيين والإنكليز الذين أسرهم في نيبولوس لفات من القماش البورصي عند عودته. ومنذ أوائل القرن الرابع عشر، بات القماش العثماني رائجاً في باريس حسب أطروحة "Rouillard" للدكتوراه المكتوبة باللغة الفرنسية.

لنتحدث عن علاقته بالطرائق الدينية أيضاً. كان صهره أمير سلطان أحد أقطاب بورصة، وهذا أحد أتباع الطريقة البيرمية. ويُروى أن بيازيد الصاعقة لم يكن منتمياً إلى طريقة صهره، بل إلى الطريقة الزينية التي كانت مؤثرة في عهده[1].

في نهاية حديثنا، لا بد من إيراد معلومة غريبة، فقد قيل إن بيازيد كان يتوضأ من بركة كبيرة مصنوعة من الفضة. ليس هناك ما يدعم هذه المعلومة ويؤكد صحتها، ولكن، ألا تظهر البركة والنافورة الموجودتان في وسط جامع ألو بشكل كاف شغفه بالماء؟[2].

ويقال إن بيازيد انتحر بالسم الذي كان يخفيه في خاتمه، بعد أن وقع بأسر تيمورلنك، إلا أن هذه القصة صعبة التصديق وتطرح سؤالاً حول عدم احتياط آسريه؛ وخصوصاً أنه قد مرّت عليه أسابيع وهو مأسور. ولا بد من القول إن بايزيد سواء أنتحر أم حرر من الأسر كان سيعد ميتاً من الناحيتين السياسية والمعنوية نتيجة مرّ الذل الذي أذاقه إياه تيمورلنك، وبالتالي لا تعود فرضية موته مقهوراً مستبعدة.

بعد وفاته، دفن مؤقتاً في مقبرة السيد محمود حيراني، ثم أبلغ تيمورلنك موسى چلبي أن يشيّع والده بمراسم جنائزية سلطانية، ويدفنه بجوار الجامع والمدرسة الدينية (كُلية الصاعقة) التي بناها في بورصة بموجب وصيته. إثر ذلك، نُقل الجثمان إلى بورصة، ودفن في المكان المذكور[3].

---

(1) انظروا إلى: حسن ألاكسة، **الحكام المتصوفون في التاريخ التركي**، إسطنبول 2004، منشورات (أوكول/ مدرسة)، ص 82.

(2) يحيى بستان زادة، **التاريخ الصافي**، ص 48.

(3) دُندار آقونال، **بروتوكول الدولة العثمانية ومراسمها: المراسم الإمبراطورية**، إسطنبول 2004، منشورات كتب تاريخ الفكر، ص 159.

السلطان المصارع: محمد الأول (چلبي) (1421–1413)

لعل إنجازات محمد چلبي تبدو خافتة مقارنة بإنجازات حفيده السلطان سليم القاطع (ياووز)، أو إنجازات سميه محمد الثاني خان الفاتح، ولكنها أهم في ما لو أخذت الأوضاع العامة بعين الاعتبار.

عبد الرحمن شرف بيك

يُذكر محمد چلبي باعتباره المؤسس الثاني للدولة العثمانية إثر إخراجها من كبوة مرحلة تيمور، وإنهائه الفوضى. ويوصف بأنه مربوع القامة، وداكن اللحية، ومستدير الوجه، وعريض الصدر. أما مصادر أخرى فتصفه بأنه عريض الجبهة، وأسود العينين، وعاقد الحاجبين، وكث اللحية، وعريض المنكبين، وهزيل البنية[1]. ولكن شخصاً هزيل البنية لا يمكنه أن يكون مصارعاً كما سنرى لاحقاً. أما هامر فيصفه بأنه السلطان العثماني المحبب: فتناسق جسده، وذائقته السليمة، ومواقفه اللبقة تجعله شخصاً نخبوياً. كانت نظرتُه حادة كالنسر، وكان قويًا جداً كالأسد.

يقال إنه كان يصنع أوتار الأقواس في صغره، لهذا كان يُلقب الوتّار[2]. ولكن هذا اللقب يرد في مصادر أخرى "المصارع"[3]. وقد سميّ في بعض الكتب "چلبي المصارع"، ويعود سبب ذلك إلى أنه كان يطلق على المصارع وقتها الكلمة الفارسية "كوشتگير"[4]. فهامر مقتنع أن "محمد" چلبي مصارع بكل

(1) نجدت صقا أوغلو، محمد الأول (چلبي)، موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم، المجلد 2، ص 82.

(2) منير أطالر، السلاطين العثمانيون، مجلة كلية الإلهيات في جامعة أنقرة، العدد XXIV، 1981، ص 431.

(3) هناك تشابه لفظي بين كلمتي "كُرشتشي/ وتار" و"غرشتشي/ مصارع" العثمانيتين... المترجم

(4) متين أند، الرياضة واللهو واللعب في القرن السادس عشر، مجلة الحياة تاريخ، العدد الثاني، آذار 1970، ص 6.

ما للكلمة من معنى، ويقول إن كلمة كريشچي / وتار انتقلت إلى المصادر الغربية نتيجة خطأ في الترجمة، ويضيف: "حوّل المؤرخون الصرب كلمة كريشچي/ وتار إلى كلمتي "Kiricheld, Tzhirizla"[1].

ويقول آخرون إنه اشتغل حبّالاً[2]. بالرغم من الجدل حول حرفة هذا السلطان، إلا أن الثابت أنه استطاع إخراج الدولة العثمانية من مرحلة الفوضى التي سقطت فيها، وإعادة شموخها إليها بجهوده الجبارة.

شأنه شأن والده كان مولعاً بالصيد، وقد كانت عاقبة ولعه هذه وخيمة، فقد وصلنا أنه سقط عن حصانه أثناء مطاردته خنزيراً برياً في رحلة صيد في أدرنة، وتأذى عموده الفقري، فأصيب بالشلل، ثم توفي. قد ورد في القيود أنه شارك في أربع وعشرين معركة، وأصيب أربعين إصابة. (لم تكن إصابات السلاطين العثمانيين الأوائل وحوادثهم قليلة بسبب خوضهم المعارك مع أعدائهم. فعلى سبيل المثال، من المعروف أن "مراد" الثاني كان أعور لإصابته بسهم، كما أن السلطان الفاتح أصيب بركبته أو فخذه في حملة بلغراد).

يعتبر محمد چلبي من أهم الفرسان العثمانيين. وقد شكّل فصيلين من الفرسان المهرة الذين جمعهم من أماصيا ومرزيفون عندما كان والياً عليهما، وجعل الفصيلين في إطار منظم، وكان الفصيلان يخوضان المسابقات، ولهما مشجعون من أوساط القصر. ومع الزمن، تحول الفصيلان إلى ناديين رياضيين، واتخذ المرزيفونيون من الملفوف شعاراً لهم، أما الأماصيون فكانت البامياء شعاراً لهم، واستمر التنافس بين هذين الفريقين حتى القرن التاسع عشر[3]. حتى إن السبيل الذي أنشأه محمد چلبي، ويقع اليوم أمام مديرية الشرطة في تشنغل كوي في إسطنبول، وفي قمته ملفوفة ذكرى من ذلك التنافس الأزلي. لا بد أن الملفوف المرمري قد وضع فوق السبيل بعد انتصار جماعة الملفوف في

(1) هامر، تاريخ العثمانيين الكبير المجلد الأول، إسطنبول 1989، منشورات أوتشضال، ص 405، وص 584، الملاحظة 1.

(2) آيضن طان إري، الحكم في مرحلة تأسيس الدولة العثمانية، وتطور المؤسسة، وتنظيم حياة القصر. أنقرة 1978، منشورات كلية اللغات والجغرافية والتاريخ في جامعة أنقرة، ص 104.

(3) متين أند، أنواع الرياضة التركية القديمة سكاي لايف، 1/ 2004، ص 122-124.

إحدى المباريات.

ومن المعروف أيضاً أن السلطان "محمد" چلبي كانت لديه مكتبة خاصة. زار المؤرخ العربي الشهير ابن عربشاه أدرنة في عهده، ودخل قصره، وحظي بإحسانه ومجاملته. ومن المعروف أن ابن عربشاه وقّع على ترجمات كثيرة أنجزها خلال سنوات إقامته في أدرنة، حتى إنه حضر اجتماعات الديوان العالي، وعينه السلطان كاتباً له. وبعد وفاة السلطان، عاد ابن عربشاه إلى القاهرة(1). وقد أنجز ترجمة تفسير أبي الليث السمرقندي أثناء إقامته في القصر، وأهداه لمحمد چلبي(2).

برأي المؤرخ خير الله أفندي، كان محمد چلبي موهوباً بالكتابة والشعر. وكان يهوى الشعر، وكانت رعايته للعلماء واحترامه لرجال الدين عظيمَين(3).

حسب هارميين، إن إعداد صرة الحج السلطانية المتضمنة الهدايا وموكبها غدَوا تقليداً في عهده، واستمرا في أصعب الظروف المالية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى(4). ولكننا لا نعرف نوع الهدايا التي كانت ترسل في الصرة، وعلينا أن ننتظر عهد بيازيد الثاني لمعرفة هذا.

حسب مدونة تتعلق بلباس محمد چلبي، كان يرتدي أطلس رقيقاً أحمرَ فوقه ديبا (الديبا قماش ثقيل من الحرير أو المخمل مطرز بالذهب والفضة). واعتماداً على هامر، لا بد لنا من الإقرار بأنه كان يعتمر لفة مختلفة عن لفات أجداده. كان يلف القماش الرقيق حول قبعته طبقات؛ مشكلاً بروزات عديدة، ولا يبقى ما يظهر من القبعة سوى رأسها. وكان تفصيل قفطانه يشبه قفطانات السلاطين الذين سبقوه، ولكن البطانة استبدلت بفراء سمّور في الفترة الأخيرة،

(1) طان إري، مصدر سبق ذكره، ص 167-168.

(2) هدايت آيدار، **ترجمات القرآن وتفاسيره في العهد العثماني**، الحياة القرآنية، العدد 13، تموز - آب 2010، ص 47.

(3) خير الله أفندي، **تاريخ الدولة العثمانية**، المجلد الثالث، إعداد ظهوي ضانشمان، إسطنبول 1971، منشورات "صون حوادث/ الأحداث الأخيرة"، ص 193.

(4) عبد الرحمن شرف، **تاريخ الدولة العثمانية**، إعداد موسى ضومان، إسطنبول 2005، منشورات "غوك قبة/ قبة السماء"، ص 99.

وثُبِّتَ الفراء على أطرافه أيضاً[1].

بالرغم من أن أياً من السلاطين العثمانيين لم يحج، إلاّ أن هناك رواية تفيد أنه عزم على الحج عندما كان أميراً، ويرد هذا في كتاب المؤرخ يحيى أفندي بستان زادة[2]. بالإضافة إلى محمد چلبي، عزم بيازيد الثاني، وعثمان الفتى، والأمير قورقوت على الحج، ولكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك لأسباب مختلفة. ويعتبر جم سلطان الوحيد من بين رجال الأسرة الحاكمة العثمانية الذي حج إلى مكة.

ولا يهمل يحيى بستان زادة إبراز الجانب الخيّر والمتواضع لدى محمد الأول:

"لكثرة هوسه بعمل الخير كان يأمر بطهي الطعام من ماله الخاص مساء كل جمعة، ويوزعه بنفسه على الفقراء. وإحسانه غير المحدود أفرح اليتامى ومكسوري الخاطر".

(1) هامر، مصدر سبق ذكره، المجلد 1، ص 406. كان الفراء لا يوضع قديماً على وجه القفطان، بل داخله لكي يدفئ، ولكن قسماً منه يظهر على الياقة، ويسمى هذا: "قلب الفراء".

(2) يحيى بستان زادة، التاريخ الصافي، ص 53.

السلطان الحكيم: مراد الثاني
(1451–1421)

تُرجمت كتبٌ كثيرة من العربية والفرنسية إلى التركية في عهد مراد الثاني، وكان عهده عهداً مهماً على صعيد تطوير الثقافة التركية.

خليل إنالجق

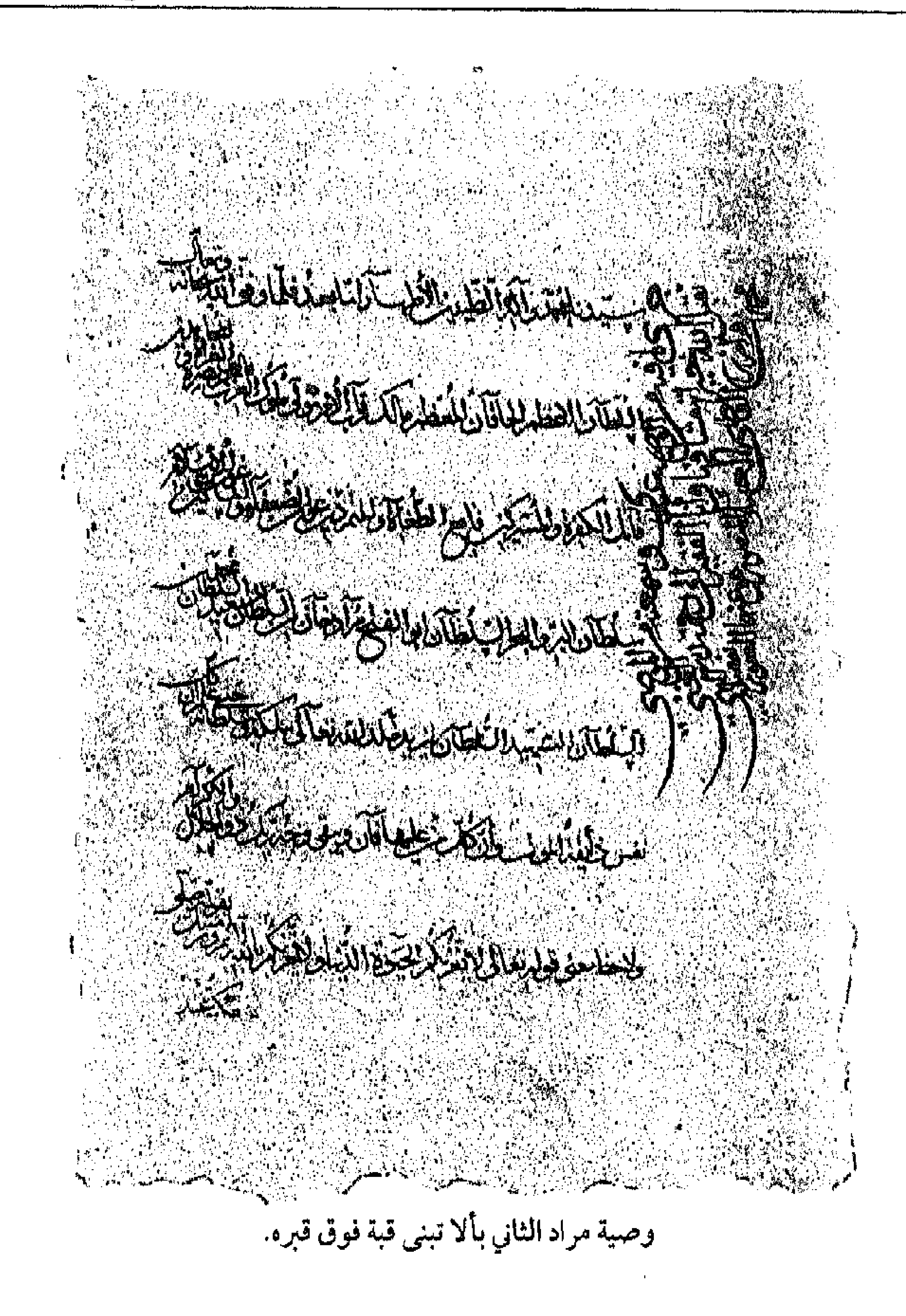
يُوصف السلطان مراد الثاني بأنه مربوع القامة، ومستدير الوجه، وعريض الصدر، وأشهل العينين، ومحمرّ اللحية. رآه الرحالة "Bertrandon de la Broquiere" في أدرنة عام 1432، أي عام ولادة الفاتح، وصوره على النحو الآتي:

> كان ممتلئ الجسم، وقصير القامة، ومستدير الوجه، تتري الملامح، وأسمر البشرة، وصغير العينين قليلاً. عظمتا وجنتيه بارزتان، ولحيته مدورة... كنتُ أسمع صوته الجهوري وهو يتكلم مع معيته.

مع عهد مراد الثاني بدأنا نتلقى بشائر النموذج النمطي للسلاطين. فقد كان الاستمتاع بالموسيقى والشعر، ورعاية الفنانين – وخاصة الموسيقيين والشعراء – من بين الخصوصيات التي تميز هذا النموذج الذي سيستمر قروناً. ما يعزز أدلتنا على حب مراد الثاني للموسيقى والشعر هو اهتمامه الكبير بهذين الفنين اللذين حققا تطوراً كبيراً بدءاً من عهده. ونعرف من شهادة "Bertrandon de la Broquiere" مستشار دوق برغونيا في العام 1433 بوجود الشعراء العازفين في قصر أدرنة. وقد استمع إلى ملاحم البطولة التي ألقاها الشعراء العازفون[1].

طوال فترة توليه الحكم التي دامت ثلاثين سنة – ما عدا فترتي انقطاع

(1) بولند آقصوي، حول علاقة الموسيقى التقليدية باعتبارها ثقافة عليا، بموسيقى الثقافة الدنيا بريكم/ مخزون، العدد 71–72، آذار – نيسان 1995، ص 211.



وصية مراد الثاني بألا تبنى قبة فوق قبره.

قصيرتين ترك العرش فيهما لابنه – توافد الموسيقيون إلى البلاط العثماني من كل حدب وصوب. فعلى سبيل المثال، قدّم أستاذ الموسيقى الكبير في الشرق عبد القادر ميراغي الفارسي نسخة من كتاب نظريته الموسيقية **مقاصد الألحان** هدية لمراد الثاني، وهي موجودة اليوم في جناح "إيروان" في قصر طوب قابِ.

إذا استثنينا تنازل الغازي عثمان عن العرش لابنه أورخان بسبب مرضه، فإن "مراد" الثاني هو سلطان السلاطين الوحيد الذي وقّع على وثيقة التنازل عن العرش لغيره بإرادته. لقد ترك العرش لابنه محمد مرتين، لهذا مكانته فريدة في

الأسرة المالكة العثمانية. (سنرى أن مصطفى الأول عاش وضعاً مشابهاً، ولكن يجب ألا يغيب عن نظرنا أنه كان مريضاً).

يقول كبير الفلكيين: "كانت أثوابه مثل أثواب أجداده الكرام". مذكراً بأنه لم يبدِ اهتماماً بأن يكون مختلف الهندام. ويكتب الرحالة الفرنسي "Bertrandon de la Broquiere" الذي قابل "مراد" الثاني عندما كان بصحة جيدة أنه كان يرتدي فراء وسترة من المخمل الأحمر، ويعتمر قبعة من الفراء وهو يجلس على فراء عرشه. ولن يترك السلاطين العثمانيون عادة وضع قبعات الفراء حتى عهد الفاتح.

اشتهرت جلسات مراد الثاني في المياه الكبريتية أيام إقامته في بورصة؛ حيث كان العزف والغناء والرقص، وشُرب عصير الرمان، وأكل الأغنام المشوية مرافقة لتلك الجلسات حتى الصباح.

نرى أن "مراد" الثاني أول من اعتبر الشعر عملاً جدياً بين السلاطين العثمانيين. وقد استخدم اسم مرادي الفني اسماً مستعاراً له في قصائده. وبحسب ما ورد في مذكرات لطيفي، نادراً ما كان يلقي الشعر، ولكنه يستمع بانتباه وتقدير للقصائد التي تلقى مرتين في الأسبوع؛ حيث يجمع الشعراء والعلماء، ويعيّن مناقشين يناقشون موضوعاً كل أسبوع[1].

في عهده أيضاً بدأ تقليد منح الشعراء رواتب، وقد استمر تقليد التشجيع هذا قرابة قرن حتى عهد القانوني؛ عندما ألغاه الصدر الأعظم رستم باشا لاعتباره أن للأمر محاذير (1544).

يُقدِّم أحد أساطين الشعر العثماني سهي بيك في خاطرة شهيرة هذا التقييم الهام لموهبته الشعرية:

> يسمّون السلطان "مراد" في تاريخ آل عثمان أبو الخير. ولم يكن هذا الاسم غريباً عن سلطان تيسر له الخير. لقد كان سلطاناً متمكناً من النظم ويكتب شعراً يعبّر عن مزاج جميل ولطيف.

(1) مذكرات لطيفي إعداد مصطفى إسَن، أنقرة 1999، منشورات آقچاغ/ العصر الأبيض، ص 68-69.

في كثير من الأحيان عبّر عن مشاعره شعراً. وفي ما يلي نورد غزلاً ينسب إليه:

حلمت ليلة أمس بحبيبٍ كالروح
رأيته عليلاً ذاوي البطن فيه أثر روح
أخذت شفته العليلة بين شفتي
هذا دواء الروح يا طبيب القلوب
أدرنة مسكن الجميلات يا صديقي
ورأيت في بورصة فاتنات كثيرات
ذبت فجأة الليلة في قبلوجا حين
رأيت فتاة ممشوقة تتمايل بدلال
بينما كنت سلطان الآفاق يا مرادي
صرتَ أسير جميلات مكبلاً بذوائبهن

انتبهوا لتعبير سلطان الآفاق الذي استخدمه في البيت الأخير. لقد استخدمتُ هذا التعبير بحبٍّ في كتاب كتبته حول السلطان محمد الفاتح للتعبير عن بعده العالمي.

أطلقتْ بعض المصادر على مراد الثاني لقب "السلطان الحكيم" بسبب تصرفه الناضج والواعي بتنازله عن العرش مرتين لابنه محمد.

لقد شهد عهده أهم الخطوات على صعيد الحياة الثقافية العثمانية؛ وخاصة على صعيد الفلسفة السياسية. هذه ليست مصادفة، بل حركة واعية. لقد أخذ دروساً من ابن عربشاه الذي ورد ذكره أعلاه؛ والذي يوصف بأنه أحد كبار علماء ذلك العصر، فضلاً عن تلقيه تعليماً جيداً.

وفي الوقت نفسه، شهد عهده ولادة إحدى حضارات الكتب الكبرى في العالم. يُفهم من بعض المصادر أنه كان يمتلك مكتبة شخصية، وله مساهمات كبيرة بنسخ الكثير من الكتب القيّمة. والأهم في الأمر أن ذلك الموقف كان "عن وعي". ويُرى أنه سرّع في جمع الملاحم القومية والدينية القديمة، وكتابة

أعمال من هذا النوع بوعي لدورها السياسي والاجتماعي[1].

اهتم بالكتب السياسية من كلاسيكيات الثقافة الشرقية، وشكّل بداية استيقاظ الوعي الإمبراطوري في الأسرة المالكة. تكليف مراد الثاني لأحمد مرجيمك أحد مثقفي عصره بترجمة كابوس نامة دليل حقيقي على اهتمامه بالثقافة. وقد أمر بإعادة ترجمة ذلك الكتاب بسبب عدم فهمه عند قراءته، وطلب من أحمد مرجيمك أن يترجمه إلى التركية "بعبارات واضحة". غير هذا، إن كتاب بدر ديلشاد الموسوم "مراد نامة" يتضمن ترجمة حرة لكليلة ودمنة إضافة إلى نصائح مختلفة تم تكييفها مع المجتمع العثماني[2].

لنأتِ إلى اهتمامه بالطرائق الدينية... تزامن انتشار الطريقة المولوية بين العثمانيين إلى جانب الطريقة الزينية في عهده. علاقته القريبة من الحاج بيرم ولي، وإعفاؤه دراويش البيرمية من الضريبة ساعدا بانتشار هذه الطريقة في الأناضول. يذكر "Fr. Georgius de Hungaria" الذي بقي أسيراً لدى العثمانيين بين عامي 1435–1458 أن لمراد الثاني علاقة قوية بالدراويش[3].

أملى مراد الثاني وصيته قبل وفاته بخمس سنوات، وصدقها لدى علماء عصره، وطلب ألا تسدد نفقات دفنه من خزينة الدولة، وبيعَ "خاتمه ذي حجر الياقوت الأحمر المثقّب بوزن مثقال" و"خاتمه الألماسي"، أو رهنهما إذا لم يُباعا لتسديد نفقات الجنازة، وطلب أن يكون سقف القبر مكشوفاً دون قبة: "لا تبنوا لي ضريحاً كما يبنى للسلاطين العظماء. لا تبنوا سوى جدار على أربعة أطراف قبري. لا تسقفوا فوقي لكي يهطل المطر رحمة الله فوقي". وبموجب وصيته ترك قبره في الكلية المرادية في بورصة مكشوفاً.

---

(1) انظروا إلى: التركي العظيم مصدر سبق ذكره، ص 99. تابع حفيده السلطان جم عملية جمع الأساطير، وجمع أديب ذلك العصر أبو الخير الرومي مناقب "سلطوق الأشقر". ويعرف هذا العمل باسم: "سلطوق نامة".

(2) انظروا إلى: آدم جيهان، "مرادنامة بدر دلشاد" المجلد الثاني، إسطنبول 1997، منشورات وزارة التربية القومية.

(3) خليل إنالجق، "مراد الثاني"، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 31، إسطنبول 2006، ص 171.

الشغوف بالخرائط:
السلطان محمد الفاتح
(1443–1444 و1451–1481)

أكثر ما يلفت الانتباه فيه طباعه، وجبهته العريضة الصافية، وعيناه البراقتان الرائعتان، وأنفه المقوس الشبيه بمنقار الصقر فوق فمه الصغير جداً دائم الحركة الأحمر ناهض الطرفين. كأن تلك العلامات حُفرت لتكون دليلاً واضحاً على ميزاته العظمى؛ كذكائه الحاد، ونظره الثاقب، وحلمه، وأخلاقه السامية المجبول عليها، ومتعته بالإدارة، وموهبته الحربية[1].

نامق كمال

توصلتُ من خلال استطلاع أجريتُه بنفسي إلى أن للسلطان محمد الفاتح مكانة فريدة لدى الناس. ثمة سلاطين آخرون محبوبون أيضاً كسليم الجبار والقانوني وعبد الحميد، ولكن الفاتح يتقدمهم بفارق كبير. السبب الأهم لهذا هو فتحه إسطنبول، وتحقيقه بشرى سيدنا محمد ﷺ. السبب الآخر هو إطلاق لقب أبو الفتح عليه. ضاعف السلطان محمد الفاتح مساحة الدولة العثمانية بفتوحاته في البلقان والأناضول ومنطقتي البحرين المتوسط والأسود، وبتنظيماته السريعة جعلها إمبراطورية حقيقية.

بحسب المصادر، كان السلطان محمد الفاتح مربوع القامة، وعريض العظام والكتفين. جسده من الخصر إلى الأعلى طويل بعكس النصف الأسفل من جسده؛ شأنه شأن الغازي عثمان، ووجهه أبيض محمرّ، وحاجباه مقوّسان، وشعره أجعد، ولحيته سوداء، ورقبته غليظة وقصيرة، وأنفه رفيع وطويل مقدمته تتجه نحو الأسفل مثل منقار النسر.

(1) نامق كمال، **الأوراق المتعبة** إعداد: رائف قراضاغ – عمر فاروق هارمان، إسطنبول، بلا تاريخ، جريدة ترجمان، سلسلة 1001 من أمهات الكتب. ص 111–112.

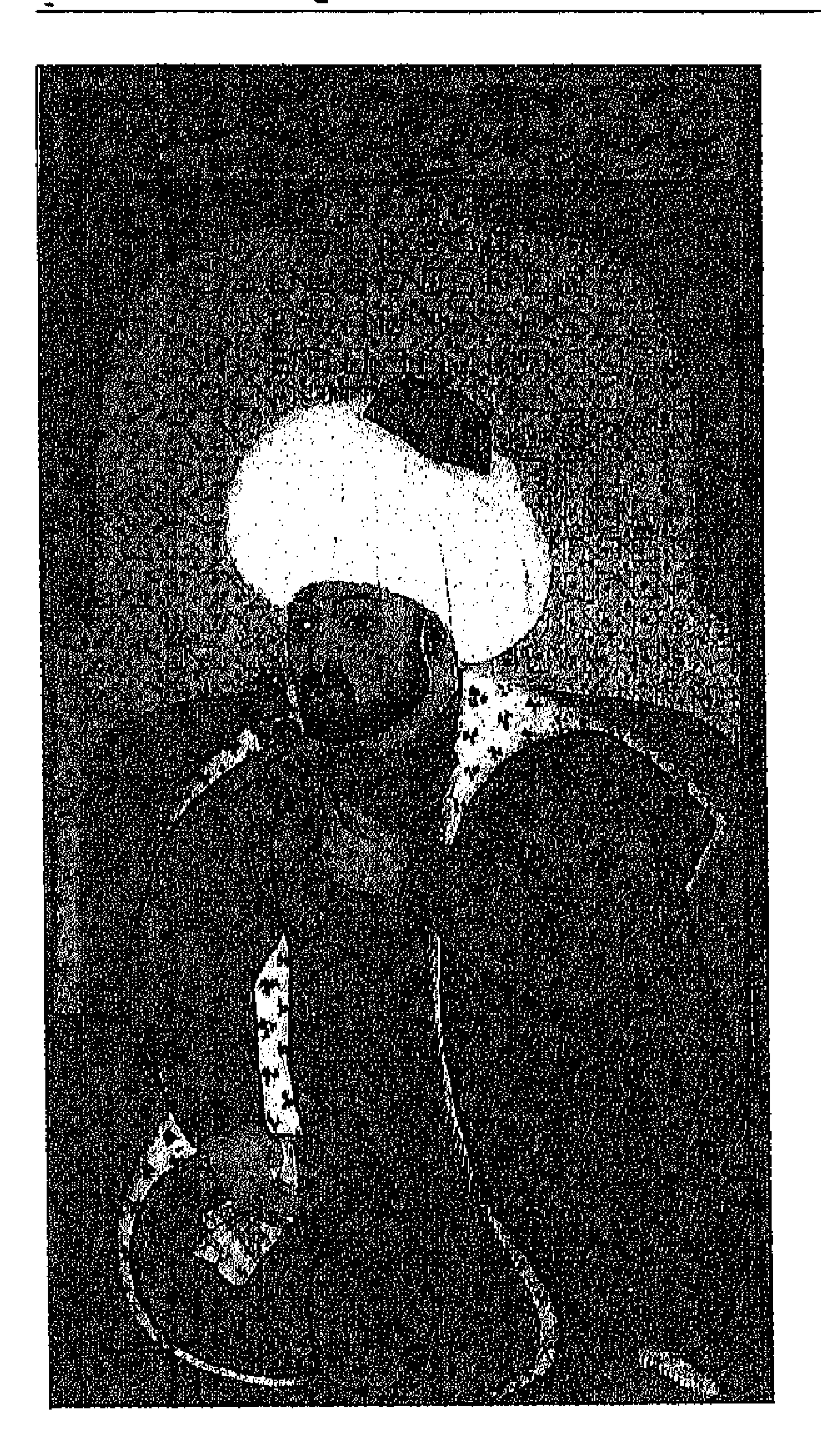
ولكـن، لا بـد أن هـذا الوصف للفاتـح يصفه عندما تقدم به العمر، لأن لا أحد حتى اليوم تمكّن من رسم صورة له عندما فتح إسطنبول وهو في الحادية والعشرين من عمره. من المؤكد أن لحية الفاتح لم تكن قد نبتت بعد وقتئذ. وإن نبتت فستكون في بدايتها. أي إن الرسامين لم يتمكنوا من رسم الفاتح الشاب. ولوحـة جنتيـل بلليني الشـهيرة تعود إلى أعـوام حياته الأخيرة (من المحتمل أن تكون قد أنجزت في العام 1480)، وفي مرحلة ضعفه الشـديد بسبب المرض. وندرك من منمنمات النقاشين عثمان وشيلبلي أوغلو المرسومة في وقت أسبق أنه لم يكن ضعيفاً إلى ذلك الحد.

تلقى الفاتح العلم على يد كبار علماء العهد وموظفيه؛ أمثال تمجيد أوغلو، ومحمد چلبي زادة، والملا إلياس، وإبراهيم قصاب زادة، والملا غوراني. واحترم العلماء دائماً، واعتقد بسـمو مكانة العلم. ونتيجة لاحترامه العلماء أخضع لباس سـلطان السـلاطين للإصلاح، ولف لفة لتحل محل قبعة الفراء التي كان أجداده يعتمرونهـا. ويصفـه الشـاهد البندقـي المدعـو زورزي دولفين أنـه قليل الضحك، وذكي، ومجدٌّ، وكريمٌ، وذو عزيمة لا تلين في سبيل الوصول إلى غايته، وحريص علـى قـراءة الكتـب يوميـاً. كان يقـرأ كتب تاريـخ روما، وحياة البابـوات، وتاريخ هيرودوت، والكثير من كتب التاريخ، ويستمع للقراءة[1].

كان الفاتح يرتدي سترة مطرزة بالذهب فوق أطلس أحمر. ويظهر في لوحة بلليني مرتدياً فراء من دون كمين، وقفطاناً أحمرَ، وعلى الأغلب أن الرسم رسُم في الشتاء.

هوايته الأخرى التي وصلت إلى درجة الشـغف هي الخرائط. كان طبّاعو البندقيـة فـي عصـره يتسـابقون لكـي يقدموا له خرائط تحظـى بإعجابه. وقد أمر بترجمة كتاب "Geographica" الشهير لبطليموس إلى العربية، وكلّف أميروتزيس وابنه الذي أسلم وأسمى نفسه "محمد" بإعداد خريطة للعالم. غير هذا، وصلتنا خريطـةٌ قيّمـة لإسـطنبول أعـدّت فـي عهـد الفاتـح وطبعت في أوروبـا في زمن سـليم الثاني، ونعرف أن تلك الخريطة أعدت في عهد الفاتح وبأمره شـخصياً.

(1) نجدت صقا أوغلو، محمد الثاني (الفاتح)، موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم، المجلد 2، ص 86.



منمنمة تظهر الفاتح وهو يشم الوردة من كتاب سيد لقمان قيافة الإنسانية في شمائل العثمانية.

والشخص الذي يمتطي الحصان في مقدمة الرسم هو الفاتح نفسه[1].

وجود كتابين في الموسيقى كتبا على اسم الفاتح في متحف قصر طوب قابِ دليل على الاهتمام الذي أولاه للموسيقى. قربه من مولانا عبد القادر الذي برز بعلم الأدوار الموسيقية وصل إلى درجة جعلت الصدر الأعظم "محمود" باشا يشعر بالغيرة منه، وبالطريقة نفسها كان مولانا شمس الدين نحيفي الأستاذ في علم البيان وفي الموسيقى بشكل خاص من مصاحبيه في القصر؛ إلى أن ارتكب خطأ في أحد الأيام[2]. من المفيد أن نذكر أن شمس الدين نحيفي تلميذ

(1) لمعلومات أوسع انظروا إلى: سهيل أُنور، حب السلطان محمد الفاتح للجغرافية، عالم الجغرافية، العدد: 1، 15 تشرين الأول 1950، ص 46-49.

(2) خليل إنالجق، الحضارة العثمانية وسيد القصر المحرران: خليل إنالجق وغونسل رندا، الحضارة العثمانية، المجلد 1، إسطنبول 2003، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ص 23.

الملحن الأسطوري عبد القادر ميراغي.

لكن مهارة الفاتح الفنية الأساسية وجدت مجراها المناسب في وادي الشعر. كان السلاطين العثمانيون يترعرعون على "فن الشعر" وهم أمراء، وأشعارهم تملأ الدواوين، وكانوا أساطين بالنقد؛ يتذوقون الشعر المكتوب في محيطهم ويقدّرونه. ولم يقتصروا على حضور مجالس الشعراء، والاستماع لأبيات الشعر المحملة بالحِكم، بل كانوا يقرأون قصائد الشعراء المتجولة من يد إلى أخرى، ويجزلونهم العطاء والهدايا[1].

كان الفاتح أول السلاطين العثمانيين المتميزين بشعرهم، وإذا لم يكن بين أيدينا ديوان له، فلدينا (دويون)، أي ديوان صغير. لقد قام البروفيسور جي جاكوب بطباعة هذا العمل للمرة الأولى في ألمانيا عام 1904.

الاسم الفني الذي استخدمه في شعره هو "عوني". لم يكتفِ السلطان محمد الفاتح بكتابة الشعر فحسب، بل أعطى مجالسة الشعراء، ومبادلتهم الحديث، ورعايتهم تحت جناحيه أهمية خاصة. ونعرف أن رعايته هذه لم تقتصر على الشعراء الذين يعيشون على الأرض التي يحكمها، بل امتدت إلى الذين يعيشون خارجها. ومما هو معروف أنه أرسل نقوداً إلى سلطان الشعر الشرقي في هيرات الأفغانية الملا جامي، ودعاه إلى إسطنبول، وأن الشاعر علي شير نوائي الذي يعتبر من قمم الشعر التركي في آسيا الوسطى أرسل بعض قصائده التي كتبها بلهجة چاغاطاي إلى الفاتح. وجاء في مذكرات لطيفي أنه كان يرسل للشاعر المدعو هاجة جيهان ألف فلوري سنوياً. وكان هناك ثلاثون شاعراً يعيشون من الرواتب التي خصصها لهم.

ونورد بيتاً من الشعر مشهوراً كتبه الفاتح:

اسقِنا أيها الساقي، سنفقد حديقة الزنبق يوماً
ويحل الخريف، ويذهب الربيع والكَرْمُ

من بين آثاره أيضاً هذا المطلع الذي يعبر عن عداوته لأبناء قرامان:

(1) إنالجق، المصدر السابق ذكره، ص 22.



منمنمة تصور الفلكي والرياضي علي قوشجو وهو يقبل يد الفاتح. ونرى بيده الكتاب الموسوم المحمدية وخلفه الآغا حامل السلاح.

يقال إن القراماني يطيل لسانه على سلطنتنا
سأطرحه أرضاً حين أمسك به إذا قدر الهدى

الجانب الغريب في الأمر أن الفاتح الشغوف جداً بالفنون الجميلة كان يعمل في مهن متعددة مثل صناعة الخواتم الخاصة بالرماة، وإبزيمات الأحزمة، وأغماد السيوف. وهناك رواية غريبة تتحدث عن خبرته بالأحجار الكريمة[1]. ويجب أن يكون هذا بداية الشغف الذي ظهر في ما بعد لدى حفيديه سليم الجبار وسليمان القانوني.

لم تقتصر هوايات الفاتح على ما ذكرناه آنفاً، بل نراه بستانياً ماهراً فقد

(1) يلماظ أوزطونا، سلطان السلاطين في الدولة العثمانية 3: سلطان السلاطين أعلى من كل الحكام، مجلة الحياة تاريخ، العدد 3، آذار 1976، ص 15.

كان ماهراً بأعمال البستنة التي كان يقوم بها في حديقة القصر، وكان يخصص جل وقت فراغه للاعتناء بالحديقة، وكان شغوفاً بزراعة الأشجار والخضروات والأزهار. وبشغفه هذا وضع حجر الأساس لجمال طوّره سكان القصر على مدى عصور، وبدأ آخر حلقة من حلقات فن تنسيق أزهار الحدائق الساحر في العالم.

كما أن الفاتح كان شغوفاً باللغات، ويقال إنه كان يفهم اليونانية واللاتينية إلى جانب إتقانه العربية والفارسية.

ماذا عن الطعام؟ كان الفاتح يأكل وحده، وهو من استحدث هذه العادة في القصر، كما أنه من السلاطين النادرين الذين نعرف أنواع الطعام التي يحبونها. فقد كان يستلذ بالحساء، والدجاج المشوي، والبيض، والسمك، وفطائر الجبن، ورقائق العجين، والشيش برك، وحساء الأحشاء، والسبانخ، والعسل، والحلاوة الطحينية، والبقلاوة، والقشدة، والمهلبية، والأرز المحلى، والقطائف بالحليب. وحين نستعرض لائحة طعام الفاتح، نجد أنه كان يحب ثمار البحر، ولا يحب اللحم الأحمر كثيراً، وهناك رواية تفيد أنه كان يأكل ستريديا وقريدس[1]، وكان يحب من المشروبات شراب العنب بالنعناع، والدبس، وشراب الحبوب الساخن، واللبن الرائب[2].

الرياضة أيضاً كانت على جدول أعمال السلطان الحيوي الذي فتح إسطنبول. يُعرف أن الفاتح أمر ببناء تكية (نادٍ) للمصارعين خلف جامع السيدة شبصفا الواقع على يسار الطريق من آقصراي إلى أونقبان، وأوقفها[3]. وقد جُددت في أواخر القرن الثامن عشر في عهد عبد الحميد الأول، ويروي أوليا چلبي في سياحة

(1) مدحت سرت أوغلو، ماذا كان يؤكل ويُشرب في القصر العثماني؟ أحاديث من التاريخ، أنقرة 1994، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 134.

(2) زيا إركينس، الأطعمة التي يحبها الفاتح والسلطان محمد الصياد، مجلة التاريخ الجديد، العدد 4، 29 تشرين الأول 1953، ص 171. غير هذا انظروا إلى: أحمد رفيق آلطناي، ماذا كان يأكل حضرة الفاتح؟ الموسوعة الشهرية، العدد 5، تشرين الثاني 1949، ص 70-71.

(3) إبراهيم حقي قونيالي، الأوقاف وتكية المصارعين، التاريخ يتكلم، العدد 34، تشرين الثاني 1966، ص 2849-2854.

نامة أنه كان يتردد شخصياً على تلك التكية، وكان يخرج إلى الصيد حين تسنح له الفرصة[1].

على غرار ما فعله السلطان محمد الفاتح للمصارعين، فهو الحاكم الذي أسس منشأة للرماية، ووضع لها قواعد في المسابقات. وإذا كان الحكام الذين سبقوا الفاتح قد اهتموا بمسابقات الرماية المختلفة، فهو أول من أمر بتأسيس ساحة خاصة ومنشأة للرماية. المنشأة التي أمر الفاتح ببنائها بعد فتح إسطنبول بقي قسم صغير منها اليوم مع الأسف في حي قاسم باشا الإسطنبولي، وتدعى ساحة الرماية (أوق ميدانِ)، وهي دليل على شدة اهتمامه بهذه الرياضة. كل الحكام الذين أتوا بعد الفاتح تقريباً وسّعوا تلك الساحة، وأضافوا عليها ملحقات، وحتى إنهم أسسوا منشآت للرماية ليس في إسطنبول فقط، بل في المدن الأخرى أيضاً[2].

ولنسجل أخيراً أنّه لاعب شطرنج ماهر[3].

---

(1) علي همّت بركي، الحاكم التركي العظيم فاتح إسطنبول السلطان محمد خان وعدله إسطنبول 1953، ص 16.

(2) أوغور إردنر، الرماية: رياضة تركية تقليدية سكاي لايف، أيار 1999.

(3) سدات قومبارجيلر، الألعاب القديمة في تركيا 2 مجلة الحياة تاريخ، العدد 1، شباط 1972.

الإمبراطورية العثمانية
أم الدولة العثمانية؟

ثمة من يستهجن استخدامي لمصطلح الإمبراطورية عن الدولة العثمانية أحياناً. صحيح أن كلمة "إمبراطورية" مشتقة من كلمة "empire" المرتبطة بكلمة إمبريالية "imperialism" وتثير في أذهاننا انطباعات سلبية، ولكنني أفضّل استخدام مصطلح إمبراطورية للدلالة على الدولة العثمانية. لماذا؟

لهذا الأمر سبب بسيط جداً، وعملي: مع أن تعبير الدولة العثمانية هو الأصح، ولكن كلمة دولة في اللغة العربية، وخاصة في القرن الأخير، حظيت بمعنى واسع جداً في الثقافة الإسلامية التقليدية، وكادت أن تتطابق مع الدولة القومية. لهذا السبب، إن إطلاق مصطلح دولة على الدولة العثمانية لا يعبّر عن المكونات غير القومية التي شكّلت البنية البشرية للدولة العثمانية. من الواضح أن البنية المتعددة القوميات واللغات والأديان وحتى القوانين لا يمكن أن تتسع لها الدولة القومية المعروفة. الدولة القومية تعتمد على قومية أساسية، وتعتبر الآخرين أقليات. ولكن في مصطلح الإمبراطورية ثمة تسامح بالتعددية القومية واللغوية وما شابههما، ومحافظة على تلك الصورة.

لهذا السبب، أفضل عموماً كلمة إمبراطورية على كلمة دولة عند الحديث عن العثمانية على الرغم من معرفتي لمحاذيرها. حبذا لو أن كلمة دولة حافظت على معناها الأصلي، ولم نضطر لمقابلتها بكلمة أجنبية.

معلم الرماة: بيازيد الثاني
(1512–1481)

ثمة وثائق تبيّن أنه تعلم الكتابة بلغة الأويغور، ويعرف القليل جداً من الإيطالية[1].

شرف الدين طوران

إذا كان السلطان محمد الفاتح قد جعل الإمبراطورية العثمانية تخفق بجناحيها في أوروبا وآسيا، فإن ابنه بيازيد الثاني ثبت قدميها. لعلنا لا نرى في عهده فتوحات واسعة كعهد الفاتح، ولكن تركيزه كان على الفتح الداخلي وليس على الفتح الخارجي. لقد بذل جهداً من أجل وضع الأسس التي ستقوم عليها الدولة، وتقوية أيديولوجيتها، ولأجل هذا دعا العلماء والفنانين وشيوخ الطرائق إلى العاصمة الجديدة، وأسس الأوقاف، وطوّرها، وهذا مهم على صعيد إبراز عظمة بيازيد الثاني. من الخطأ الفادح اعتبار لقبه الصوفي دليلاً على التعصب والرجعية. ومن الأنسب النظر إلى ما أنجزه بيازيد الثاني على أنه ترميم لبناء الدولة. يقول عنه لطيفي في هذا الجانب: "سلطان سلاطين صاحب ولاية ومفهوم ساميين"[2].

لا بد أن أشد الافتراءات الظالمة بحق بيازيد هو وصفه بأنه لم يكن سلطان سلاطين عالمياً كوالده. ويمكن أن يعزى ذلك إلى وقوع شقيقه جم سلطان أسيراً بين أيدي فرسان رودس والبابا وملك فرنسا. ولكنه، شن حملة مشهورة على البندقية عام 1495 بعد وفاة شقيقه. أما الافتراء الثاني فهو أنه خرب بعض الرسوم التي أمر الفاتح برسمها، وباعها خارج البلد. وقد دُحض هذا حين

(1) شرف الدين طوران، بيازيد الثاني الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 5، إسطنبول 1992، ص 237.

(2) مذكرات لطيفي، ص 71.

خرجت تلك اللوحات من القصر بعد عهده بزمن طويل.

يرسم المؤرخ مصطفى علي غليبولولو السلطان بيازيد الثاني طويل القامة، وفاتح الوجه، وعاقد الحاجبين الأسودين، وأشهل العينين، وحنطي البشرة، وأسدي الأنف، كما عريض الصدر. وبحسب سفير البندقية أندريه غريتّي الذي تعرّف إليه فإنه أطول من متوسط، وزيتوني البشرة. يقول أندريه غريتّي: "تُظْهِر ملامحه أنه يفكر بأمور جدية وكبيرة، وهو مكتئب وحزين". ويقدّم كبير الفلكيين الشيخ أحمد أوصافه على النحو التالي: "طويل القامة، وأبيض البشرة، وأسود الشعر، وعاقد الحاجبين، وعريض المنكبين. وكان سلطان سلاطين حسنَ الطباع وصالحاً وعابداً ومتعمقاً بالشريعة".

ظهر اهتمام بيازيد الثاني بفن الخط منذ كان أميراً، وذكر عمله هذا في الكتاب الموسوم صواب حديقة الورد. تلقى بيازيد دروساً بالخط وهو أمير في أماصيا على يد رائد الخطاطين العثمانيين الشيخ حمد الله (كان رياضياً وصانع نبال ورامياً ماهراً سجل رقماً قياسياً بقدر ما كان خطاطاً)، وحصل على إجازته. لم يترك أستاذه بالخط في أماصيا بعد أن أصبح سلطان سلاطين، بل دعاه إلى إسطنبول، وعيّنه معلماً وكاتباً في القصر. كان يعرّج على جناح الشيخ حمد الله أحياناً، ويسأله عن أحواله، وحتى إنه كان يمسك له المحبرة وهو يخطط تعبيراً عن احترامه له، ويقول علناً إنه أسعد حكام الدنيا لأن لديه خطاطاً كهذا[1].

بفضل تشجيع بيازيد الثاني لفن الخط، دخل هذا الفن في مسار خاص على يد العثمانيين. كما شجع أستاذه أيضاً بمنحه إمكانيات لكي يجد أسلوباً جديداً بالخط[2]. ونعرف أنه خصص للشيخ حمد الله إيراد قريتين في صارِ غازي التابعة لأسكدار غير اليومية التي أمر بدفعها له[3].

ثمة دليل في سجل لمكتبة قديمة يسمى مجموعة ألواح النقاشين على أن بيازيد الثاني اشتغل بالتذهيب. ولا بد من التنويه أن فن صناعة الكتاب الذي

(1) كمال تشغ، **الخطاطون العثمانيون الأتراك**، مجلة التاريخ، العدد 4، 1 حزيران 1950، ص 169 و174.

(2) علي رضا أوزجان، **السلاطين الخطاطون** الموسوعة العثمانية، المجلد 5، إسطنبول 1993، منشورات آغاتش/ الشجرة، ص 98.

(3) أوزصاينر، مصدر سبق ذكره، ص 80.

يضم فنون الخط والتذهيب والتجليد العثمانية المكملة لبعضها بعضاً ازدهر في عهد بيازيد الثاني[1].

ويمكننا أن نذكر من مواهب بيازيد التلحين. فهو أول من ذكر اسمه في المصادر بين السلاطين على أنه دوّن لحناً. إلا أن الألحان التي وصلتنا من نتاج ابنه قورقوت وليست من نتاجه تجعلنا نتوصل إلى أن الموسيقى والذائقة الموسيقية قد تطورتا في العائلة العثمانية المالكة. وتعرض السطور التالية المستقاة من المخطوط المعنون **أمهات الأوراد** لآثاره الموسيقية:

وصلنا من آثاره الموسيقية خمسة ألحان، على الطنبور وهي: بَشْرَف أرازبار وسما الطنبور من الدور الكبير؛ بَشْرَف راحة الرواح من الدور الكبير، بَشْرف الأوج وسما الطنبور من الدور الكبير[2].

بالإضافة إلى ما تقدم، فقد قصده الملحن الكبير الأستاذ زين العابدين رئيس الفرقة الموسيقية لحسين بايقرا حاكم خراسان من إيران، ودخل بخدمته، وبهذا أصبح أحد الأعمدة المؤسسة للموسيقى العثمانية[3].

هل يمكن أن يكون والد المرء شاعراً ولا تسقط على رأسه حزمة من ضوئه إرثاً؟ نحن نعرف أن بيازيد الثاني كان ينظم الشعر بالتركية والفارسية باسم "عدني" (أو عدلي)[4] الفني، وله ديوان صغير مطبوع. ويعتبر هذا الديوان الصغير أول ديوان نسّقه سلطان عثماني. (لأن الكتاب المدعو ديوان الفاتح فيه من النواقص ما يجعله لا يُعد ديواناً). أسلوبه صوفي. وبحسب يحيى بستان زادة فقد تفوق على والده بالغزل. وقد عمد فؤاد كوبرولو إلى تجميع قصائده ونشرها. وبحسب ما ورد في المذكرات، إن موهبته بجمال الحديث والنظم لا

(1) مصطفى بكطاش أوغلو، **فن الخط عند العثمانيين**، المجلة العلمية الدينية، المجلد 35، العدد 1، كانون الثاني – آذار 1999، ص 291.

(2) الناقل: أدهم روحي أونغور، **السلطان بيازيد الثاني ملحن**، المجلة الموسيقية.

(3) جين أوتشان طانري قورور، **الموسيقى العثمانية** المحرر: إكمل الدين إحسان أوغلو، تاريخ الحضارة العثمانية، المجلد الثاني، إسطنبول 1999، ص 506.

(4) مذكرات لطيفي، صفحة 71.



بيازيد الثاني في إحدى رحلات الصيد التي كان يحبها كثيراً. الشخص الذي يركب الغزال هو والده الفاتح. تراءى لبيازيد الثاني والده المتوفى وهو يركب الغزال، ويحذره من الاستمرار بهذه الهواية. وكانت هذه الحادثة المفعمة بالأسرار درساً لبيازيد، ولم يعد يخرج إلى الصيد منذ ذلك اليوم.

نقص فيها. لقد أحب الأدب العجمي (الإيراني) كثيراً، وأبدى مجاملة كبيرة للشعراء والعلماء الإيرانيين. كما أنه كان يوظّف من يكتب الشعر الجميل في قصره. بحسب ملاحظة وردت في مذكرات سخي بيك، إن قصيدة غزل للشاعر صائي وقعت بيد بيازيد الثاني بطريقة ما، وأعجب بها، وأمر بإيجاد كاتب تلك القصيدة، وعندما وجده، وظّفه في القصر كاتباً. وكان يكافئ الشعراء ويجزيهم العطاء ويحسن إليهم، واستمر بالدفع للملا جامعي ألف فلوري مثل والده.

ونورد مقطوعة من الغزل الرائع الذي كتبه السلطان بيازيد الثاني كمثال:

تضربني سلاسل شعر صدغيك كأنني مجنون
كلّت الروح من الهجر فالشنق يحتاج حبلا
أَمِلتُ بدواء لقلبي العليل من مشفى شفتيك
وجدت الطبيب المأمول منه الدواء عليلا

شأنه شأن والده احترم العلماء والشعراء، واستمتع بحضور مجالس الفكر. ويرى المؤرخ إسماعيل حقي أوزون تشارشلي أن بيازيد الثاني: "جعل إسطنبول

مركز العلم الإسلامي"[1]. وعندما كان سيد سنجق أماصيا تلقى دروساً من عالم التفسير والحديث خطيب قاسم الأماصي، وخضع لتربية وتعليم راقيين. وكثيراً ما جاء إلى جامع أيا صوفيا خلال تربعه على العرش، واستمع لخطبة عالِم التفسير الشهير نيكصاري.

يمكن اعتبار بيازيد الثاني مؤسس التاريخ العثماني. فكل ما نعرفه اليوم تقريباً عن الفترة الممتدة لقرن ونصف من التاريخ العثماني يعتمد على ما دُوِّنَ في كتب التاريخ في عهده. وهذا في الحقيقة نشاط أكثر من عادي استمر تأثيره إلى يومنا[2].

يمكننا أن نضيف بثقة إلى مزايا السلطان بيازيد الثاني أنه كان قارئاً جيداً، ويقرأ الكتب المقدمة له بتركيز. وبالطريقة نفسها، أولى أهمية كبرى لتربية أولاده، وربى الأمير قورقوت ليكون عالماً حقيقياً. ويلاحظ أن ابنه الآخر أحمد أجاد العربية والسياسة إلى درجة أنه كتب كتاباً في السياسة باللغة العربية.

وهناك شبه إجماع على أن بيازيد الثاني أكثر السلاطين العثمانيين تديّناً. وكثيراً ما تذكر المصادر أنه لم يُهمل العبادات، وأنه أكثر من دفع الصدقات. وعندما أراد أن يفتتح جامع بيازيد الذي أمر ببنائه، أعلن: "ليفتتحه من لم يقطع الصلاة مع سننها في حياته"، و"ليكن إماماً في أول صلاة جمعة". وعندما لم يظهر أحد، قال إنه لم يقطع الصلاة وسننها منذ طفولته، وأدار المفتاح، وفتح الجامع. ويعتقد أن تشجيعه على نقل مراكز الطرائق الدينية والتكيات المركزية إلى إسطنبول لعب دوراً بإطلاق لقب "الصوفي" عليه.

لقد بشّر جمال الدين چلبي (توفي عام 1509) مشرف الطريقة المولوية في قونية والده بولادته، لهذا السبب احترم والده مولانا جمال الدين كثيراً، وجدد لحد قبره، وأرسل قماشاً ثميناً من أجل تغطيته[3].

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثاني، أنقرة 1985، ص 246.

(2) خليل إنالجق، The rise of Ottoman historiography المحرر Bernard Lewis وP. M. Holt، "Historians of Middle East" لندن 1962، جامعة أكسفورد.

(3) عرفان غوندوز، علاقة الدولة بالتكية لدى العثمانيين، العثمانيون، المجلد الرابع، أنقرة 1999، منشورات تركيا الجديدة، ص 474.

ومن المعروف أيضاً أن بيازيد الثاني اهتم بالرياضة. وينقل عن الشيخ حمد الله الذي يحترمه ويحبه كثيراً: "أن بيازيد الثاني كان رامياً ماهراً، وصانعَ نِبال. وصل شغفه بالرماية إلى حدّ اعتبر نقطة ضعفه. وقد جمع معلمي صناعة الأقواس والنبال في إسطنبول، وأقام لهم سوقاً خاصة. واستمد الشارع الممتد أمام جامع بيازيد اسمه شارع كبير الرماة من تلك السوق التي اندثرت اليوم. وقد وصل شغفه بالرماية إلى درجة أنه رجا الشيخ حمد الله أن ينصب حجراً حيث سقط سهم إسكندر طوزقوبران الرامي صاحب الرقم القياسي في عصره[1]. وهذا يقابل رجاء رئيس الجمهورية اليوم رئيس اتحاد لعبة رياضية من أجل تكريم رياضي موهوب. واللافت أيضاً أنه أمره بالكتابة على شاهدة قبر الشيخ حمد الله العبارة التالية: رئيس الخطاطين وشيخ الرماة[2].

ذكر سفير البندقية أندريه غريتّي أن بيازيد كان يستمتع بامتطاء الخيل، وأنه لولا الألم في قدميه من جراء مرض النقرس لكانت حفلات الصيد وترويض الخيل من أهم متعه. (ظهر هذا المرض في العائلة المالكة لدى والده الفاتح وحفيده القانوني). ويضيف غريتّي أن بيازيد الثاني كان شغوفاً بالأعمال الحرفية، ويحب العقيق الأحمر المشكّل جيداً والفضة المُصاغة بمهارة وأشغال الخراطة. وبالإضافة إلى ما تقدم، يضيف غريتي أن السلطان كان شغوفاً بعلمي الدين والفلك[3].

وكما هو واضح، السلطان بيازيد الثاني سلطان متعدد المزايا والمواهب، إلا أن التاريخ أوصل لنا صورة باهتة عنها. شخصياً، أُفضل أن أنهي هذا القسم بشيء عن هندامه.

كانت ألبسة بيازيد الثاني الرسمية مثل ألبسة والده الفاتح. ولكنه كان يلبس

(1) أوزبيه غوفان، **الأخلاق الرياضية في التقاليد الرياضية العثمانية والإجراءات القانونية ضد خرق القواعد الرياضية**، الوطن التركي، العدد 148-149، كانون الأول 1999 - كانون الثاني 2000، ص 367-368.

(2) أوغور درمان، **في الذكرى الثلاثين لوفاة رئيس الخطاطين كامل آقديك**، مجلة الحياة تاريخ، العدد 7، آب 1971، ص 38.

(3) الناقل: نيكولاس فاتين، **نهضة العثمانيين**، إعداد: روبرت مانطران، تاريخ الإمبراطورية العثمانية 1، ترجمة سرفر طانيللي، إسطنبول 1995، منشورات جم، ص 131.

مثل أي رجل صالح عندما يكون بمفرده؛ لأنه كان يحب الفقراء والصالحين[1]. ونستنتج من هذا التعبير أن بيازيد الثاني كان يحب ارتداء الألبسة البسيطة، وسنرى أن هذه الخاصية ستنتقل إلى ابنه عند الحديث عن سليم الجبار.

(1) كبير الفلكيين الشيخ أحمد، تاريخ كبير الفلكيين، المجلد الثاني، إعداد إسماعيل إرونسال، إسطنبول، بلا تاريخ، ترجمان سلسلة ألف مرجع ومرجع، ص 369.

"لأن الدولة قسمتنا من يوم الأزل"

أرسل إليه شقيقه جم سلطان من الغربة بتاريخ 17 حزيران 1482 بيت شعر دسه في غمد معبراً عن مشاعره:

لماذا تنام بالورد هانئاً مع الأسرة
وأنام على الرماد في وضع مهين؟

فردّ بيازيد الثاني على أخيه بسلاح الشعر أيضاً:

لأن الدولة قسمتنا من يوم الأزل
لماذا لا تطأطئ برأسك للقدر؟
حظيت بلقب حاج الحرمين
فلماذا تسأل عن سلطنة دنيوية؟

سيذكر هذا الصدام اللافت بين الشقيقين باعتباره مثالاً على تمكن عضوي الأسرة المالكة من القلم بقدر تمكنهما من السيف[1].

(1) بالمناسبة، لنعرج على بعض هوايات جم سلطان الغريبة الذي لم يصل إلى السلطة. كانت شاعريته أبرز جوانبه. ولكن معرفتنا بوجود خيول ومجوهرات وببغاء وقرد بين إرثه المسلّم لشقيقه الأكبر بيازيد الثاني يعطينا رؤوس خيوط حول عالمه الخاص. انظروا إلى: محمد زكي باك ألن، جمّ سلطان، الموسوعة الشهرية، العدد 21، كانون الثاني 1946، ص 645-649.

عثماني وحدة الوجود:
السلطان سليم الجبار
(1520–1512)

كان عليه أن يفتح العالم المحمدي العظيم.

يحيى كمال

بحسب التشخيص الصائب لمؤرخ عصرنا الكبير فرديناند براودل فإن حملة سليم الجبار لفتح سوريا ومصر عامي 1516–1517 هي ثاني الحملات الكبرى في التاريخ العثماني بعد فتح إسطنبول، وهي التي أبقت الاقتصاد العثماني قروناً واقفاً على قدميه. حوّل السلطان سليم الجبار استراتيجية الفتح من أوروبا إلى آسيا وأفريقيا بحملته على الدولتين الصفوية والمملوكية، وهذا فتح باب الاستفادة من مخزون الثقافة والعلم الشرقيين القديمين، وشكّل آخر المنعطفات الكبرى في الثقافة العثمانية الكلاسيكية أيضاً.

تقول المصادر إن السلطان "سليم" الجبار كان طويل القامة نسبياً، وعريض العظام، وحاد النظرات، ومستدير الوجه، وعاقد الحاجبين الأسودين، وكبير الرأس، وأسمر البشرة، وغليظ الأنف، وكث الشارب، وخفيف اللحية، وقصير الجذع نسبة إلى الساقين (اعتدنا على هذه البنية الجسدية)، وممتلئ الجسم. وبحسب تاريخ صولاق زادة فهو متوسط القامة، وبدين، وأبيض الأسنان اللؤلؤية اللامعة، ومقوس الحاجبين، وقوي العضلات، وأبيض الوجه[1]. وبحسب المؤرخ العربي ابن إياس الذي رآه في طريقه إلى القاهرة فهو دون لحية، وحنطي البشرة، وطويل نسبياً، وعريض الأنف، وواسع العينين، وقصير القامة، ومحني الظهر قليلاً. غير هذا، كان سريعاً جداً، وعند دخوله إلى القاهرة كان يعتمر لفة صغيرة

(1) تاريخ صولاق زادة، المجلد 2، إعداد وحيد تشابوق، أنقرة 1989، منشورات وزارة الثقافة، ص 1.

على رأسه، ويرتدي قفطاناً حريرياً[1].

تقـول المصـادر إن نظراته مؤثـرة. وكان يكرر بعـض الكلمات عدة مرات بسبب ذكائه الحاد وانفعاله.

يبدو في الصورة الموجودة في قصر طوب قابِ والتي تنسـب إليه واضعاً قرطاً بلؤلؤة في أذنه اليسرى. إلا أنه لم يُذكر في أيّ من المصادر أنه كان يضع قرطاً كما يظهر في اللوحة، ولكن هناك رواية تفيد أنه كان يعلّق في أذنه قرطاً نحاسياً[2]. وهناك من ينسب اللوحة إلى الشاه إسماعيل بسبب التاج ذي الاثني عشر قصاً، إلا أن هذا النوع من التيجان المرصعة لم يكن موجوداً في الشـرق قبل القرن الثامن عشر، وكان يوضع على الأغلب فوق اللفة، ويتمثل بعدة رِيَشٍ ذات أحجار كريمة.

شـأنه شـأن والده، أحب الجبار البسـاطة كثيراً، ولم يولِ أهمية للمظاهر. كما لم يرغب بالإسراف في بناء قصور فخمة له. كل ما أراده هو الإبقاء على الخزينة ممتلئة.

ذات يوم، أمر دفتر دار الخزينة عبد السـلام بيك بإنشـاء قصر بسـيط قريب مـن الشـاطئ بيـن سـيركجي وصـارِ بورنو، وقام عبد السـلام بتشـييد قصر يالِ. وعندما جال الجبار في القصر ووجده فخماً جداً شـعر بضيق شـديد، فخاطب الدفتر دار مؤنباً: "أنا أمرتك ببناء مكان يُستظل فيه، ولم آمرك بكل هذا الإنفاق". ولكي يتخلـص الدفتـر دار من المـأزق الـذي وقع فيه، قـال: "بنيت القصر من مالي الخـاص، وأردت أن أهديكـم إيـاه، وأرجوكم أن تقبلـوه". وحينئذ هدأت أعصاب الجبار[3].

نشأ الجبار في أماصيا التي تعتبر بيئة للعلم والفن، وكانت هوايته الصياغة. وقد تعلّم اللغـات الفارسـية والعربية والتتارية. يقول لطيفـي: "كانت لديه رغبة

(1) فريدون م. إميجان، السلطان سليم الجبار إسطنبول 2010، منشورات الكنز المفقود، ص 352.

(2) يوصف سليم بأنه دون لحية ومفتول الشارب، وأنه يحب البساطة في اللباس، ويلف على رأسه لفة بطريقة تسمى سليمية، وأنه يضع في أذنه حلقة نحاسية. انظروا إلى: نجدت صقا أوغلو، سليم الأول موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، المجلد 6، إسطنبول 1994، ص 500.

(3) يوجل وسفيم، مصدر سبق ذكره، ص 144.

كبيرة بالحديث في اللغة الفارسية. غير هذا، كانت طبيعته طاهرة وتؤسس للصداقة، وتقترب من القيم الفارسية". ونعرف أيضاً أنه أستاذ ماهر بلعب الشطرنج.

كان الجبار يحب الشعر بشكل خاص مثل والده وجده، وله ديوان بالفارسية يضم ثلاثمائة قصيدة غزل، وقد طُبع هذا الديوان عام 1890 في إسطنبول. وعندما رغب القيصر ويلهام الثاني بمجاملة السلطان عبد الحميد الثاني أعاد البروفيسور هورن طباعة هذا الديوان بحجم كبير، وأعد خمسمائة نسخة مذهبة عام 1904، وأرسلت إحداها إلى السلطان عبد الحميد. كما طبع هذا الديوان بالتركية[1].

الجبار هو الوحيد من أعضاء الأسرة المالكة العثمانية الذي لديه ديوان كامل بالفارسية. وبحسب أسطون الشعر لطيفي والمؤرخ صولاق زادة فإن الجبار لم يكتب شعراً بالتركية قط[2]. لهذا السبب، لا يمكن أن تكون المقطوعة التي تبدأ بعبارة "لا تعط فرصة للذئب يا رب!" المحفورة على سبيل ماء في موش من نظمه. وفي ذلك يقول لطيفي:

"أكثر الأشعار التركية المتداولة باسم المرحوم - طيب الله ثراه - هي مما اعتبرها الناس مناسبة له، أو ألفوها ونسبوها له".

استخدم السلطان سليم الجبار الاسم الفني "سليمي". وثمة ادعاء بأن هذا الاسم يعود لشاعر آخر، وقد أسندت قصائده إلى الجبار بعد مقارنة بعضها مع قصائد الجبار. ولكن الأبيات التي يدّعى بين الناس أنها له، وتبدأ على النحو التالي:

فظيعاً كان ما أرته الدنيا لعينيّ
جعلتهما تصبان بدل الدمع دما
كان الليث يرتجف حتى مخالبه أمامي
جعلتني الدنيا عليلاً أمام عيني المها

(1) ديوان السلطان سليم الجبار، المترجم: علي نهاد طارلان، إسطنبول 1946، منشورات أحمد خالد، اعتمد طارلان طبعة برلين المهداة هذه.

(2) مذكرات لطيفي، مصدر سبق ذكره، ص 79.

ليست للسلطان. والبيت التالي أيضاً ينسب له، ولكن لطيفي صاحب المذكرات المهتمة بالشعراء يبلغنا أنه لشاعر يدعى نسيري وليس له[1]:

ليس لدي لعبة سوى هذه الدنيا العجوز التي

ترتدي ثوباً كحلياً منقطاً بالذهب كل ليلة

وعلى الرغم من أنه ليس للجبار ولكنه يناسبه.

والجبار هو أول من عانى من السلاطين من ضعف في النظر بسبب كثرة القراءة، وأصبح يستخدم المكبّرة. فقد كان يكتفي بنوم ثلاث إلى أربع ساعات في الليل، ويقضي بقيته بالقراءة والكتابة[2].

غير هذا، نعرف أنه أمر الشيخ مكي أفندي بكتابة دفاع عن نظرية ابن عربي حول وحدة الوجود، وقد كتب كتاب **الجنوب الغربي**... بناء على هذا التكليف[3]. وخلال الفترة بين حملة مصر والعودة إلى إسطنبول، كلّف شيخ الإسلام ابن كمال بترجمة كتاب ابن تغريبي بردي المعنون **النجوم الظاهرة**، وأن يُقَدِّم له على أجزاء في النُزُل، ويُقرأ له.

ثمة ما يدفع للبحث في العلاقة بين سعي شيخ الإسلام ابن كمال لإقرار نظرية وحدة الوجود باعتبارها قرارَ دولة، وإنشاء مقام فوق قبر ابن عربي في دمشق[4].

ويُروى أنه بعد فتح مصر طلب الجبار رسم خرائط لكل من الهند والصين[5]. لماذا طلب رسم تلك الخرائط؟ هل كان هدفه ديار الهند والصين بعد مصر؟

---

(1) الناقل: قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 153.

(2) إسماعيل حقي أوزون تشارتشلي، **تاريخ العثمانيين** الجزء الثاني، ص 526.

(3) للاطلاع على هذا العمل، وتحليله، انظروا إلى: خليل بلطجي، إسطنبول 2004، منشورات غالاناك/ تقاليد. العبارة الواردة في الكتاب هي: بأمر السلطان سليم ابن السلطان بيازيد خان (عليه الرحمة وله الغفران) شهريار عصره الواجب، تمت تلبية هذا الوجوب بتحريره... (ص 98).

(4) وهناك فكرة مشابهة في الأعمال التي تعود إلى مرحلة شباب عبد الغني النابلسي الذي عاش في القرن السابع عشر. انظروا إلى: بكري علاء الدين: رائد عصر: عبد الغني النابلسي، حياته وفكره ترجمة فيسل أويصال، إسطنبول 1995، منشورات إنسان، ص 211.

(5) يشار يوجل وعلي سفيم، **ثلاثة سلاطين، المرحلة الكلاسيكية العثمانية: الفاتح، الجبار، القانوني** أنقرة 1991، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 142-143.



عودة ياووز من حملة تشالدران حسب "هنارنامة" 1514.

يروي المؤرخ المصري ابن إياس أنه اصطحب معه مجموعة مسرح خيال ظل عند عودته من القاهرة من أجل أن تسلية ابنه سليمان واستمتاعه بأوقاته. وبهذا يكون السلطان سليم الجبار هو من أدخل مسرح خيال الظل إلى الثقافة التركية[1].

كانت لدى الجبار ميول موسيقية وإن لم تكن بمستوى شقيقه الأمير قورقوت، حتى إنه جلب معه بعض الموسيقيين الأذربيجانيين من تبريز. وسنرى أيضاً أن مراد الرابع قد اصطحب معه بعض أساطين الموسيقى من تبريز أيضاً.

كان التاريخ مجال اهتمام الجبار الخاص. فقد كان يأخذ معه كتاب **تاريخ الوصّاف** الذي يروي حروب المغول في الشرق إلى الحملات. وحزن كثيراً عندما سلب البدو هذا الكتاب في طريق حملته إلى مصر. وبعد فتح مصر، وجد خطاطاً

(1) الناقل: فيليب ك. هيتلي، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، المجلد الرابع، ترجمة صالح طوغ، إسطنبول 1981، منشورات البوسفور، ص 1966.

مشهوراً بسرعةِ كتابته، وطلب منه أن يدوّن **تاريخ الوصّاف**، وقام باحتجازه في دار حتى ينهي عمله[1]. كما أصدر الجبار أمراً بنقل مكتبة شقيقه قورقوت من مانيسا إلى قصر طوب قابِ، وفي أمره هذا دليل لا يرقى إليه الشك على حبه للكتاب.

كان يحب أن يحضر الشعراء والعلماء مجلسه. وقد حضر تلك المجالس علي أفندي الزنبيلي، وكمال باشا زادة، وإدريس البتلسي، وأستاذه حليمي أفندي، وجعفر چلبي تاج زادة من رجال العلم والفكر، وآهي ورواني من الشعراء[2].

كان الجبار يكره البذخ واللهو، ويحب البساطة ومجالسة العلماء والفنانين ومناقشتهم، ولم يكن يُعنى كثيراً بلباسه وزينته، ويتعمد ألا يجدد ألبسته عندما تبلى[3]. وقد وصفه معاصره باولا جيوفيو لإمبراطور هابسبورغ شارلكان قائلًا: "إنه معتدل في الطعام واللهو"[4].

تعلم صناعة الأقواس الجيدة، وتمرّس بالرماية وهو صغير. ومن المعروف أنه صياد ماهر جداً. خرج في رحلات صيد امتدت شهوراً، وأورث هذه الهواية لابنه سليمان. ومن المعروف عنه مهارته باستخدام السيف من خلال قطعه تمساحاً إلى قطعتين بضربة واحدة على ضفة النيل. (انظروا إلى المنمنمة المنشورة في هنارنامة/ سيرة المهارات)[5].

كان الجبار يهوى جمع المجموعات. وقد حفظ الأمانات المقدسة والأشياء القيّمة التي جلبها من سوريا ومصر في القصر العثماني باعتبارها أغلى ما في القصر. عدا هذا، إن قسماً كبيراً من مجموعة القطع الخزفية التي في قصر طوب قابِ جلبها من خزينة المماليك في القاهرة، وأمر بجمعها من أسواقها[6].

(1) الأستاذ سعد الدين أفندي تاج التواريخ إبراهيم حقي قونيالي، "الأعمال التي أغنى بها السلطان سليم المكتبة"، عالم التاريخ، العدد 5، 15 حزيران 1950، ص 204-206.

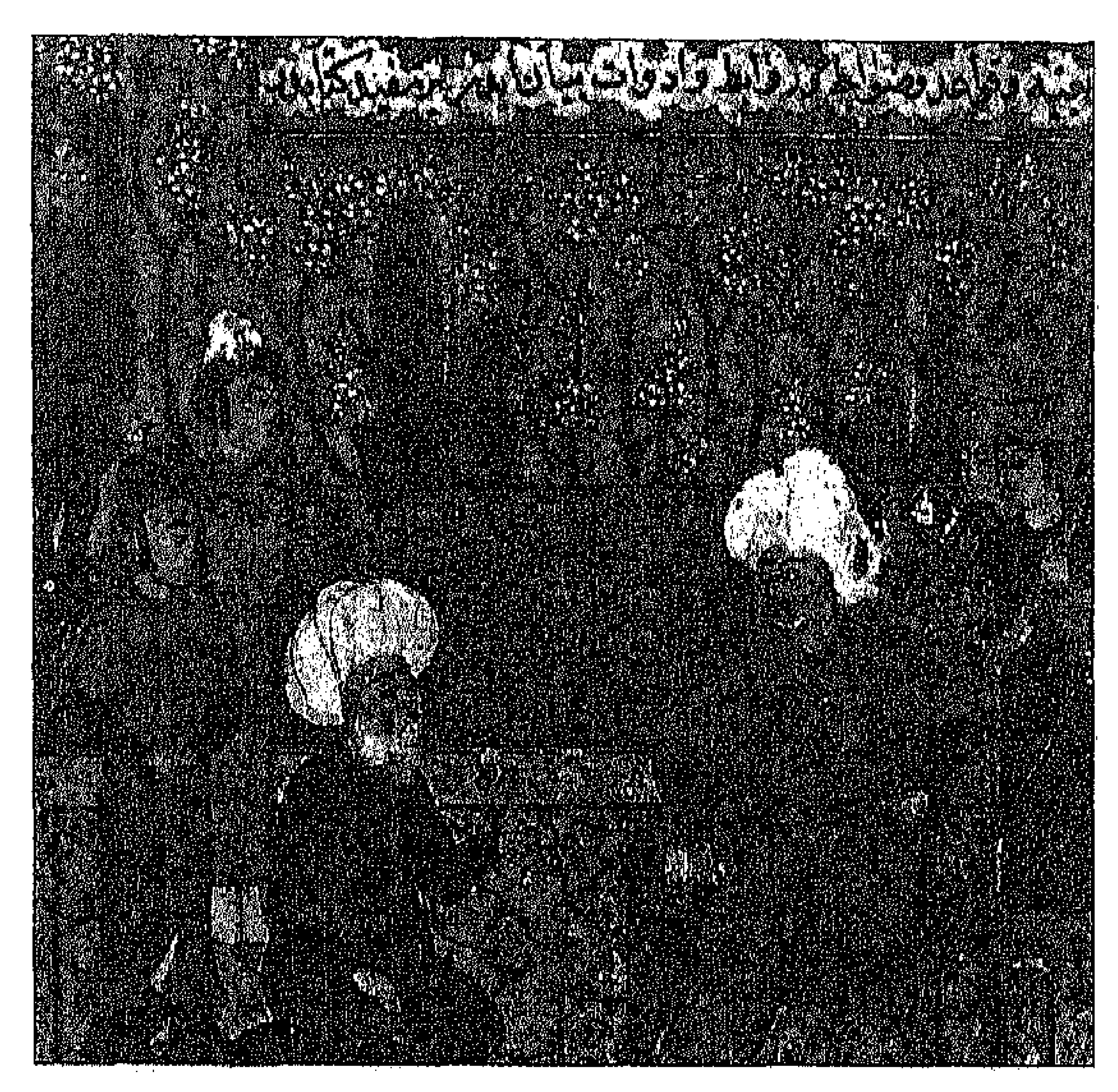
(2) امجان، **السلطان سليم الجبار**، ص 362.

(3) للاطلاع على طرفة حول هذا الأمر انظروا إلى: مدحت سرت أوغلو، **ألبسة الحكام العثمانيين** مجلة التاريخ المصور، العدد 34، تشرين الأول 1952، ص 1778.

(4) شناسي آلطن ضاغ، سليم، **السلطان الجبار** الموسوعة الشهرية، رقم 31، تشرين الأول 1946، ص 945.

(5) "قطع الجبار للتمساح..." عالم التاريخ، العدد 3، 15 أيار 1950، ص 103-104.

(6) زيا إركنس، **مجموعة الخزف في متحف قصر طوب قابِ** وقيمتها عالم التاريخ، العدد 25، 15 أيلول 1951، ص 1045.



كان ياووز يهتم بشعراء عصره عن قرب. هاكم هذا المثال: يستمع للشاعر حليمي تشلبي منفعلاً وواضعاً ساقه تحته (من مشاعر الشعراء).

حين أنقذ السلطان سليم الجبار المدينتين المقدستين مكة والمدينة من تسلّط غير المسلمين بضمهما إلى الدولة العثمانية رفض اللقب الذي أريد أن يُطلق عليه: "حاكم الحرمين الشريفين"، وأمر بتغيير كلمة "حاكم" إلى "خادم" وصار لقبه: "خادم الحرمين الشريفين"، ويروى أنه بكى في ذلك الموقف.

في عهده، انتقلت عملية تطريز كسوة الكعبة من المماليك إلى العثمانيين لأول مرة، حيث أوقف عدة قرى إلى جوار القاهرة من أجل صناعة تلك الكسوة. وبقي تقليد صناعة كسوة الكعبة بيد العثمانيين منذ ذلك التاريخ وحتى الحرب العالمية الأولى حين خرجت الأرض المقدسة من أيديهم. النقطة الغريبة الأخرى هي أمره بصناعة شمع خاص وإرساله إلى الحرم الشريف، وهو شمع أبيض أضيف له الكافور ويسمى "شمع كافوري"، ويستخرج من دهن الحوت سبارمتشتي. تذكر بعض المصادر أن الجبار كان مولوياً. وقد زار قبر مولانا في قونية في طريق حملته إلى سورية.

أمر السلطان سليم الجبار عام 1514 بإنشاء مأوى لمرضى الجذام قرب مقبرة قرجا أحمد. وعرف ذلك المكان باسم تكية المساكين، وقدّم خدمات لمرضى الجذام حتى عام 1938؛ أي تاريخ هدمه.

شبه شيخ الإسلام كمال باشا زادة فترة حكم السلطان سليم الجبار التي لم تدم سوى ثماني سنوات بشمس عصر النهار البراقة قصيرة العمر من خلال هذا البيت:

عهده شمسُ عصرٍ برّاقة طويل الظل وقصير الزمان

طالما بقي حد السيف بتاراً...

تفيد الروايات أن السلطان "سليم" الجبار لم يكن يعتني بهندامه، ولا يُجدّد ثيابه عندما تبلى. لهذا السبب كان رجال الدولة لا يرتدون ثياباً جديدة ومزركشة عندما يمثلون في حضرته احتراماً له وخجلاً منه في الوقت عينه.

عندما كانت ثيابه تبلى لم يكن أحد يجرؤ على قول ذلك له. ذات يوم، أصبح لباس سلطان السلاطين وكذلك ألبسة الوزراء رثة تماماً. في هذه الأثناء، وصل خبرٌ بأن سفيراً كافراً سيأتي، فاستغل الصدر الأعظم هذه الفرصة، ومثل أمام السلطان، وقال بخوف شديد:

"سيدنا، زمرة الكفار هذه قاصرة العقل، لهذا فهي تنظر بسطحية، وتعطي أهمية زائدة للمظاهر. من اللائق يا سلطان سلاطيننا...".

فهم الجبار مقصده، فقاطعه قائلاً:

"ها... نعم! لنفعل هذا. وأنتم أيضاً تَدَبروا ألبسة جيدة مزركشة!".

فرح الوزراء، وفصّلوا ألبسة جديدة مزركشة. وأمر سلطان السلاطين بوضع سيف مجرد عند قائمة العرش.

جُهز كل شيء، ووقف الوزراء وعلى رأسهم الصدر الأعظم بألبستهم الفخمة حول العرش منتظرين سلطان السلاطين. فجأة، أتى الجبار، ولكن بألبسته القديمة!

انتفخت شفاه الوزراء من الخوف، وتحوّلت ذقونهم ذات اللحى البيضاء إلى حقول أقحوان. في الوقت نفسه، مَثَلَ السفير انتفخت شفاه الوزراء من الخوف، وتحوّلت ذقونهم ذات اللحى البيضاء إلى حقول أقحوان. في الوقت نفسه، مَثَلَ السفير أيضاً في حضرة السلطان. وقَفَ السفير منحنياً أمام الجبار الذي كان العالم بأسره يرتجف عند المثول بين

يديه، ويكاد أن ينطبق طبقتين من شدة الخوف. بعد الحديث والمراسم المعتادة، غادر السفير الحضرة. حينئذ قال الجبار للوزراء:

"اذهبوا الآن، واسألوا السفير: كيف وجدت لباس سلطان سلاطيننا؟".

هرع الوزراء، وسألوا السفير هذا السؤال. وكان الجواب الذي تلقوه هو:

"أنا لم أر الحاكم العظيم... خطف نظري السيف المجرد عند قائمة العرش، ولم أر غيره!".

عندما نُقل هذا الجواب إلى سلطان السلاطين، أشار نحو السيف الذي كان لا يزال عند قائمة العرش، وقال:

"طالما بقي حد السيف بتاراً لا ترى عين الكافر لباسنا، ولا تنتبه إليه. الله لا يرينا اليوم الذي يجعل فيه سيفنا غير بتار، وننشغل باللباس والمظاهر. لأن الكافر حينئذ سيرفع عينه عن الأرض، ويضعها على سلطان سلاطين آل عثمان!"[1].

(1) مدحت سرت أوغلو، ألبسة الحكام العثمانيين، ص 1778.

الشاعر والصائغ: السلطان سليمان القانوني (1566-1520)

حتى أنت عليك ألا تعلق قلبك بشيءٍ فانٍ.

السلطان سليمان القانوني

السلطان سليمان القانوني أحد عظماء العثمانيين المظلومين. لعل مؤرخينا يحتاجون إلى عشرات السنين من أجل إجلاء وجهه الرائع؛ لأن للقانوني شخصية مؤثرة من أي جانب تتناولونه. فتوحاته فقط تكفي لسلب ألباب أمة. من جهة أخرى، إنه يحتفظ بلقب أكثر من كتب شعراً على بحر الغزل بين الشعراء الكلاسيكيين، وبفارق كبير. هناك مئات الآثار المعمارية في جغرافيتنا تبدأ من السليمانية وتصل إلى قنوات ماغلوفا لجر المياه. كان الأكثر أناقة في عصره، أي يمكن اعتباره أحد مؤسسي الأزياء العثمانية. شغفه بالمجوهرات وصل إلى الذروة. وفي الوقت نفسه، يُعتبر المدرب الفني الذي وقف خلف تشكيل جيل المصارعة الحديدي العالمي.

سنبدأ الآن باستعراض شخصيته.

تصوّر المصادر السلطان سليمان القانوني أنه قصير القامة، وأشقر البشرة، وخرنوبي اللحية، وأزرق العينين، وعريض المنكبين، وقويّ البنية، وذو لحية قصيرة، وشاربه طويل وكث يرتفع فوق أنفه. ولكن لونه شاحب قليلاً[1]. ويقال

(1) هناك روايات مختلفة جداً حول شكله. مثلًا: طويل القامة، أسود الحاجبين، أشهل العينين، أسمر البشرة، نسري الأنف، أسنانه متفرقة، ووجهه طويل. انظر إلى: قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 167؛ مستدير الوجه، أشهل العينين، حاجباه متباعدان، صقري الأنف، طويل القامة والرقبة قليلاً، وخفيف اللحية. انظروا إلى: أوزون تشارشلي، تاريخ العثمانيين، المجلد الثاني، ص 419؛ من أجل الوصف نفسه أيضاً انظروا إلى: يوجال وسفيم، مصدر سبق ذكره، ص 213؛ "بيضاوي الوجه، أسود الرموش، أشهل العينين، صقري الأنف، شهم، إذا وعد وفى، عريض الظهر، أسدي الهيبة، طويل القامة، أسنانه متباعدة كأنها درر، يسير بهيبة ووقار ببطء... وكان سلطان سلاطين صاحب وقار". **تاريخ صولاق زادة، المجلد 2**، ص 111.



منمنمة من هنارنامة يظهر فيها القانوني
وهو يصطاد بجوار قصر فيلبة.

إنه كان يدهن وجهه بمسحوق في المراسم لكي يبدو بصحة جيدة. وهو مصاب بداء لا براء منه في ساقه، لهذا تؤلمه باستمرار.

نال نصيباً جيداً من التعليم بسبب تمضيته فترة مهمة من طفولته في قصر جده بيازيد الثاني. تلقى دروساً من علماء قديرين كثيرين، ونشأ بشكل خاص في ظل خير الدين أفندي القسطاموني.

كان محباً للأناقة والفخامة والزركشة باللباس على النقيض من والده وجدّه، وكان يحب ارتداء الثوب الطويل عديم الكمين، ويستعمل أدوات وزينة تُظهر الغنى الفاحش. كان يرتدي سراويل مختلفة الأشكال، لذلك كان الجبار يناديه: "الـمُسَرْوَل". ذات مرة رآه بألبسة فاخرة فسخر منه قائلاً: "لم تترك شيئاً لأمك تلبسه".

كان السلطان سليمان القانوني هاوياً للصياغة كوالده الجبار، ومعلماً ماهراً في هذه المهنة إلى حدّ أنه كان يعرف نماذج فن الصياغة الإيطالية، ويطبقها[1].

(1) كان اسم معلمه قسطنطين، وهو رومي. كما كان والد أوليا چلبي أيضاً كبير الصاغة في القصر. بحسب القونيالي، إن الصاغة كانوا يقيمون مخيماً في كاغتهانة كل عشرين يوماً، ويلهون، وكان هذا بأمر من القانوني. انظروا إلى: إبراهيم حقي قونيالي، السلطان سليمان القانوني، الوطن التركي، العدد 8، آب 1966، ص 19.

غيـر هـذا، كان شـغوفاً بالأحجـار الكريمـة مثـل الفاتح. وبحسـب الرحالة البندقي ماركو سـانودو، لم يحب أحد من السـلاطين الذين سـبقوه المجوهرات مثلـه. ومـن المعـروف أن صائغـاً بندقياً صنع للقانوني تاجـاً ذهبياً مرصعاً بأربع ياقوتـات، وأربع ألماسـات، والكثير من اللؤلـؤ، وزمردة ضخمة، وحجر فيروز. ومن المناسب اعتبار ذاك التاج أداة دعاية وإظهار مكانة لعدم وجود عادة وضع تاج لدى العثمانيين. وقد شـوهد أثناء استقباله أحد السـفراء واضعاً التاج على كرسي مجاور، وليس على رأسه[1].

من المتفق عليه بين الخبراء، أن عظمة شاعريته كانت مساوية لعظمة قيادته العسـكرية وإدارتـه. لقـد استخدم القانوني اسـم محبي الفنـي، ولضرورة الوزن استخدم أحياناً أسماء محب، والسلطان سليمان، ومفتوني، وعاجزي. ويتضمن ديوانه 2779 قصيدة على بحر الغزل، بينما لم يكتب أشهر الشعراء الكلاسيكيين "زاتي" سوى 1825 قصيدة فقط. وهكذا، يعتبر القانوني صاحب الرقم القياسي بكتابـة قصائـد علـى هـذا البحر[2]. كما أن أكثر شـعراء العالم التركي عطاء على بحـر الغـزل علـي شـير نوائي بقي عند الرقم 2616 قصيـدة، وهكذا فهو يتخلف عن رقم القانوني بمئة وست وستين قصيدة[3].

كتب بالفارسـية قصائد لو جمعت لعادلت ديواناً منشـوراً[4]، وهذه الحقيقة تزعـج بعـض الباحثيـن[5]. لقد طبعت السـلطانة عادلة بنت محمود الثاني قسـماً مؤلفاً من 875 قصيدة من ديوان محبي سنة 1899 تقديراً لجدها[6]. برأي مؤرخنا الأديـب المرحـوم أميـل چلبي أوغلو، إن القانوني أحد الشـعراء الذين يجب أن

(1) أندريه كلوت، سليمان الرائع، ترجمة: طورهان إلغاز، إسطنبول 1994، منشورات مليت، ص 109.

(2) انظروا إلى: ولدان سردار أوغلو، ديوان زاتي في ضوء الحياة الاجتماعية إسطنبول 2006، منشورات "İSAM" ص 49؛ مصطفى إيسان، "الجانب الشعري لدى الأسرة العثمانية المالكة" ص 86، علي فؤاد بيلكان، مؤرخ الفن لدى الأسرى العثمانية المالكة، ص 337.

(3) الدكتور رضا نوري، الرسائل السياسية، إعداد أحمد نزيه غاليتكين، إسطنبول 2005، منشورات شهير، ص 224.

(4) جوشكون آق، "ديوان محبي بالفارسية"، بورصة 1995.

(5) مثلاً: إسماعيل هامي ضانشمند، من القانوني؟ الوطن التركي، المجلد 5، العدد 8، آب 1966، ص 12.

(6) سلطان السلاطين العشاق والشعراء (عدد خاص من عالم التاريخ)، إسطنبول 1950، ص 14.

يحتلوا مكانة في الشعر العثماني؛ حتى لو لم يكن سلطان سلاطين. وهناك قصيدة في ديوانه المخطوط في متحف طوب قابِ لم تدخل ديوانه[1].

قدّر القانوني العلماء والشعراء كثيراً، ودعاهم إلى قصره، واستمتع بمسامرتهم، واصطحبهم معه في ترحاله، وعمل على إسعادهم. ونعرف أن "فضولي" حاز مديحه عندما دخل بغداد[2]. ولكن سبب عدم استمرار الود لهذا الشاعر الكبير هو تمييزه الشاه إسماعيل في ثنائياته بنج بادة، ومدحه إياه بقوله: "حيوي يضج بالحياة كالخمر"، وتشبيهه جده بيازيد الثاني بالأفيون[3]. لقد أدرك القانوني تمكن الشاعر باقي من الشعر، فأخذ بيده، ورعى تطوره. وعندما وافت المنية القانوني ردّ باقي الجميل بمرثية خلدته[4].

ونورد هذه المقطوعة من بحر الغزل التي انتشرت بين الناس كمثال:

لا مكانة لدى الشعب كمكانة الدولة

ولا سعادة في الدنيا كسعادة الصحة

ما السلطة سوى صراع دنيوي

ولا سعادة في الدنيا كسعادة الوحدة

دعك من مجالس اللهو فنهايتها سيئة

إن أردت صديقاً أبدياً فلا أفضل من العبادة

إذا لم تعتبر سني عمرك المتسربة كرمل ساعة

فاعتبر من الساعة التي تدور في الزجاجة

غادر يا محبُّ صخب الحياة إن أردت طمأنينة

لأنه لا طمأنينة كالاعتكاف وحيداً

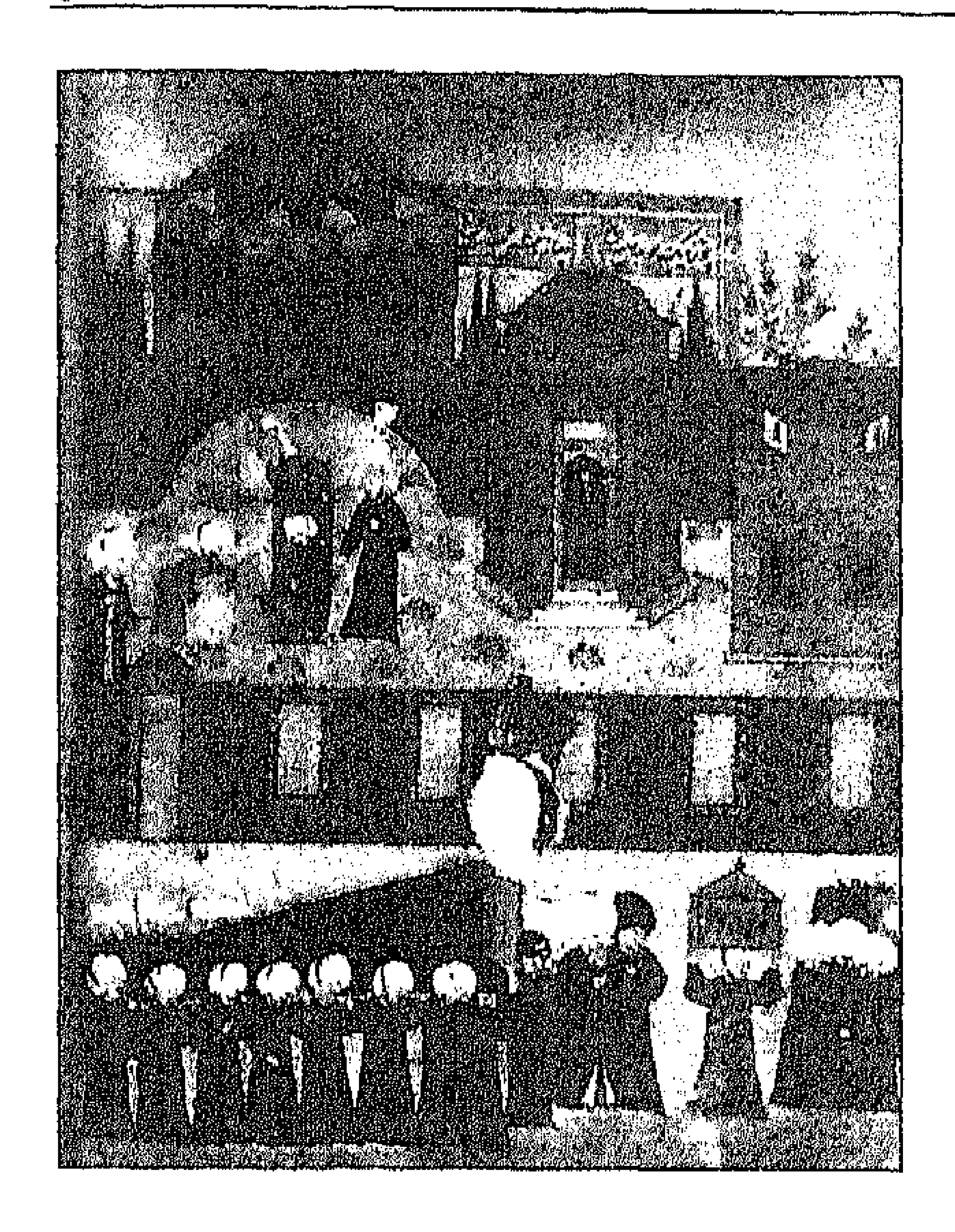
---

(1) نيغار أنافارطا، غزلية سليمان القانوني المجهولة، مجلة الحياة تاريخ، العدد 4، أيار 1968، ص 11-12.

(2) سميح نافذ طانصو، سليمان القانوني الموسوعة الشهرية، رقم 17، أيلول 1945، ص 544.

(3) مجغان جومبور، فضولي: حياته وأعماله عالم التاريخ والجغرافية، العدد: 3، 1 حزيران 1959، ص 168، قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 169.

(4) أوزون تشارشلي، تاريخ العثمانيين، المجلد الثاني، ص 420.



جسد القانوني محمولاً إلى المقبرة من أجل الدفن. الصندوق المحمول على الرأس أمام التابوت يثير الفضول. هل فيه فتاوى "أبو السعود" أفندي؟

يقدم لطيفي التقييم التالي حول شاعريته:

الكلمات البليغة التي تنتظم في خلجات قلبه أثناء أعمال السلطنة تشبه عقداً من اللؤلؤ، ووجدت مكانة وشهرة بين المثقفين وفي لغات العالم كلها. بأداء مرهف وكلمات ملونة نظم قصائد على بحر الغزل الجميل بالفارسية والتركية[1].

يُذكر في بعض المصادر أن القانوني كان فناناً بالخط، ويكتب خط التعليق بشكل جميل[2]. ويلاحظ أنه كان يستخدم هذا الخط في خطاباته[3].

ليست لدينا معلومات عن مدى اهتمام القانوني بالموسيقى، ولكنه عندما كان أميراً مقيماً في مانيسا سمع عزفَ عبد لدى امرأة على الكمان، فاهتم به،

(1) مذكرات لطيفي، ص 81.

(2) عيسى قايا ألب، تحليل ديوان السلطان أحمد إسطنبول، 1999، منشورات كتاب إف/ بيت الكتاب، ص 61، بكطاش أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 291.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث/ أنقرة 1998، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 560، هامش 1. للاطلاع على مثال انظر إلى: مصدر سبق ذكره، صورة 7، عبارة "لتعطى للجميع" هي بخط القانوني شخصياً.

وأُعجب بعزفه، واشتراه، وأدخله في خدمته. هذا العبد هو الذي ترقى لاحقاً إلى أن وقّع باسم "السلطان قائد الجيش" إبراهيم باشا المقبول (المقتول)[1].

كما عُلم، وصلنا أن فرانسيس الأول ملك فرنسا أرسل أوركسترا قصرٍ صغيرة تعبيراً عن امتنانه لمساعدته، وقد استمع القانوني لعزفها، ولم يعجب بالمقطوعات التي عزفتها. ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه أمر أن يُعاد توزيع إحدى المقطوعات، ندرك أن لديه أذناً موسيقية جيدة[2].

رعى القانوني أرباب العلم والفن بشكل دائم، وأمر علاء الدين چلبي بترجمة كتاب كليلة ودمنة أحد أهم آثار الأدب الهندي، وقرأ الترجمة المقدمة له باسم سيرة سلطانية بليلة واحدة، وكافأ المترجم بتعيينه قاضياً على بورصة؛ المنصب الذي يحتاج في الأحوال العادية إلى سبع سنوات خدمة لبلوغه[3].

كان والده السلطان سليم الجبار يعرف التتارية إضافة للعربية والفارسية، أما القانوني فقد تعلم لغة التشاغطاي إضافة إلى العربية والفارسية[4].

أَمَرَ شاعراً يدعى ضعيفي بترجمة كتاب إلباسه لباساً رومياً من الفارسية إلى التركية، وهو كتاب سياسي نموذجي، ويجب اعتبار عمله هذا محاولة على طريق تشكيل فلسفة الدولة من خلال الرسائل وأخبار الشعراء[5]. بالإضافة إلى ما تقدم فقد تَرْجَمَ مراد بيك أحد مترجمي القصر كتاب الفيلسوف والخطيب الرومي شيشرون وقدمه للقانوني. اسم الكتاب باللاتينية "De Senectute" وترجمه بعنوان: كتاب مديح الشيخوخة[6].

كان هاوياً للسيراميك أيضاً. لهذا السبب دخلت القطع فائقة الجمال المسماة الزرقاء والبيضاء المستجلبة من الصين هدية سفير الهند إلى القصر

(1) سرت أوغلو، ما خلف ستارة عصر القانوني، ص 20.

(2) جينوتشان طانري قورووان، الموسيقى العثمانية، ص 506-507.

(3) م. طيب غوكبلغن، سليمان الأول الموسوعة الإسلامية، إسطنبول 1967، المجلد التاسع، ص 152.

(4) أميل تشلبي أوغلو، الأدب التركي في عصر السلطان سليمان القانوني، إسطنبول 1994، منشورات وزارة التربية القومية، ص 36.

(5) ضعيفي، حديقة ورد الملوك إعداد: عبد الكريم قوتشين، أنقرة 2005، منشورات آق تشاغ، ص 72-73.

(6) المحرر: فريدريك هيتزل، "Enfants de langue et Dragomens/ مترجمو القصر والمترجمون" إسطنبول 1995، منشورات بنك البناء والقروض، ص 17.

في عهده، وما زالت إلى اليوم تشكل نواة مجموعة الخزف القيّمة في قصر طوبِ قابِ.

أشرنا في ما سبق أن لكل سلطان سلاطين مهنة. وتشير المصادر إلى أن القانوني كان إسكافياً.

من المعروف أن القانوني كان قائداً عسكرياً كبيراً بل عظيماً، ولا ضرورة للتنويه بأنه هاوٍ للألعاب العسكرية ومتع الصيد. ولا ضرورة أيضاً للقول إنه ماهر بالفروسية وألعاب السيف. ومن المعروف أنه عندما كان في الحادية والثلاثين من عمره، وأثناء معركة موهاج التي خاضها عام 1526، رأى ثلاثة فرسان مجريين يهجمون باتجاهه، فاستل سيفه، وقضى على الثلاثة معاً بضربة واحدة[1].

كما يمكن أن نستنتج حبه للرياضة من خلال أمره بإنشاء ساحة للمصارعة غربي جامع السليمانية تقع بينه وبين القصر القديم في البيازيد[2]. تقع تلك الساحة اليوم ضمن بناء جامعة إسطنبول، وشيد عليها بعض الأبنية.

وتكاد المصادر تجمع على أن السلطان سليمان عانى من الإصابة بمرض النقرس. والمعروف أيضاً أن موته كان نتيجة مضاعفات هذا المرض[3]. وقد عالج كبير الأطباء محمد بدر الدين قيصوني النقرس في رجل السلطان سليمان[4].

وتفيد المصادر أيضاً أنه تمنى الموت شهيداً في شيخوخته. ويقال إن دعاءه هذا قُبِل في سيكتوار[5]. ألا يمكن أن يكون خروجه وهو في الحادية والسبعين من عمره في تلك الحملة وهو مريض من أجل أن يموت أثناء الجهاد؟

(1) حلمي آيدن، **سيوف سلاطين العثمانيين في قصر طوب قابِ**، المهن اليدوية، العدد 4، 2007، ص 36. أما مدحت سرت أوغلو فيكتب: "إنه قضى على فارس معادٍ، ولكن الآخرين قضى عليهما الإنكشاريون الذين هرعوا لنجدته". انظر إلى: **معركة موهاتج**، مجلة التاريخ المصورة، العدد 49، كانون الثاني 1954، ص 2858-2859.

(2) إبراهيم حقي قونيالي، **الأوقاف وتكية المصارعين**، التاريخ يتكلم، العدد 34، تشرين الثاني 1966، ص 2853.

(3) انظروا إلى: متين قونط، **السلطان سليمان والنقرس**، إعداد أوزلم قومرولر، سليم الرائع، إسطنبول 2007، منشورات دار كتاب، ص 93-99.

(4) حقي أوزال روستشقلو، أرشيف الطب التركي، رقم 15، 1940، الناقل سليمان أنور، **الذكرى الأربعون للقهوة التركية** عالم التاريخ، العدد 10، الأول من أيلول 1950، ص 420.

(5) ضانشمند، **من القانوني؟** ص 12.

ولا يمكن مقارنة إنجازاته التي أمر بها في مكة والمدينة إلا بما أنجزه والده الجبار، وأحفاده أحمد الأول ومراد الرابع وعبد الحميد الثاني. فقد أرسل منبرين يُعتبران قطعتين فنيتين من الرخام إلى الحرم الشريف وضريح سيدنا محمد ﷺ، وأضاف مئذنتين جديدتين للحرم الشريف، وأعاد بناء بيت سيدتنا آمنة حيث ولد سيدنا الرسول، وجرّ عين زبيدة إلى مكة، ودفع من أجل هذا العمل مائة ألف ذهبية من ماله الخاص. بالإضافة إلى كل هذا، أنشأ مدرسة دينية في مكة، وأنشأت زوجته خُرّم مكاناً لإطعام الفقراء[1]. وأخلص ابنه سليم بتنفيذ وصيته التي طلب فيها أن يُجر الماء إلى جِدَّة من أجل ألا يعاني الحجاج من العطش.

ومن المعروف أن القانوني أولى أهمية خاصة للمتصوفين والشيوخ، وانتسب إلى المولوية، واستمد عِزوة من النقشبدية وذكراً من الخلوتية. ومن الواضح أنه استمد غناه الداخلي المنعكس في شعره من بستان ورد معاني التصوف[2].

(1) محمد الأمين المكي، خدمات السلاطين العثمانيين للحرمين، ص 45-48.

(2) رشاد أونغوران، السلاطين العثمانيون والتصوف، المجلد 4، أنقرة 1999، منشورات تركيا الجديدة، ص 486-494.

ليُجر الماء إلى جدّة

قبيل انطلاق القانوني في حملة سيكتوار ترك لابنه ولي العهد سليم رسالة ذات معنى. كأنه استشعر موته – وقد كان مريضاً جداً عند خروجه – فتناول القلم، وكتب الوصية التالية لابنه:

يا سليم خان نور عيني الأحب إليّ من روحي. خذ ربطة الذراع هذه وصندوق الجواهر فقد أوقفته، وأوصيك به على روح أشرف من في الدنيا والآخرة: بعها، وجر الماء بثمنها إلى جدة، كن ابناً مطيعاً، ونفذ هذه الوصية.

يشهد عليّ أغوات القصر وخدمه كلهم، أنت تعرف خطي، لهذا لا فخر لي في الدنيا إلا أن أرى الظمأ قد أُطفئ. الدنيا لا تدوم لأحد. آمل أن تبيعها بقيمتها. ليبارك لنا الله تعالى بهذه الحملة، ويُيسرها. الصلاة والسلام على الحبيب[1].

(1) أرشيف متحف قصر طوب قابِ، رقم "E.5888". نيغار أنفارطا، حملة السلطان سليمان القانوني الأخيرة ووصيته، الوطن التركي، المجلد 5، العدد 8، آب 1966، ص 33.

القانوني يطلب الدعاء من سيكتوار

كانت للقانوني رؤية عميقة للدنيا إلى درجة أنه وَجَّه قبيل وفاته رسالة من سيكتوار إلى شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي" العالم الذي يعتبره أخاه في الآخرة ويحترمه، يطلب منه فيها ألا ينساه بدعائه. نص الرسالة هو:

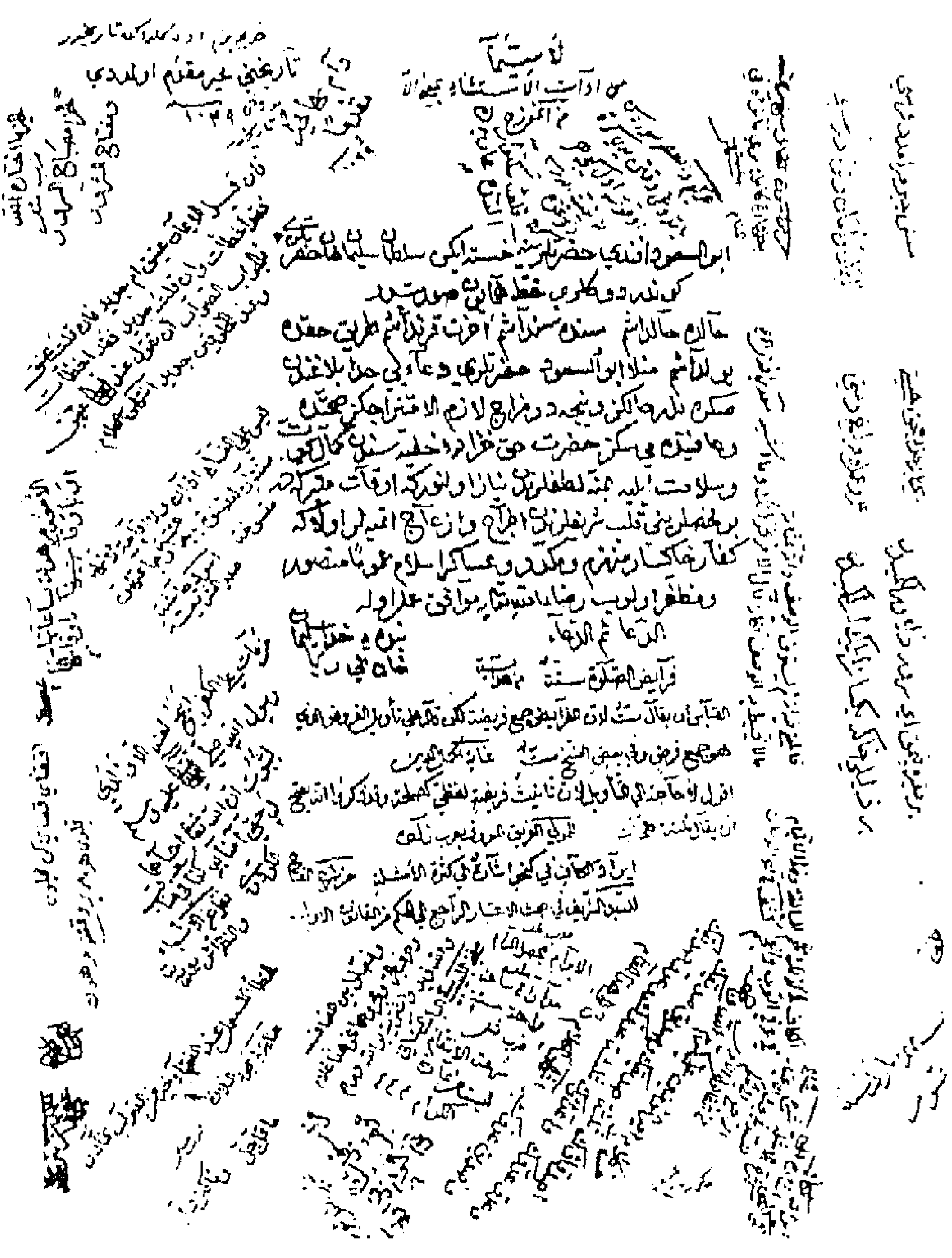
يا شريكي عند الهم، ومؤنسي عند الغم، وأخي في الآخرة، ورفيقي في طريق الحق حضرة الشيخ "أبو السعود أفندي"، بعد السلام والدعاء بالخير، كيف حالك؟ وكيف مزاجك؟ هل أنت بصحة جيدة؟ ليمنحك حضرة الحق كمال القوة والسلامة مما عنده. أمنيتنا ورجاؤنا ألا نكون خارج قلبك الشريف في الأوقات المباركة. على أمل أن يُهزم الكفار، ويكسروا وينهكوا، وينصر جنود الإسلام عموماً بنيل رضاء الله تعالى.

الدعاء ثم الدعاء.

عبد الهدى

كاره الرياء سليمان خان[1]

(1) الناقل: آ. سهيل أنوير، الرسالة التي أرسلها السلطان سليمان إلى "أبو السعود أفندي" أثناء مرضه في سكتوار قبل أربعمائة سنة، الوطن التركي، المجلد الخامس، العدد 8، آب 1966، ص 26.



صورة للرسالة التي أرسلها القانوني من سيكتوار إلى "أبو السعود" أفندي.
مكتبة لالة لي، هي مدرجة برقم K. 2688.

عبارة "الفلاح سيد الأمة" في الحقيقة للقانوني

يُعتقد على نطاق واسع أن عبارة الفلاح سيد الأمة هي لأتاتورك، ولكنها في الحقيقة للسلطان سليمان القانوني. فبينما كان مجتمعاً مع حريمه ذات يوم سألهن: "من هو سيد العالم؟". وعندما أجبنه دون تردد: "سيدنا سلطان السلاطين". قال القانوني: "لا، سيد العالم هو الرعية؛ أي الفلاح الذي ترك الراحة والطمأنينة لكي يحرث ويزرع ويطعمنا مما يجنيه".

* * *

القانوني وسفينة نوح

لدينا أدلة غريبة على اهتمام السلطان سليمان القانوني ببقايا سفينة نوح. أورد هذا أدناه من أجل البحث المفصل فيه:

... وانطلق السلطان سليمان من هذا الشاطئ، ومر على المراسي في الطريق إلى أن وصل إلى مقابل رودوس في سنجق منتشة، وعَبَرَ ثكنات منطقتي روملي والأناضول، وقد ذُهل. كانت لدى السلطان قطعة خشب من سفينة، كانت تلك الخشبة من سفينة نوح أساساً[1].

(1) قايهان أتيق، **لطفي باشا وتواريخ آل عثمان**، أنقرة 2001، منشورات وزارة الثقافة، ص 248. غير هذا، هناك ما نقله إبراهيم حقي قونيلي من **تاريخ لطفي** مع بعض الأخطاء: "هل نزلت سفينة نوح على جبل جودي أم على جبل آغري؟" التاريخ يتكلم، العدد 16، أيار 1965، ص 1311.

السلطان الذي أهلته السليمية: سليم الثاني (1574–1566)

طلب من وزيره تنظيم العالم فرغب بقصر سلطاني.

يحي كمال

اعتاد مؤرخونا على اعتبار موت القانوني بداية انحطاط الإمبراطورية العثمانية، وهذا على الأصح خطؤهم. لم يتجدد النجاح العظيم وطويل المدى بعد القانوني، ولكن بنية الدولة العثمانية العسكرية والسياسية استمرت قرناً على الأقل بعد موته. مع هذا، إن فتح قبرص عام 1571 نجاح هام شكّل نقطة انعطاف مهمة على صعيد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط، ويعود هذا الإنجاز إلى عهد ابن القانوني سليم الثاني. يُعد فتحُ جزيرة كريت الصعب عام 1669 نجاحاً لا يمكن تجاهله بعد وفاة القانوني بقرن، وقد حدث في عهد محمد الرابع.

وُلد سليم الثاني فرحاً بالحياة خلال عرس عمته السلطانة خديجة على الصدر الأعظم إبراهيم باشا المقبول. تُصوّره المصادر متوسط القامة أو طويلاً نوعاً ما، وممتلئ الجسم، وطويل الساقين إلى حدٍّ ما، وحنطي البشرة مائلاً إلى الشقار، وعريض الجبهة، وأزرق العينين، وخرنوبي اللحية. ويصوره صولاق زادة على أنه مربوع القامة، وأفطس الأنف، وخرنوبي اللحية، وأشقر البشرة، وعريض الجبهة، وأشهل العينين المائلتين إلى الزرقة[1]. يُلقب بالأصفر. يشبه وجهه وجه أمه حُرّم. كان النصف السفلي لأجسام السلاطين العثمانيين عموماً قصيراً بالنسبة إلى النصف العلوي، أما سليم خان الثاني فعلى العكس من هذا،

(1) تاريخ صولاق زادة المجلد الثاني، إعداد وحيد چابوق، أنقرة 1989، منشورات وزارة الثقافة، ص 321.

أي نصفه السفلي طويل بالنسبة إلى نصفه العلوي، وكان مهيب الشكل[1].

إن أول سلطان جلس على العرش العثماني هو السلطان سليم الجبار، واستمر عهده ثماني سنوات (1512-1520). والغريب أن عهد سليم الثاني دام ثماني سنوات أيضاً. أما سليم الثالث الذي سيجلس على العرش في أواخر القرن الثامن عشر، فقد أضاف إلى فترة حكم السليمين اللذين سبقاه عشر سنين، ليبلغ عهده ثماني عشرة سنة. المصادفة الغريبة الأخرى أن السليمين الأولين جلسا على العرش في العمر نفسه، أي حين كانا في الثانية والأربعين من العمر.

سليم الأصفر رجل الميول المدهشة التي لم تلتقطها العيون. كان يحفر أهلّة على العكاكيز، ويشعر بالسعادة من إهدائها بواسطة رجاله للحجاج ليتكئوا عليها، ولعله بهذا يجد سلواناً لعدم ذهابه إلى الحج؛ حين يفكر في أن قطعاً من صنعه مسّت ذلك التراب المقدس.

وَصَلنا أن "سليم" الثاني اهتم كثيراً بالصياغة مهنة جده ووالده. كما كان يصنع أهلة ذهبية من أجل تتبع الأسطر عند القراءة، ويرصع مقابضها بالأحجار الكريمة بتصميماته الخاصة، وبهذا استمر بمهنة جده.

تصوره إحدى المنمنمات ماهراً بالصيد والرماية. كثيراً ما يذهب إلى أدرنة من أجل الصيد، ولهذا كان يحب هذه المدينة. وبتكليفه المعماري سنان ببناء جامع السليمية في أدرنة عرف كيف يختم هذه المدينة بخاتم العثمانيين الذي لا يُمحى.

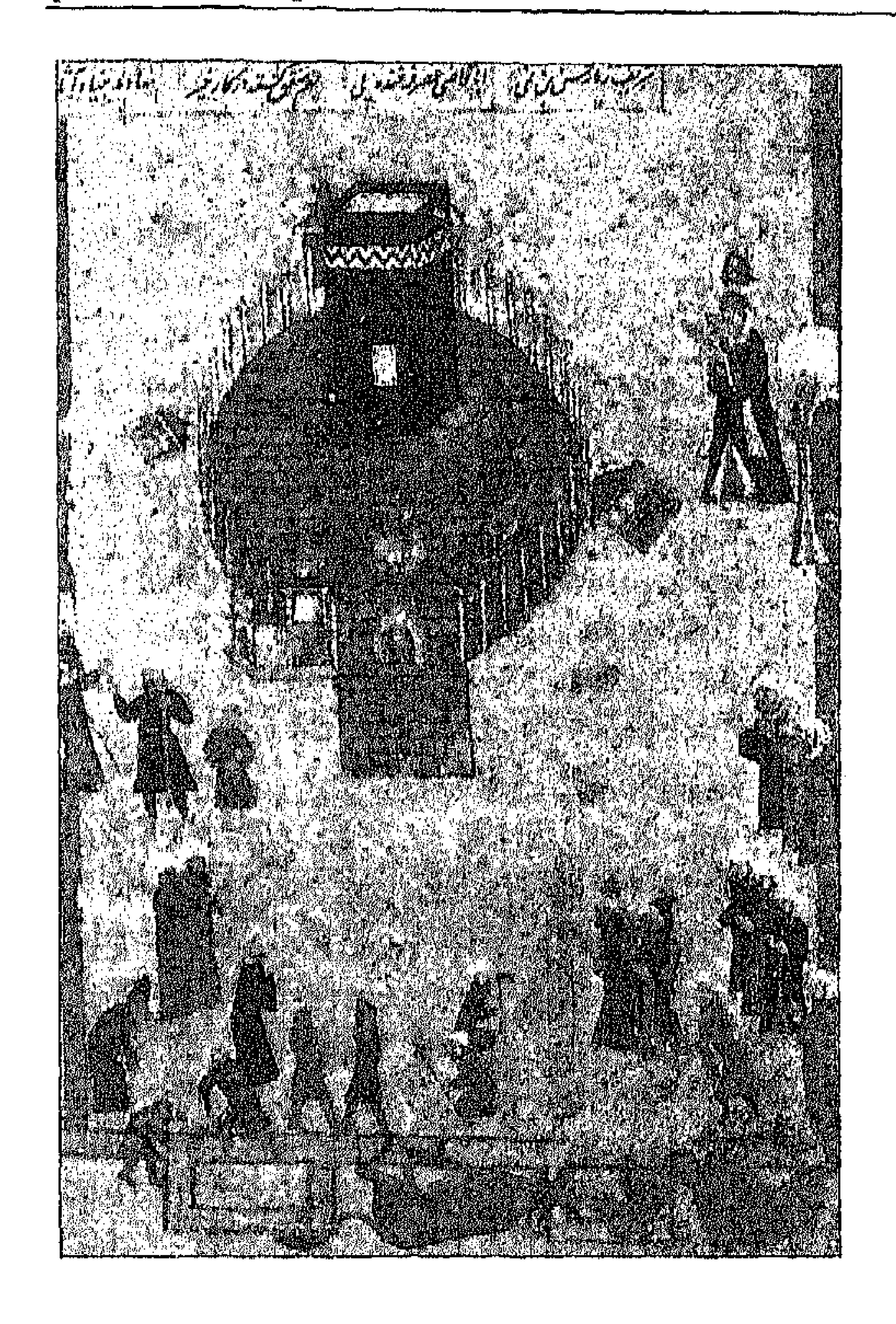
تقول الروايات إن أحداً لم يكن يشد القوس بقوته[2]. وفي متحف طوب قابِ قوس بدأ بنصبه، ولم ينهه[3]. وكان قوياً جداً على عكس ما ترسمه الكتب بشخصية سلطان السلاطين المسكين.

قرّب سليم الثاني الشاعر باقي الذي كان يقدره والده كثيراً منه، وكان سلطان سلاطين محباً للموسيقى ويتذوق الشعر، ويكتبه أحياناً. ولكن لم يكن

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني المجلد الثالث، ص 40.

(2) أوزون تشارشلي، مصدر سبق ذكره، المجلد الثالث، ص 40.

(3) تولاي إشبيل، القوس والنبل والرماية رياضة تركية قومية مجلة التاريخ والأدب، العدد 3، آذار 1981، ص 82.



منمنمة تصور "سليم" الثاني وهو يزور الكعبة. ترى، هل تصوّر حقيقة أم توقاً؟

لديه ديوان مجموع. بقيت قصائده في بعض المجلات. اسمه الفني سليمي (ولكنه يُذكر في بعض الأمكنة طالبي)[1] ويعتبر البيت التالي أحد أجمل كتاباته، ويعادل ديواناً كاملاً:

نحن بلبل ملتهب التغريد في حديقة ورد الفراق

لو مر نسيم الصبا على حديقتنا لهدأ اللهيب

وهناك بيت جميل جداً يعبّر عن شخصيته بنجاح كبير:

يا قلب! نحن خلقنا لطفاء بالفطرة

يعلم الله أننا لا نعادي أحداً

(1) أطالر، مصدر سبق ذكره، ص 436.

ويُعرف عن سليم الثاني أنه ملحن قدير لحّن عملين على مقام "سوزي ديلارا"، ولحن وعمل على مقام "بسنديدة"، وأغنيات على مقامات ماهور، وشاهيناز، وسنبلة محيّر، وبوسلك، وخزام، وشوق طرب، وشوق أفزا[1]. وقد ضم إلى مجلسه أكثر من عشرين عالماً وشاعراً ورساماً وموسيقياً منذ كان أميراً. وهكذا يظهر أمامنا الاسم المهم الثاني في سلسلة السلاطين الملحنين التي بدأت مع بيازيد الثاني.

وهناك خاصيتان أخريان لسليم الثاني؛ الأولى أنه أول سلطان سلاطين ولد ومات في إسطنبول، والثانية أنه لم يخرج على رأس الجيش في حملة.

تابع السلطان سليم الثاني إعمار الحرم الشريف الذي بدأه والده، وقام بإصلاح قنوات جر الماء في مكة التي كانت خَرِبة، وأضاف قباباً رخامية للمسجد الحرام، وأنفق على هذا العمل 210 ذهبيات من الخزينة الخاصة. وقد جلب الأعمدة المستخدمة في صيانة الحرم الشريف خصيصاً من مصر. وهنا يسعنا الاستعانة بالعبارة التالية للمكي: "كل حجر في الحرمين الشريفين يشهد على فضيلة الخلفاء العثمانيين وقداستهم"[2].

بناء جامع السليمية كان نقطة تحول في حياة سليم الثاني الذي اهتم بكل تفصيل من تفاصيل الجامع، وانتظر على أحرّ من الجمر افتتاحه، ولم يقصّر بأي نفقات لكي يكون بمنتهى الجمال. كان يزداد انفعاله مع اقتراب الافتتاح من جهة، ويعيش محاسبة ضمير حول ما إذا كان الأثر العظيم الذي سيظهر إلى الوجود يليق بشخصيته من جهة أخرى. وباختصار، إن جامع السليمية أثّر بعمق على حياته[3]، ونفهم هذا من خلال استدعائه الشيخ سليمان أفندي الغديزلي إلى القصر. وقد تاب إلى الله، واستغفر في حضرته وهو يصبب الدموع.

دس بعض الكتّاب السم في كتاباتهم؛ حيث ذكروا أنه فتح قبرص من

---

(1) رشاد أكرم قوتشو، من عثمان غازي إلى أتاتورك: بانوراما تاريخية لستة قرون، ملحق خاص لجريدة الجمهورية (خمسينيات القرن العشرين).

(2) محمد الأمين المكي، خدمات السلاطين العثمانيين للحرمين، ص 52.

(3) أشكر البروفيسور سماوي إييجا الذي لفت نظري إلى هذه النقطة. (لقاء خاص تم في 7 تشرين الأول 2008).

أجـل عنبهـا الجيـد، وأنه مات بانزلاق قدمه وسـقوطه وهو مخمور في الحمام. هـذه أمـور معيبـة. إنهـم يسـوقون منطقـاً غريباً وكأنه لا يمكـن جلب العنب من قبـرص عـن طريـق التجارة. صحيح أن قدمـه انزلقت على رخام الحمام، ولكن هـذا كل مـا فـي الأمـر، ولا علاقـة له بالخمر. كتب أحمد وفيق باشـا في عمله المعنون: **تفنيد التاريخ العثماني**: "أثناء تفقد سليم الأشقر الأجنحة والحمامات المجدّدة بعد الحريق، انزلقت قدمه، وسـقط على الرخام. وكانت هذه الحادثة سـبب موته"[1]. وقد كان حينئذ يصارع المرض منذ فترة، وأخبره رئيس الأطباء القديم مصطفى چلبي أنه يعيش آخر أيام حياته[2]. وفي ما تقدم نموذج عن قلب الحقائق الواضحة وضوح الشمس.

لقد كتب يحيى كمال لسـليم الثاني قصيدة على بحر الغزل "غزل لسـليم الثاني" ويقصد السليمية في البيت الذي نورده:

يا كمال، هناك بيت شعر كتبه وجامع بناه ليمطر الله عفوه برائحة المسك على قبره[3]

(1) أحمد وفيق باشا، تفنيد التاريخ العثماني، إسطنبول، 1288هـ (1871م).

(2) السيلانيكي I، ص 98، الناقل: زينب طارم إرطوغ، مراسم الجلوس على العرش والجنازات في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، أنقرة 1999، منشورات وزارة الثقافة، ص 132.

(3) يحيى كمال، مع رياح الشعر القديم الطبعة الثانية، إسطنبول 1974، منشورات معهد يحيى كمال، ص 94.

سلطان السلاطين الذي لم يستطع قول لا: مراد الثالث (1595-1574)

افتح عينيك واستيقظ من رقاد الغفلة
استيقظا يا عينيّ الرقودتين استيقظا،
صدقا أن عزرائيل يقصد الروح،
استيقظا يا عينيّ الرقودتين استيقظا

مرادي (مراد الثالث)

يذكر التاريخ العثماني أن "مراد" الثالث قتل إخوته فور جلوسه على العرش، وأسس حرماً كثير النساء، ولكن من المفيد أن نعلم أنه صاحب مكانة لا جدل حولها في ترسيخ الصيغة الكلاسيكية العثمانية للفن والثقافة. يمكننا القول إن أساس الثقافة الغنية قد وُضع في عهده، وبرعايته، وهو الذي حدد خطوطها الرئيسة. أنا واثق أن معرفتنا جوانب شخصيته المختلفة ستقوي قناعتنا هذه.

مراد الثالث مربوع القامة، وذو عينين دائريتي الشكل، ومقوس الحاجبين، وخرنوبي الشعر بحسب تاريخ صولاق زادة. ويوصف في مصادر أخرى بأنه مستدير الوجه، وصقري الأنف، ولوزي العينين الواسعتين، وصغير الفم، وفاتح البشرة، وأحمر الخدين، ومربوع القامة، وخرنوبي الشعر، وخفيف اللحية.

تلقى مراد الثالث عندما كان أميراً الدروس على يد شيخ الإسلام المؤرخ الشيخ سعد الدين أفندي، وهو ابن حسن جان نديم سليم الجبار الخاص، وتربى على يده.

من خصائصه الغريبة أنه نادراً ما خرجت لا من لسانه، وهذا مؤشر مهم يعكس شخصيته.



لوحة لفنان إسباني يصور فيها "مراد" الثالث في غاية الأناقة (القرن السابع عشر).

كان مراد الثالث ماهراً باستخدام السلاح وبالفروسية (كان فارساً فائقاً بحسب تعبير يحيى بستان زادة)[1]، وفي الوقت نفسه يصنع رؤوس السهام في أوقات فراغه.

حان وقت التعرف إلى أول السلاطين الخطاطين المهمين. يذكر مستقيم زادة في كتابه الذي يعرّف بالخطاطين والمعنون **تحف الخطاطين** أن "مراد" الثالث من الخطاطين الجيدين في خطوط الثلث والنسخ والتعليق (تقول المصادر إنه تلقى دروساً بخط النسخ والتعليق على يد الشيخ شوجا القسطاموني شيخ الطريقة الخلوتية)، وله لوحتان معلقتان على طرفي المحراب في أيا صوفيا إحداهما كتب بها الشهادتين، والأخرى آية. مع الأسف، إن هذه الأعمال مفقودة اليوم. الحمد لله أن لدينا لوحة تعليق جلي له في متحف فنون الخط للأوقاف التركية. وديوان المنير في مكتبة جامعة إسطنبول مكتوب بخطه. ولا بد في هذا المقام من الإشارة إلى أن مصطفى علي الغليبولي أهدى كتابه **مناقب المهرة** الذي يتحدث فيه عن الخطاطين والفنانين لمراد الثالث[2]. وهذا أحد الأدلة على اهتمامه بفن الخط والفنانين. والمعروف أنه صاحب ذائقة في فن التذهيب أيضاً[3].

اهتمام السلطان مراد الثالث بالفن والأدب وصل إلى مستوى لافتاً للأنظار. فقد كتب أربعة دواوين بالتركية والعربية والفارسية (حبذا لو نفهم مدى عظمة هذا الإنجاز!) وكتب رسالة مهمة بالتصوف عنوانها **فتوحات الصوم** (ولكن هذا العمل مفقود). غير هذا، وصلنا بأنه كتب عملاً بعنوان **أسرار الرسالة** الذي شرحه شمس الدين سيواسي أحد شيوخ ذلك الزمان.

ديوانه المكتوب بالتركية، واستخدم فيه الاسم الفني مرادي واحد من أكبر دواوين الشعر التركي الكلاسيكي. يضم ديوانه 1566 قصيدة على بحر الغزل. وإذا لم يصل إلى رقم جده القانوني بكتابة هذا النوع من القصائد، فقد اقترب

(1) يحيى أفندي بستان زادة، التاريخ الصافي/ تحفة الأحباب، إعداد نجدت صقا أوغلو، إسطنبول 1978 منشورات مليبت، ص 106.

(2) علي رضا أوزجان، مصدر سبق ذكره، ص 98، أوزصاين إر، مصدر سبق ذكره، ص 80.

(3) إلبر أورطايلي، إعادة اكتشاف العثمانيين، إسطنبول 2006، منشورات تيماس، ص 112.



اكتسب القلم قيمته العظيمة بفضل رعاية شيخ الطريقة القادرية. لماذا وجد جناب حضرة الشيخ الشرف في بغداد على طرف الصحراء. مرادي (مراد الثالث).

من ذاتي صاحب أحد الأرقام القياسية بالكتابة على بحر الغزل.

شرح الأدباء الكلاسيكيون بعض قصائد مراد الثالث. وقد طور ذائقته الشعرية إلى درجة أنه كان يردُّ على تقارير الصدر الأعظم نظماً. هاكم هذا المثال:

أخلص بتدقيق هذا الكتاب تحظَ بالأجر بالتأكيد
إذا وجد مراد هذا مناسبا طلبت هذا ليكون جميلا
مراد ملتزم بالعقد والعهد وفّق الله أهل الحل والعقد

وفي إحدى غزلياته يُسمع صراخ العاشق المُعاني من الهجران، الباحث عن حبيبته:

أرأيت حبي يا نسيم الصبا
قل لي هل رأيت روحي
هل رأيت كنعان يوسف

لا تقطع الخبر عن الكرم والبيت

هل رأيت الحبيب المؤنس

جبت العالم شرقاً وغربا

فهل رأيت مثل همي وحزني

أخبرني يا مرادي اليقين

هل رأيت دواء لدائي؟

نستدل من قفطانات مراد الثالث المعروضة في قصر طوب قابِ أن ذوقه رفيع جداً بالقماش. كان شغوفاً بارتداء الألبسة الفخمة، ومتعلقاً بشدة بالمجوهرات والحلي. كان يضع ريشاً ومجوهرات على لفّته لا تقدر بثمن.

ندرك سلامة ذوقه في ميدان تنسيق الحدائق من خلال أمره بزراعة السرو على سفوح أسوار الأناضول. غير هذا، فهو الذي فتح شاطئ البوسفور الزمردي للإعمار بالمعنى الحقيقي، أي إن مراد الثالث هو فاتح بوسفور العثمانيين الحقيقي.

ومن المعروف عنه أنه أحب الموسيقى والرقص، وجمع حوله الموسيقيين والراقصات والمهرجين والأقزام. (لنوضح هذه الحقيقة: كان الأقزام جزءاً لا يتجزأ من القصر).

أما حب مراد الثالث للكتاب فقد وصل إلى درجة مدهشة. يُفهم من الترجمات التي طلب إنجازها أنه كان محباً لقراءة الكتب، وخاصة التي تتناول حروب حكام عصره، وراغباً بمعرفة كل شيء حول تاريخ العالم. من بين تلك الأعمال كتاب **تاريخ الهند الغربية** لمحمد سعودي الذي طُبع في ما بعد في مطبعة متفرقة (هذا أول كتاب تركي - عثماني يكتب عن اكتشاف أمريكا)[1]، **وتاريخ ملوك فرنسا** الذي أعده أحمد بيك فريدون، وكتاب سيفي چلبي **الأسر**

(1) لم يتم التوقف كثيراً عند ترجمة هذا الكتاب بهدف التعريف بالقارة الأمريكية التي اكتشفها كولومبو بعد تسعين سنة من اكتشافها، وعلاقة هذه الترجمة بخرائط الريس بير. هناك استثناء واحد: توماس د. غودريتش "The Ottoman Turks and The New World" في عمله: "Wiesbaden 1990, Otto Harrasowitz".

المالكة في آسيا.

كان لدى حفيد القانوني الغريب هذا اهتمام بعلم النجوم والفلك إلى درجة سماحه لتقي الدين أفندي ببناء مرصد على سفح غلاطة، حتى إنه دفع في سبيل ذلك من جيبه تسعة آلاف ذهبية. كان يستمتع بالاجتماع مع العلماء. بقي المرصد يعمل سبع سنوات إلى أن هُدم عام 1580، وهذا لا علاقة له بتصاعد التعصب الديني في الدولة العثمانية كما يدعي البعض[1]. لم يكن طلب شيخ الإسلام في ذلك الوقت هدم المرصد لأنه يجري رصداً علمياً، بل لأنه اهتم أكثر بالخرافات. لا بد لنا من معرفة أن المراصد في تلك الأيام اهتمت بتحديد ساعات الحظ، واستنباط بعض الأحداث الدنيوية والتوقعات وما شابه ذلك من فعاليات غير علمية من وضع النجوم، وكانت تأخذها مأخذ الجد. (تاريخ هدم المرصد 4 ذي الحجة 22/ 987 كانون ثاني 1580)[2].

وصلنا بحسب الوثائق الواردة في المصادر أن لمراد الثالث اهتماماً خاصاً بالساعات، ومن كبار الساعاتية الذين عاشوا في عهده عالم الفلك الشهير تقي الدين أفندي، إضافة إلى المعلم حسن، وحسين بروانة، ورستم آغا[3].

تورد بعض المصادر أنه كان شغوفاً جداً بالنساء، وأن لديه مئة وولدين، وهذه معلومات خيالية بالتأكيد. نعرف أن 49 ولداً وُلِدوا له، ولم يعيشوا كلهم. ورواية أن سبع جاريات لديه وجدن حاملات بعد موته قريبة من المنطق[4].

ولادة أول توأم في القصر حدثت في حَرَمه، ومات التوأم الأميران جيهان غير وسليمان قبل أن يتمّا سنتهما الأولى.

يدعي مصطفى علي غليبولو في كتابه **كُنه الأخبار** أن الرشوة دخلت القصر

(1) Dimitri Kitsikis, "L'Empire ottoman", PUF, Paris, p. 88.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلو، وصول تقاليد العلم الإسلامي إلى القمة غوستري، العدد 212، تموز – آب 1999، ص 34–37. اليوم والشهر صحيحان، ولكن السنة الهجرية هي 1580 وليست 1573. وسبع السنوات فرق التاريخين كما ترون مدة طويلة ولا يمكن الاستهانة بها.

(3) أوغور كوغطاش، **الساعاتية في إسطنبول القديمة**، إلغي، العدد 103، شتاء 2002، ص 5.

(4) وحيد تشابوك، "تاريخ العثمانيين" المجلد الخامس، ص 91. هـ. أحمد قرق قلتش، "السلطان مراد الثالث"، إسطنبول 1988، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ص 15.

العثماني أول مرة في عهده. هذا الادعاء ناجم عن عداوة شخصية بين علي والوزير شمسي باشا المدعى أنه الراشي. لهذا ينبغي ألا يؤخذ الادعاء بأن شمسي باشا أقنع سلطان السلاطين بقبض أربعين ألف ذهبية رشوة مأخذ جد[1].

قلنا إن الثقافة العثمانية الكلاسيكية تأسست في عهد مراد الثالث. تقليد إحياء الليالي المباركة التي نسميها قناديل تعد من إنجازاته أيضاً. بدأ هذا التقليد بأمره إشعال القناديل في المساجد في ليالي الرغائب: أول ليلة جمعة من رجب، وليلة المولد، وليلة الإسراء والمعراج، وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان، وفي عيدي الفطر والأضحى[2]. غير هذا، من إنجازاته تنظيف قنوات جر المياه إلى مكة، وإنشاء مدرسة دينية ومطعم كبير للفقراء، ومدرسة، وزاوية في المدينة المنورة، وإنشاء مقام للشيخ يحيى أفندي في بشك طاش.

بالتأكيد هذا ما يُتوقع من سلطان كتب رسالة صوفية حول الصوم.

---

(1) لمعلومات أوسع انظروا إلى: مصطفى أرمغان، "الوجوه والأقنعة في التاريخ العثماني"، إسطنبول 2005، منشورات تيماش.

(2) هـ. أحمد قرق قلتش، **السلطان مراد الثالث**، إسطنبول 1988، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ص 15.

صانع الملاعق والحفار: محمد الثالث (1603-1595)

كثيراً ما انقطع عن الطعام والشراب لتأثره بسبب تمرد جلالي والوضع في فارس.

إسماعيل حقي أوزون تشارشلي

جلس محمد الثالث على العرش تسع سنوات، وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره. تصفه المصادر بأنه متوسط القامة، وخرنوبي الشعر واللحية، تقاسيم وجهه مريحة، وهو قريب من القلب. يُنتقد عموماً لأنه كان تحت تأثير والدته السلطانة صفية.

بُشِّر جده الأكبر القانوني بولادته أثناء إحدى الحملات، فقال ملمحاً لعلاقة مراد الثاني بالسلطان محمد الفاتح: "من كان مراداً من أجدادنا سمى ابنه محمداً، فليكن اسمه محمداً" وهكذا سمي "محمد".

كان السلطان محمد الثالث ماهراً بصنع الملاعق، ويطعّم مقابض بعضها باللؤلؤ والمرجان والياقوت والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة، والمعروف أن أعماله كانت تحظى بتقدير الحفارين[1].

وهناك من يقول إنه كان يصنع خواتم العاج التي يلبسها رماة السهام بإبهاماتهم. وبفضل هذا الفن، صار عضواً بأخوية صناع الخواتم. وانتساب سلطان إلى أخوية مهنية بسبب مهارته يُقدم لنا دليلاً مهماً على استمرار السلاطين بدعم الأخويات المهنية.

لم يكن محمد الثالث موسيقياً كوالده، ولكنه شجّع الموسيقى، وكانت لديه أذن موسيقية جيدة. ونعرف أن أحب المقامات إلى قلبه مقام سيكاه.

وصلنا أن الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنكلترا أرسلت أورغن هدية

(1) إسكندر بالا، سلاطين الكلام، التحف والديكور، العدد 50، كانون الثاني 1999، ص 68.



لوحة نصفية لمحمد الثالث في متحف وارسو الوطني في بولونيا، رسامها مجهول.

للسلطان محمد الثالث من أجل تطوير العلاقات مع الدولة العثمانية، وفتح مصدر رزق جديد لتجارها. ونعرف أيضاً أن المعلم المدعو دالام الذي كُلِّف بصناعة ذلك الأورغن الضخم قد جُلبَ إلى إسطنبول، وركّبه بنفسه، وبقي الأورغن فترة، واستُخدم في القصر. ويُخبرنا مصطفى صافي في كتابه المعنون زبدة التواريخ أنه صدر أمر بتحطيم ذلك الأورغن، في عهد أحمد الأول "بسبب وجود صور عليه".

يجب ألا تُدهشكم هذه الحادثة، لأنه وبحسب المعلومات التي أوردها

ستانلي مايس الذي كتب كتاباً حول هذا الأورغن، فقد أعلن المذهب التطهيري المسيحي حرباً على آلات الأورغن، وحاول استصدار تشريع قانوني يزيل هذه الآلات الموسيقية من دور العبادة. ورفض مجلس ممثلي الكنائس الأدنى قرار إزالة آلات الأورغن من دور العبادة بفارق صوت واحد فقط عام 1563. وخلال عدة سنوات تلت، فُك أكثر من مائة أورغن من دور العبادة، وبيعت أنابيبها المصنوعة من الرصاص والقصدير لصناع الأطباق الذين يستخدمون هذه المادة[1].

كانت الملكة إليزابيث الأولى تراسل والدة السلطان محمد الثالث، وتغني كل منهما خزانة الأخرى بالهدايا. وتخبرنا تلك الرسائل بأن الملكة سمعت مديحاً لمواد التجميل التي تستعملها نساء القصر العثماني، وطلبت نموذجاً منها، فأرسلت لها ماء لتنظيف الوجه، ومراهم مغذية[2].

تذكر بعض الكتب أن "محمد" الثالث كان يكتب شعراً متوسط السوية، وميالاً إلى التصوف، ويستخدم الاسم الفني "عدلي" أو "عدني" مثل بيازيد الثاني. يعبر هذان البيتان اللذان يتوسل فيهما إلى الله عن هذا المعنى:

أسرني الحبيب بسلاسل سالفيه

أتمنى من الله ألا يعتقني من هذا الأسر

ألهبني هم هجران الحبيب وأعياني

خلقني الله كي أتلوى بهموم كالنار

(1) ستالي مايس، **أورغن السلطان**، ترجمة: م. حليم سباتار، إسطنبول 2000، منشورات إلتشم/ التواصل. وقد نُشرت ترجمة جزء من كتاب مايس خلال السنوات السابقة. انظر إلى: **الأورغن الذي أهدته الملكة إليزابيث الأولى لمحمد الثالث**، ترجمة: بدرية شاندا، مجلة الحياة تاريخ، العدد 10، تموز 1968، ص 72. وللاطلاع على تقييم خاص للكتاب انظروا إلى: مصطفى أرمغان، **العثمانية آخر جزر الإنسانية** إسطنبول 2006، منشورات كتب أفق، ص 256-258.

(2) للاطلاع على رسائل إليزابيث الأولى للسلطانة صفية، وطلب الملكة مواد تجميل من إسطنبول، انظروا إلى: جيرالد ماكلين، Introduction: Re – Orieting the Renaissance، تحرير جيرالد ماكلين، "Re – Orienting the Renaissance: Cultural Exchanges with the East" نيويورك 2005، Palgrave – McMilan، ص 16-17.

أما بالنسبة إلى تديّنه فقد كان محمد الثالث محافظاً على الصلوات الخمس جماعة، وشديد الاحترام لسيدنا محمد ﷺ، واعتاد على النهوض كلما ذُكر اسمه[1]. يقول آخر المؤرخين العثمانيين الرسميين عبد الرحمن شرف بيك: "كان عابداً وزاهداً، وحسن الطباع".

(1) أوزون تشارشلي، مصدر سبق ذكره، المجلد الثالث، ص 115.

سيمفونية للحصان: أحمد الأول
(1617-1603)

يروى أن ألبسته كانت بسيطة جداً، وكان يفضّل النسيج الخشن ويتحلى بأخلاق الدراويش.

زيا نور أقصون

دخلت الدولة العثمانية القرن الرابع عشر بعهد عثمان غازي محلقة بجناحين. أنجز السلطان بيازيد الصاعقة العبور إلى القرن الخامس عشر، وخطت الدولة العثمانية نحو القرن السادس عشر خطوة أخرى مع بيازيد آخر، أما الحاكم الذي حملها نحو القرن السابع عشر فهو محمد الثالث. ولكننا نرى توقيع أحمد الأول بصفته أصغر حاكم جلس على العرش بعد وفاة محمد الثالث في السنة الثانية من ذلك القرن أكثر من طبع القرن السابع عشر بأثره. وحافظ على لقب أصغر من جلس على العرش حتى جلوس حفيده محمد الرابع الذي جلس في السابعة من عمره. (إذا أردنا المتابعة فإن الدولة العثمانية دخلت القرن الثامن عشر بمصطفى الثاني، والتاسع عشر بسليم الثالث، والقرن العشرين - أقصر القرون - بعبد الحميد الثاني).

يكاد يكون حظ السلطان أحمد الأول قد ارتبط بالرقم 14. فقد جلس على العرش في الرابعة عشرة من عمره، وهو السلطان العثماني الرابع عشر، واستمرت مدة حكمه أربع عشرة سنة. أما عندما توفي فقد كان بعمر يبلغ ضعف الرقم 14، أي في الثامنة والعشرين. غير هذا، فقد جلس على العرش سنة 1014 هجرية، وبعد أن نام طريح فراش المرض 14 يوماً، توفي يوم الأربعاء في 14 تشرين الثاني 1617. بحسب ألدرسون فقد توفي بالحمى الثيفية، ويرى شيهصوار أوغلو أنه مات "بآلام معدة وأمعاء مزمنة وفظيعة"[1]. وهو أول سلطان عثماني

(1) بديع ن. شيهصوار أوغلو، بحث في نهايات السلاطين العثمانيين وأسباب وفاتهم من منظور تاريخ

ختن بعد جلوسه على العرش[1].

كان أحمد الأول هاوياً للعب النبّوت. ويعرف عنه أنه كان يخرج إلى الصيد أحياناً في بورصة وأدرنة إضافة إلى المناطق القريبة من إسطنبول. ولكنه كان متعلقاً بما يرافق الصيد أكثر من الصيد نفسه. وكان يحب نزهة القارب عبر نهر طونا في أدرنة بصحبة أولاده.

كثيراً ما كان أحمد الأول ينظم رحلات صيد في أدرنة وإسطنبول. بحسب ما ورد في تاريخ نعيمة فقد جلب زورقاً خاصاً من إسطنبول لتلبية رغبته بالخروج من القصر إلى ساحة الصيد عبر النهر. وبحسب سجل دفتر المهمات رقم 80 فإن أحمد الأول كان يرفض دخول الغرباء إلى ساحة الصيد التي يمارس فيها هوايته. لأن الداخلين من الخارج يخفضون مكانة السلطان من جهة، ويقللون عدد طرائد الصيد من جهة أخرى. وقد منع سفراء البندقية وإنكلترا وفرنسا وهولندا من الصيد في كاغتهانة وكمرلر بموجب قرار[2].

وصل حب السلطان أحمد الأول للخيول إلى الذروة، وأراد أن يقرأ بعض الكتب حول هذا الموضوع، فطلب ترجمة كتاب حول الخيل عن العربية. ثمة 164 منمنمة عثمانية في ذلك المخطوط الموجود في مكتبة متحف طوب قابِ، والذي يُقسم إلى فصول عن البيطرة، ورعاية الخيل، وتدريبها، والصيد[3]. وسنقرأ لاحقاً عن أصداء حبه القوي للخيل لدى ابنيه عثمان الثاني ومراد الرابع.

كان قوي البنية وماهراً باستخدام السلاح. رمى ذات مرة ششبري (صولجان حديدي بستة أفاريز) من فوق برج ارتفاعه 30 متراً إلى مسافة 500 متر، ونُصِبَت

الطب. مؤتمر التاريخ التركي الخامس (أنقرة 12-17 نيسان 1956)، "تبليغات السلطان للمؤتمر" أنقرة 1960، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 399.

(1) نظمي سفغن، الحاكم الذي خُتن بعد جلوسه على العرش: أحمد الأول، عالم التاريخ، العدد 14 تشرين الأول 1950، منشورات مجمع التاريخ التركي.

(2) رسوخي بايقرة، منع الأجانب من الصيد في عهد السلطان أحمد الأول عالم التاريخ، العدد 7، 15 حزيران 1950، ص 600-601.

(3) الشيخ محمد قاضي زادة، الكتاب المقبول: الخيل بنظر أجدادنا إعداد طاهر غالب سراطلي، إسطنبول/ بلا تاريخ، ص 52، متين أتد، الحصان عند الأتراك القدماء سكاي لايف، 10/ 2003، ص 120 (نص إنكليزي مواز).



أحمد الأول بالنسبة لرسام غربي.

شاخصة حجرية حيث سقط الششبري.

ويُعرف من حجر الشاخصة المكتوب اسمه عليها، والمؤرخة 1015هـ أنه كان يتدرب على رماية النبال أمام قصر داوود باشا[1]. خاصته الثانية هي انتسابه إلى أخوية صانعي الأقواس لأنه كان يصنع خواتم عاجية للرماة. ويشار كدليل على مهارته في الرماية أنه أطلق سهماً عن سور إسطنبول، فقطع فراسخ[2].

لا تتساءلوا كيف تمكّن من كل هذا في هذا العمر، لأنني سأعرّج على ميزة أخرى من مميزات أحمد الأول، الذي كان أيضاً صانع ملاعق مثل والده محمد الثالث.

(1) قايا ألب، مصدر سبق ذكره، ص 73.

(2) نجدت صقا أوغلو، أحمد الأول/ موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، المجلد الأول، إسطنبول 1993، ص 108.

وبالمناسبة، يمكننا في هذا المقام ذكر أنه كان ماهراً بصنع السياط الشركسية التي يهديها لمن يريد أن يقدره من رجال الدولة.

كتب السلطان الشاب شعراً، وكان جيداً. وقد استخدم الاسم الفني بختي على الأغلب، وله ديوان صغير باسمه[1]. (يساوي اسم بختي في حساب الجمل 1012، وهو تاريخ جلوس أحمد الأول على العرش). ولكن، نظراً لكثرة المشاكل الداخلية والخارجية التي شهدها عهده، من الطبيعي أن يكون اهتمام أحمد الأول بالشعر مجرد نزوة، وألا يكون كبيراً"[2]. ولُحنت بعض قصائده مثل القصيدة الدينية التي مطلعها:

ليُملأ القلب بالنور نور ذكر الله
لتعمر ديار القلب ومعمارها ذكر الله

(يقول سعد الدين نزهت إرغون إن عازف الناي عثمان أفندي لحّن هذه القصيدة بأسلوب دو يك) وقد طبع ديوانه مع تحليل له بالأحرف اللاتينية[3]. وهناك بين قصائده بعض النماذج التي تناولت البطولات كما في هذا المثال:

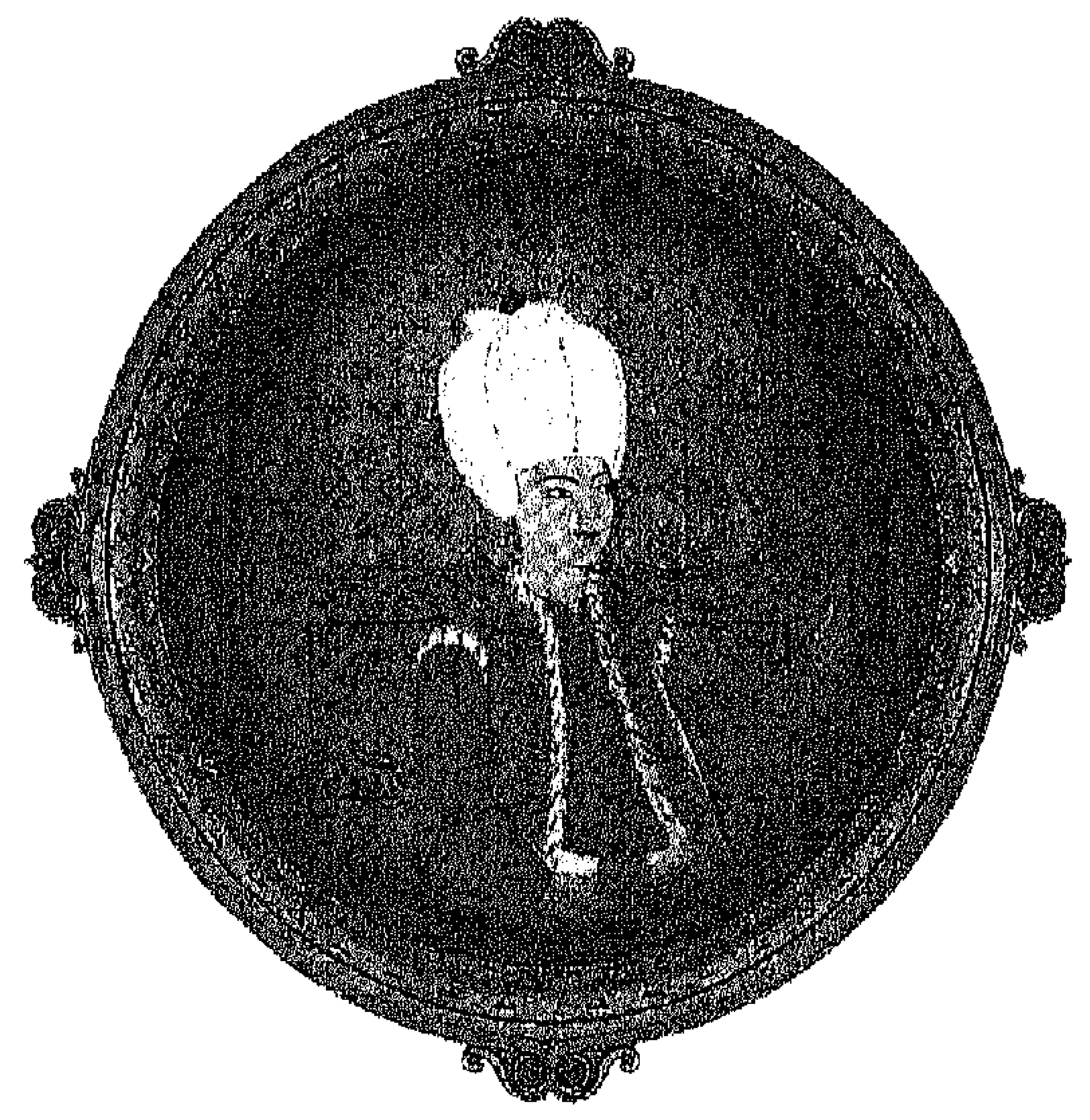
يا ضاربي الكفرة بالسيف بعظمة
أستودعكم الجبار من روحي وقلبي
أهديكم سلامي ودعائي بأن يجعل
العدو يائساً لا يستطيع إيذاءكم
احذروا إخراج اسم الله من قلوبكم

(1) مجتبى إلغورَل، أحمد الأول الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد الثاني، إسطنبول 1989، ص 32.

(2) بختي أحمد الأول، موسوعة اللغة التركية وآدابها، المجلد الأول، إسطنبول 1977، منشورات درغاه، ص 298.

قايا ألب، مصدر سبق ذكره.

(3) قايا ألب، مصدر سبق ذكره.



منمنمة تُظهر السلطان الفتى أحمد الأول ولم تُخط شارباه بعد عندما جلس على العرش وهو في الرابعة عشرة من عمره، وتعبر عن حقيقة السلطان أحمد. حبذا لو رأينا رسماً للفاتح دون لحية وشاربين.

في الحرب، واطلبوا العفو من الغفار
أتمنى من الله أن يأتيكم الملك مهزوما
متوسلاً تسليمكم المدينة والأسوار
يا أحمد ادع للمجاهدين بالخير دائماً
إن كنت تريد الهدى أن يكون معينا

يعتبر من أكثر السلاطين حساسية نحو القضايا الدينية. اعتبر رؤيته أثر قدم سيدنا الرسول ﷺ في حلمه تحذيراً، فأعاد سلطان المماليك قيتباي بعد عزله، ولكنه أمر برسم أثر القدم تحت ريشة اللفة وفي وسطها مئذنة زرقاء، وكتب المقطع الشهير، وأرسله إلى الشيخ عزيز محمود هدائي الذي يحبه ويحترمه كثيراً. يقول في ذلك المقطع:

يا ليتني حملت على رأسي دائماً
أثر قدم سلطان الأنبياء تاجا
أثر القدم ذاك وردة حديقة النبوة
هيا يا أحمد، امسح وجهك بها

كان السلطان أحمد الأول يضع تلك الريشة تبركاً في مراسم أيام الجمعة والأعياد، وقد خصص خزينة منفصلة لليتامى، وقدم التبرعات من تلك الخزينة.

مساعداته للحرمين الشريفين وحدها تشكل موضوع بحث. فقد أرسل ثلاثة قناديل مرصعة بالأحجار الكريمة إلى الحرمين عام 1610 ليُعلق اثنان منهما في الكعبة المشرفة، والثالث في الروضة المطهرة في المدينة المنورة. وأهدى الروضة المطهرة ألماستين بقيمة ثمانين ألف ذهبية لتوضعا "كوكب الدرة" الذي يبرق مقابل قبر سيدنا الرسول ﷺ. وأرسل شبكاً فضياً مُغطساً بماء الذهب ليوضع حول لحد قبر سيدنا الرسول، واستجلب الشبكة القديمة لتوضع حول قبره تبركاً[1].

وقد بنى جامع السلطان أحمد ليكون نفحة من روح خالدة لإسطنبول، وكان مرتبطاً بالشيخ عزيز محمود، أي إنه بالنتيجة درويش. وهذا سبب ارتدائه ملابس في غاية البساطة. وتفيد الروايات أنه كان يمسك إبريق الوضوء لشيخه، ويسير خلفه تعبيراً عن احترامه الكبير له. وندرك أنه مرتبط بالمولوية من خلال البيت التالي الذي ينهي فيه قصيدة على بحر الغزل[2]:

يا بختي! كن خادماً في تكية مولانا
لأنه سلطان عرش سلطنة الدنيا المعنوي

(1) محمد الأمين المكي، خدمات سلاطين العثمانيين للحرمين، ص 54.
(2) الناقل: حسن ألاكسة، الحكام المتصوفون، إسطنبول 2004، منشورات أوكول، ص 159.

السلطان العازب: مصطفى الأول
(1622/1623–1617/1618)

السلطان مصطفى مجذوب لله وهو سلطان درويش، ولإهماله شؤون الدنيا خبا بريق نجم الدولة...

شيخ الإسلام يحيى أفندي

حياةُ كل من السلاطين العثمانيين الأربعة الذين أنا سميّهم أغرب من الأخرى. أُطلق على مصطفى الأول في كتب تاريخ مرحلة الجمهورية لقب المجنون، وبهذا اللقب تذكره الكتب القديمة أيضاً، ولكن سدادة قمقم أسراره لم تُفتح بعد، ويجب أن تُبحث شخصيته بعناية أكبر.

السلطان مصطفى الأول بحسب المصادر وسيم الوجه، وخفيف اللحية، وواسع العينين السوداوين، وخابي النظرات. كما أنه ضعيف، وضئيل القدّ، وشاحب، ومهموم. كانت تقاسيم وجهه الجميلة تعطيه شكلاً وسيماً، وكانت نظرته بريئة كنظرة طفل صغير.

تقول بعض المصادر إنه مريض عقلياً، أي إنه مجنون، وتقول أخرى إنه مجذوب. ويقول مؤرخ ذلك العصر نعيمة إنه ترك تاجه وعرشه وهو سلطان سلاطين، ولحق الدروشة.

الخاصية الأخرى لمصطفى الثاني أنه اشتهر بين الناس بلقب الولي. يكتب أنور بهنان شابوليو أنه منتسب إلى الطريقة الخلوتية.

وهو السلطان العثماني الوحيد الذي لا يُعرف اسم أمه على الرغم من جلوسه مرتين على العرش. ولا يعرف سبب هذا بالضبط. وفي مقالة نُشرت في الفترة الأخيرة يُشار إلى احتمال أن تكون والدته السلطانة حليمة اعتماداً على مخطوط[1].

(1) غونهان بوركتشي، عائلة مالكة على عتبة الانقراض: محمد الثالث، أحمد الأول، مصطفى الأول،

ولكنني أعتقد أن أكثر صفة لازمته هي عدم سماحه للنساء بالاقتراب منه. لهذا السبب عاش ومات عازباً وسط كل ذلك العدد من الجواري في حرم القصر. بمقولة أخرى، لم يمد يده إلى أي امرأة، لذلك لم يُخلّف. هذا الجانب فقط يكفي لجعله غريباً. (سنرى لاحقاً أن الحفيد عثمان الثالث ورث طبعه).

هناك من يتحدث عن رميه الذهب للأسماك في بركة القصر، ونثره النقود يميناً ويساراً. ولكن يجب عدم تجاوز نميمة الحرم. كتب البعض عن ملئه البركة المكشوفة بالحليب، واغتسال الجواري بها. ولكن يبدو أن أولئك لم يحسبوا كم طناً من الحليب يحتاج ملء بركة ضخمة، وأن حمام الحليب كان ميزة بعض أفراد النخبة[1].

والأزمة السياسية العثمانية في القرن السابع عشر الديوان: مجلة الدراسات بين حالات الانضباط، العدد 26، 1/ 2009، ص 58، والهامش 28. يقول الكاتب إن مصدر هذه المعلومة التي وجدها هي سلالة نامة مخطوطة ومسجلة في المكتبة الوطنية تحت رقم "MS 06 Hk 11/3".

(1) انظروا إلى: أورطايلي، الحياة في القصر العثماني.

الحاكم المعاد إليه شبابه: عثمان الثاني (1622-1618)

كان فارساً خارقاً وماهراً باستخدام الأسلحة ولا مثيل له بالشجاعة والفروسية. كما كان محبب الوجه ولطيف الملامح، وحسن الطباع.

نعيمة

يسمى عثمان الثاني عموماً عثمان الفتى، ويعود هذا اللقب لإعادة الشباب إليه بعد أن اعتبره أنصار تركيا الفتاة (الأتراك الشباب) ملهماً تاريخياً لهم بعد إعلان المشروطية عام 1908.

يُذكر في التاريخ العثماني باسم "السلطان عثمان الثاني". جلوسه على العرش في مقتبل العمر، ومقتله بشكل غامض وسيئ جداً بعد أربع سنوات من جلوسه شكّلا حول اسمه هالة أسطورية. أراد أن يفعل الكثير، ولكن الإمكانيات لم تسمح له بأن يفعل شيئاً، لهذا أعطى لنفسه صورة سلطان السلاطين الإصلاحي، (وحتى الثوري).

على الرغم من وجود جانب حقيقي في هذه الصورة، ولكن وثائق عهده لا تثبت صحة الادعاء القومي التركي بأنه "أراد أن يذهب إلى الأناضول، ويشكل جيشاً جديداً من الأتراك، ويعيد فتح إسطنبول، ويكسر هيمنة الإنكشاريين والمحوّلين دينياً". كان عازماً على تشكيل جيش جديد من التركمان والعرب والأكراد، ومع الأسف جزء "العرب والأكراد" ما زال محظوراً في عقلية التأريخ القومي لدينا.

المعلومات التي تفيد أنه أراد أن يحدّث ألبسة الجيش، ويستبدلها بألبسة مريحة تمكّن الجنود من الحركة براحة أكبر بدلاً من الألبسة الواسعة والطويلة صحيحة. ولكن الذي ما زال محافظاً على غموضه حتى الآن هو ما إذا كان



الجو غائم جزئياً. السلطان الشاب في نزهة على حصانه الرمادي المحبب، وقد وضع على رأسه ريشتين وارتدى قفطاناً ووضع زينة فخمة.

هذا القرار قد تبلور بتأثير خارجي، أم نتيجة حاجة داخلية.

خرق عثمان الثاني التقليد الذي بدأ في عهد الفاتح بالزواج من جواري القصر، وتزوج من عُقَيْلَة ابنة شيخ الإسلام أسعد أفندي، وهذا الأمر يمثّل في الحقيقة ثورة في موضوع الحرم. ونعرف أن هذا القرار لاقى معارضة حتى من الحمي، ويُفسر الأمر بأنه عدم الرغبة بدخول امرأة حرّة إلى حرم يضم الجواري والإماء.

كان عثمان الثاني وسيم الوجه، وممشوق القد بحسب المصادر. ويعرف عنه أنه تلقى في القصر دروساً في العربية والفارسية والإيطالية واليونانية والتاريخ والجغرافية.

اهتم عثمان الثاني منذ طفولته بالسروج، وكان يصنع سروجَ خيوله التي يمتطيها عموماً. ومن أقسى سخريات القدر بالنسبة إليه أنه وُضع على حصان دون سرج حين وقع بيد الإنكشاريين واقتادوه من أجل قتله[1]. لا يمكن قبول قتل سلطان سلاطين بهذه الطريقة الفظيعة. ولكن يجب ألا ننسى أن فتوته وجهله السياسي كانا سبباً بموته الذي دارت حوله الكثير من الأساطير، أو على الأقل حضّرا الأرضية المناسبة للذين كانوا يحضّرون للانقلاب.

تُبرز المراجع بشكل خاص أنه "مشاكس بالفطرة، وحاد ومتسرع بتنفيذ قراراته"[2]. ونستدل على شغف عثمان الثاني بالخيل من صناعته لسروجها. ولا يقارن أحد من أفراد الأسرة العثمانية المالكة بحبه للخيل سوى أخيه الأصغر مراد الرابع.

تعلّم الفروسية من أمير الإسطبل جنيد حبيل. ومن المعروف أنه كلّف المعماري سنان ببناء مزار خاص لحصانه المسمى: "سيسلي قِرْ/ الرمادي الضبابي" الذي يحبه كثيراً في حديقة قصر الصفصاف، وقد نُظفت آخر آثاره في أواخر القرن التاسع عشر. ويروى أنه أمر بنصب شاهدة قبر ارتفاعها 96 سم، وعرضها 62 سم فوق رأس الحصان الذي حزن حزناً شديداً على موته. كان إبراهيم حقي قونيالي آخر من رأى شاهدة القبر تلك التي تحمل تاريخ سنة 1619، وأخذ لها صورة وإن كانت بعض كتابتها ممسوحة، ونشرت في مجلة مجلس التاريخ العثماني[3].

عبّر عن حبه للخيل في شعره باستخدامه الاسم الفني "فارس". النسخة الوحيدة من ديوانه المكتوب بالتركية مودعة بين كتب جناح إيروان في قصر

(1) بالا، مصدر سبق ذكره، ص 68.

(2) مدحت سرت أوغلو، قاموس تاريخ العثمانيين، إسطنبول 1986، منشورات دار أندروم، ص 256.

(3) طبعت صورة تلك الكتابة المفقودة اليوم في عدد الأول من أيار 1341 من مجلة مجلس التاريخ العثماني. انظروا إلى: إسماعيل حقي ضانيشمند، "الحقائق التاريخية"، المجلد الأول، إسطنبول 1979، منشورات ترجمان للتاريخ والثقافة، ص 50–51. غير هذا، انظروا إلى: نجلا باشا أوغلو، "حب الحصان جعل السلطان عثمان الشاب يأمر ببناء قبر له في القصر"، الثقافة، العدد: 7، صيف 2007، ص 123–124. وكذلك الأمر يحكى عن مزار ذي قبة مرفوعة على ستة أعمدة رخامية ومكشوف من الجوانب في مقبرة قراجا أحمد، وكانت تدفن هناك خيول القصر القيّمة.

طوب قابِ برقم 741[1]. ونورد هنا نموذجاً من غزله الذي يشرح معاناة الباحث عن العشق:

كما ترين فقد وقع القلب بالتيه

كم عبرت لك عن عشقي يا سلطانتي

كوني تنهدي في الهجران يا فاتنتي

رمشك برج على جرح قاتل بصدري

وجهك زر وردة على غصن مياس

جعلني أرضخ لعبوديتك أنا السلطان

ماذا يقع لفارس إذا لم يحب جميلة

بكر، أوقعته بالحب في عصر الكهّان

يُعرف عثمان الثاني بمهاراته في ألعاب المصارعة والفروسية والصيد والنبوت ورمي الكرة الحديدية، والأكثر في استخدامه السلاح.

تشير المصادر إلى خاصية غريبة لديه لا تليق بالسلاطين: البخل. ويُذكر أنه خطاط، ولكن ليس ثمة معلومات كثيرة في هذا الموضوع[2].

كان السلطان عثمان الثاني يرتدي ثياباً مشابهة لما يرتديه أي فرد من الطبقة الغنية في حياته اليومية، لهذا لقبه الناس "عثمان تشلبي"[3].

(1) أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد الثالث، ص 586.

(2) إسرا كسكين قلتش، **السلطان عثمان الثاني**، إسطنبول 1999، منشورات شولة، ص 53–54.

(3) **الشاعر العاشق والسلاطين**، ص 21.

تشلبي: لقب يطلق على الشخص الذي يرتدي ثياباً أنيقة من العامة... المترجم

حاد في الأزقة، ممتع الحديث في القصر: مراد الرابع (1640–1623)

كلّفَ مهتدياً حُراً بترجمة كتاب الأمير لميكيافيلي، وقرأه.

سافريدو

عندما يُذكر مراد الرابع تخطر ببالنا لوحة شخصية مهيبة لرجل في الأربعينيات من عمره احترق أصلها. ولكن "مراد" الرابع يدخل ضمن سلسة السلاطين اليافعين التي بدأت مع والده أحمد الأول، واستمرت مع أخيه عثمان الثاني. تصوروا أنه كان في الثامنة والعشرين فقط عندما مات. وتصوروا أيضاً أنه كان في الرابعة والعشرين عندما خرج في حملة إيروان، وفي السابعة والعشرين عندما خرج في حملة بغداد.

مراد الرابع متوسط القامة – وطويل بحسب بعض الروايات – وعريض المنكبين، وعريض العظام، وممتلئ الجسم، ولكنه سريع. شعره خرنوبي داكن، وعاقد الحاجبين، وأبيض البشرة، ووسيم، ومشرق الوجه، وذو أنف معقوف وكبير قليلاً، ولحيته سوداء تزيد من مهابتة[1]. يحدد هامر اللون الزيتوني لبشرته، ولا نعرف قصده من هذا اللون. ولكننا نعرف من خلال رواية أوسكار وايلد **صورة دوريان غراي** أن اللون الزيتوني كان يوصف به شاحبو الوجوه[2].

بالإضافة إلى معرفتنا بميل مراد الرابع إلى الأسلحة، إلا أنه كان صانع أقواس ماهراً. وثمة روايات تفيد أنه كان مهتماً بالمدفعية، وقد أطلق المدفع

(1) أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد 3، ص 586. انظروا كذلك إلى: منير سيرَز، **السلطان مراد الرابع والدول الأوروبية**، مجلة الحياة تاريخ، العدد 12، كانون الأول 1975، ص 33.

(2) "كان يهتم بوجهها زيتوني اللون الطافح بالحيوية، ونظرتها المتعبة" أوسكار وايلد، **صورة دوريان غراي**، ترجمة صلاح الدين هيلاو، إسطنبول 1968، منشورات فارلك، ص 25.

بنفسه مرات عدة[1].

كان مصارعاً جيداً كأخيه الأكبر عثمان الثاني، وماهراً برمي الرمح والكرة الحديدية مثله. كان شهيراً بتسديده النبال بأقواس لا يستطيع أحد شدها. يُروى أنه ثقب بالحربة والنبل باب قصر طوب قابِ الحديدي (يقال إنه كان مصنوعاً من الفضة) والدرع المصنوع من جلد الكركدن الذي أرسله حاكم دولة مغول الهند (بابور) الشاه جيهان بين عدة هدايا سُلمت له في الموصل أثناء سفره في حملة بغداد، ويُقال إن هذا الدرع لا يخترقه الرصاص. وقد سقط السهم الذي أطلقه من قمة قلعة حلب بجوار حي سراج خانة. والرمح الذي أطلقه من حديقة البناء المركزي لجامعة إسطنبول اليوم سقط عند أسفل مئذنة جامع بيازيد، وأثبت مهارته برمي النبال في مناسبات عديدة.

يُعتبر مراد الرابع أحد أشهر لاعبي المِطراق (لعبة رياضية قديمة بالعصي الغليظة من الأمام). تشير المصادر إلى أنه كان يستخدم صولجاناً وزنه مائتا أوقية، وكان ماهراً باستخدام الأسلحة كالسيف والسكين العريض والسهم والحربة. تعلّم رمي النبال من أساتذة عصره عبد الرحمن أفندي حسام زادة، والحاج سليمان، وصولاق صاري[2].

اشتهر بفروسيته، ولكن شغفه بالخيل يحتاج إلى بحث مستقل. وفي راهشية الشاعر نفعي التي يتحدث فيها عن خيول مراد الرابع، يذكر أن لها أسماء مبتكرة مثل: الطيار، الصافي ذو الشعر، جلالي، ظلمة الشام، مجنون الجبل، مرجان، ريح الصبا[3].

كان يستطيع القفز من صهوة حصان إلى صهوة آخر أثناء عدوهما. (لا

(1) "كان يدخل بنفسه إلى المربض، ويسدد بالمدفع، ويحقق الإصابة بالعدو"، تاريخ بجوي، المجلد الثاني، الصفحة 442، الناقل: يلماظ أوزطونا، سلطان السلاطين في الدولة العثمانية، 4: فَهْمُ مكانة سلطان السلاطين لدى الأتراك والأوروبيين مجلة الحياة تاريخ، العدد 4، نيسان 1976، ص 11.

(2) وحيد تشبوك، **تاريخ العثمانيين العظيم من التأسيس حتى الجمهورية**، المجلد الخامس، إسطنبول، 1999، منشورات أمرة، ص 369.

(3) رشاد أكرم قوتشو، **السلطان مراد الرابع** دنيا التاريخ، العدد: 7، 15 تموز 1950، ص 269.

إلبر أورطايلي، **الحياة في القصر العثماني** إسطنبول 2008، منشورات يتك خزينة، ص 60.

بـد أن هـذا تدريـب خـاص بالقصر، لأننا سـنرى لاحقـاً أن الخليفة عبد المجيد كان يفعـل هـذا حيـن كان أميـراً) كان ثمـة ثلاثمائـة إلـى أربعمائـة دابـة ركوب جيدة، وأربعون إلى خمسين حصان سباق في إسطبل القصر. غير هذا، لديه تسع خيـول أصيلـة خاصة به. عند وفاته، أُخرجـت الخيول التي كان يحبها من الإسطبل الخاص، ورُبطت عليها السروج بالمقلوب، وسُيرت أمام الجنازة وفق التقاليد التركية القديمة.

كان مراد الرابع يعرف العربية والفارسـية، وكتب شـعراً كلاسـيكياً وشـعبياً بالاسم الفني "مرادي". (من المفيد القول إنه لم يكتفِ بكتابته الشعر الشعبي، بل ساهم بانتشار هذا النوع من الشعر، وبنشأة كبار شعرائه). ونعرف أن الشعراء كتبوا ردوداً على أشعاره.

ولكـن واقعـةً لا نعرفهـا وقعـت لديوانه، وفُقِد. أمّن السـلطان ديوانه البالغ 200 صفحـة لـدى وهبـي عثمان چلبي كي يكمـل نواقصه، وبموته فُقد الديوان. (يُـروى أن "مـراد" الرابـع هـو الذي أمر بحرق مدونـة القانون التي تتضمن مادة الفاتح حول قتل الأخ).

قصيدته التي يردّ فيها على حافظ أحمد باشا والتي يدعو فيها إلى السرعة بنجدة بغداد على الوزن والقافية نفسيهما شهيرة. الرجاء الانتباه: كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة عندما كتب هذه القصيدة:

أليس ثمة بطل ينجد بغداد يا حافظ؟
أليس لديك جند لتطلب النجدة منا؟
كنت أقول: القضاء على الأعداء فرض
ألم يبق مكان نصول فيه بخيلنا أمام العدو؟
لا أحد يجاريك بالكلام يا صديقي أعرف
ولكن أما بقي لحصانك مكان صولة؟

أمر ببناء أفخم جناحين في قصر طوب قابِ على شـرف حملتين كبيرتين نظمهما إلى الشرق: (إيروان: 1636)، (بغداد: 1639). وضم جناح بغداد بشكل

خاص "نماذج للفن التركي الأرقى في القرن السابع عشر"[1].

وقد أمر بإنشاء عدد من الآثار في طريق ذهابه وإيابه من حملتي إيروان وبغداد، ولهذا سمي نهر الفرات شمال إلاظِغ باسمه، أي "نهر مراد" (يشير مولتكة إلى هذا في رسائله بشكل خاص). حين وصل إلى أضنة ألقى ثمانية ممن خرجوا لاستقباله بأنفسهم في نهر سيحون عن الجسر الحجري الشهير من أجل تقديم عرض يعبرون فيه عن ظلم الوالي[2]. إثر ذلك قام بعزل الوالي جعفر بيك.

لا يمكن للإنسان ألا يُدهش من كثرة منجزاته في عمره القصير. على سبيل المثال، إن مساهمته بتطوير الموسيقى العثمانية كبيرة إلى درجة أنها تستحق بحثاً مستقلاً.

لقد دبت الحيوية بالموسيقى العثمانية وحققت قفزة كبيرة وانتشرت في عهده بعد أن وصلت إلى حالة من الجمود في أواخر القرن السادس عشر. عندما فتح تبريز، جلب معه اثني عشر موسيقياً (أشهرهم مصطفى آغا ششتاري) إلى إسطنبول، وأغنى مدرسة القصر بهم. يعتبر مراد الرابع أحد أهم كتاب فرقة المهتر العسكرية، وكتب كلمات أغانٍ ومقطوعات مختلفة. وقد وقّع بعض أغانيه باسم الشاه مراد.

قدّم يلماظ أوزطونا لائحة بكلمات خمس عشرة مقطوعة إحداها تلك التي تبدأ بشطر: "افتح عينيك واستيقظ من رقاد الغفلة" واحتل مكانة مهمة إلى اليوم في موسيقى التصوف. (تنسب هذه المقطوعة لمراد الثالث) وملحنها علي أفقي بيك الصنطوري. وكان مقام سيكا محبباً إليه بشكل خاص. ولمّا عرف الدرويش عمر وحدتي المطرب وأحد أهم ملحني القرن السابع أن "مراد" الرابع يحب مقام السيكا، لحّن أغانيه ومقطوعاته الموسيقية كلها على هذا المقام[3]. ونقل لنا

(1) زيا يلماظ إر، **مراد الرابع**، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 31، إسطنبول 2006، ص 182-183.

(2) قاسم إنر، **نظرة إلى سهل أضنا عبر التاريخ** الطبعة الرابعة، إسطنبول 1960، مطبعة باقصوي، ص 237-238؛ وحيد تشابوق، "التاريخ العثماني العظيم من التأسيس إلى الجمهورية"، ص 355.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد الثالث، أنقرة 1998، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 565.

معاصره أوليا چلبي أنه أدى كل ما قدّمه الدرويش عمر من أنواع المقطوعات الموسيقية. ويُعرف أن لديه أذناً موسيقية من تمييزه لصوت أوليا چلبي في جامع أيا صوفيا.

يتحدث أوليا چلبي الذي حضر بين مطربي السلطان ومصاحبيه طويلاً عن جلسات الأدب والموسيقى التي كانت تعقد في حضرته، ويروي أنه كان يعقد في أمسيات أيام الجمعة اجتماعات يحضرها العلماء والمشايخ والحفظة، وينتقل في أمسيات أيام السبت إلى أداء قصائد المدائح النبوية بمشاركة العازفين والمطربين.

كان مراد الرابع يرغب بمعرفة كل شيء؛ وخاصة في مجال التاريخ. ويظهر ذلك جلياً من خلال كثرة الكتب المترجمة في عهده، وقد ورد في الكتب أن "مراد" الرابع كان بطلاً شغوفاً لا يمكن التغلب عليه في الشطرنج والداما.

أما مهارته بالخط فمعروفة في خط التعليق الذي خطه بشكل جميل، وكان عبد الرحمن طولومجو زادة أحد تلاميذ الدرويش عبدي أستاذه في الخط. (صار هذا الرجل لاحقاً شيخ الإسلام)[1]. رغبته بالحصول على نماذج من الخط الجميل، وطلبه من الخطاطين مصاحف مكتوبة بخط جميل زادا من الاهتمام بهذا الفن في عهده. بعد التدقيق بالمصحف الذي طلبه من خطاط عصره الشهير محمد الإمام مقابل ألف ذهبية أصدر السلطان تعليقاً على عمله، فرد الخطاط رداً طريفاً أعجب "مراد" الرابع، فدفع له ألف ذهبية أخرى[2].

يُستدل على حب مراد الرابع للظرفاء من ضمّه أوليا چلبي عذب الحديث إلى مجلسه، وتقريبه إنجيلي چاويش المشهور بطرافته وروايته للنكات منه[3].

كان مراد الرابع أنيق الملبس، واختلف عن السلاطين الذين سبقوه بارتدائه ما يشبه لباس جنود البحرية. دخل إسطنبول عائداً من حملة إيروان مرتدياً الدرع،

(1) أوزون تشارشلي، مصدر سبق ذكره، ص 561.

(2) كمال تشغ، **الخطاط الذي دفع له مراد الرابع عن كتابة المصحف 1000 ذهبية** عالم التاريخ، العد 23، 15 نيسان 1951، ص 982.

(3) جمال قوطاي، **كيف أثر الحظر الأكثر دموية بإسطنبول؟** التاريخ يتكلم، العدد 18، تموز 1965، ص 1476.

وقد لف على خوذته لفة بيضاء وعليها ريشة ذات جوهرة سوداء. وعندما انطلق في حملة بغداد أيضاً وضع على خوذته ريشة، ولف شالاً أحمر، وأنزل نهاية الشال على كتفه كالطيلسان[1]. وعندما خرج بالحملة نفسها كان عبد الحميد شيخي أفندي حاملاً سيف سيدنا عمر بشكل لفت الأنظار[2]. وعندما عاد السلطان من بغداد كان مرتدياً الألبسة نفسها، ولكنه أضاف إليها فراء فارسياً[3].

تورد الكتب أن "محمد" چلبي بن حسن الأعمى نديم محمد الثالث كان يقدم عرضي خيال ظل في حضرة السلطان مراد الرابع أسبوعياً. وبحسب المعلومات التي يوردها أوليا چلبي فإن فرقتي سامورقاش وچلبي من بين الفرق التي كانت تقدم له العروض.

أخيراً، إن أكبر إصلاحات الكعبة تمت بأمر من مراد الرابع بين عامي 1629-1630[4].

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، ص 587.

(2) أحمد شمشيرغيل، "الجيش السلطاني على مشارف بغداد...: اليوم يوم الموت!" التاريخ والحضارة، العدد 48، آذار 1998، ص 25.

(3) وحيد تشابوق، مصدر سبق ذكره، ص 370.

(4) محمد الأمين المكي، **خدمات سلاطين العثمانيين للحرمين**، ص 55-56.

الكاهن والسلطان

عُرف مراد الرابع بحزمه وحكمه بالإعدام على خارقي قانون منع التدخين والمشروب والأفيون. ولكن، لا أحد يتحدث عن الحرب التي شنها ضد السحرة والمنجمين وضاربي الرمل. كان مراد الرابع يلاحق ممارسي هذا العمل بلا هوادة. وهناك قصة تحكى حول هذا الموضوع تناقض ما تقدم:

فقد اصطحب ذات يوم صيفي أحد رجاله من القصر وخرجا متنكرين. وعلى رأس كل منهما قبعة مخروطية، وعلى كتفيهما حيدرية بهيئة المولويين. ركبا في مركب عام من سيركجي إلى أسكدار. وسط البحر، غمز السلطان رجله المتنكر بهيئة درويش، فأخرج مشربه، وبدأ بحشوه بالتبغ. فبدأ ركاب المركب بالصراخ فوراً.

وكان في المركب مغربي ذاع صيته في إسطنبول بضرب الرمل والسحر. فقال: "لا ضرورة للهلع، السلطان نائم الآن في الحرم". عندئذ ارتاح الجميع مما صرح به. فسأله مراد الرابع: "كيف عرفت هذا؟". قال الساحر المغربي: "حسنٌ، حالك هذه تكشف أنك لست درويشاً". وأخرج من عبه ورقة وبدأ بضرب الرمل. ولكن بعد قليل صار شَعره ولحيته كالقنفذ، وبدأ يتلوى قائلاً: "الرحمة، مدد يا الله، السلطان فوق البحر، وهو قريب جداً." بالطبع خاف الجميع واجتاحتهم موجة من الارتجاف إثر هذه العبارة. بعدئذ، قال مراد الرابع ضاحكاً: "أيها الصفيق! كيف ستنقذ رأسك الآن؟" وأمر بحّارة المركب: "بالرجوع إلى إسطنبول فوراً!".

بينما كان البحارة هلعين خوفاً على أرواحهم، التفت مراد الرابع

إلى الساحر، وقال له: "في الحقيقة أدهشتني معرفتك بالضرب بالرمل إلى هذه الدرجة. أعفو عنك شرط. أن تعرف من أي باب سندخل إسطنبول؟".

قال المغربي مرتجفاً: "الفرمان فرمان السلطان". ونثر رمله، وكتب اسم الباب على ورقة، وطواها، وأعطاها للسلطان. دس مراد الورقة في زناره من دون أن يفتحها. وعندما وصلوا إلى أمام أسوار إسطنبول، لم يرسُ المركب أمام أي باب إلى أن وصلوا يدي قولة، وتابعوا المسير إلى ما يسمى اليوم رأس صاندق. ونظراً لعدم وجود باب للأسوار في تلك الجهة، نهض السلطان على قدميه في المركب، ونادى على الحرس بصوت مجلجل. عرّف بنفسه للحراس الذين هرعوا قادمين، وأمرهم بجلب الأدوات والعدة اللازمة ليُفتح هناك باب صغير يمكن أن يمر من خلاله إنسان. وبسرعة قصوى فتحوا في السور باباً.

ولكنه أصيب بالذهول بعد أن دخل، وضرب يده إلى زناره، وأخرج الورقة. فقد كُتب في الورقة: "سلطان سلاطيني، مبروك عليكم الباب الجديد الذي أمرتم بفتحه". إثر هذا، التفت إلى المغربي وقال له:

- عفوت عنك هذه المرة من أجل صحة معرفتك.

لقد أخذ حي "ينـي قابِ/ الباب الجديد" اليوم اسمه من هذه الحادثة[1].

---

(1) عالم التاريخ العدد 19، 15 كانون الثاني 1951، ص 805 و834.

ثماني سنوات في عهد السمور: السلطان إبراهيم (1648-1640)

دامت مدة جلوسه على العرش ثماني سنوات وتسعة أشهر، وعندما مات كان في الخامسة والثلاثين؛ وهو يشبه أخاه مراد الرابع بالبنية والملامح.

إسماعيل حقي أوزون تشارشلي

لُقِب السلطان إبراهيم في التاريخ العثماني من قِبل بعض المؤرخين الذين يدّعون المهارة والذين عاشوا في عهد المشروطية الثانية بالمجنون، وخاصة مراد الميزانجي مستلهمين الاسم من كتاب روضة الأبرار لعدوه اللدود شيخ الإسلام عبد العزيز أفندي قرة چلبي زادة[1]. ونفهم من بحث المرحوم م. تشاغاطاي أولوتشاي الذي عمل كثيراً على هذا الموضوع، ونشره في مختلف المجلات تحت عنوان: "هل كان السلطان إبراهيم مجنوناً أم مريضاً؟" أنه لم يكن مجنوناً، بل كان مريضاً نفسياً.

وقّع السلطان إبراهيم على قرارات سياسية جدية مثل حصار كريت، وتوجد له 250 رسالة في أرشيف قصر طوب قابِ، وتعدُّ هذه الرسائل رقماً قياسياً بالرسائل المكتوبة بخط يد سلطان. وبقدر ما تضمنته الرسائل من شكاوى حول أسلوب المعالجة الذي يتبعه الأطباء، إلاّ أنها تضمنت تحذيرات خطيرة لرجال الدولة من قبيل: "إذا كان رأسك ضرورياً لك، فاعمل هكذا". وتضم هذه الرسائل نماذج لذكائه تُخْجِل الذين يصفونه بالمجنون"[2]. واستخدم في

(1) انظروا إلى: زيا نوري، **أحجية السلطان إبراهيم**، التاريخ يتكلم، العدد 57، تشرين الأول 1968، ص 3937.

(2) انظروا إلى: إبراهيم حقي قونيالي، **السلطان إبراهيم قصر للافتراء** عالم التاريخ، العدد 4، 1 حزيران 1950، ص 141.

رسائله تركية صافية، ولغة الحديث اليومي.

كان السلطان إبراهيم طويل القامة، وطويل الوجه، لون شعره ولحيته خرنوبي مائل إلى السواد. بحسب "تاريخ صولاق زادة" فقد كان رجل دولة منور الوجه، وذا عينين سوداوين واسعتين، ومربوع القامة، وأفطس الأنف[1]. كان يضج بالحيوية، ويتكلم بسرعة كبيرة.

يشبه وجهه وجه أخيه الأكبر مراد الرابع. يستعجل في كل شيء، ويتكلم بسرعة، وينتظر حدوث ما يسمعه فوراً. لا يعرف الحيطة أبداً. ولكنه كريم جداً[2].

ونعرف أن السلطان إبراهيم كان يُربي طيراً في السجن الذي عاش فيه عندما كان أميراً[3].

كان السلطان إبراهيم يصنع أهلّة مثل جده سليم الثاني لتركّب على العكاكيز، ويوزعها على الذاهبين لأداء فريضة الحج.

كان متعلقاً أكثر من المعتاد بالزينة والحياة الفاخرة وخاصة فراء السمور. لهذا السبب انتشر لبس فراء السمور في عهده، حتى إن المؤرخ أحمد رفيق يطلق على عهده اسم عهد السمور. ويعود سبب انتشار فراء السمور إلى زيادة برودة الطقس عما هو معتاد. يسمي المؤرخون الجغرافيون ذلك العهد العصر الجليدي الصغير.

كان السلطان إبراهيم معجباً بأداء فرقة تسمى فرقة العقيدة، ويتابعها باستمتاع. كان رئيس هذه الفرقة ممثلاً يدعى المصارع أيوب، وهو شاعر وكاتب ومثقف وطريف ومطرب جوال[4].

ورث حب الخيل عن والده، ويُروى أن فرسان رودس ضبطوا سفينة تحمل أفضل أنواع الخيول، ولجأوا بها إلى كريت، وأن هذا أحد أسباب حملة كريت. (من المؤكد أن السبب الحقيقي ليس هذا).

(1) تاريخ صولاق زادة، المجلد الثاني، ص 553.

(2) مدحت سرت أوغلو، معجم التاريخ العثماني، ص 258.

(3) كانت هناك عادة سجن ولي العهد في إحدى غرف القصر لكي لا يتمرد على السلطان... م.

(4) أحمد راسم، مصدر سبق ذكره، ص 66.

صياد لا يعرف الكلل: محمد الرابع
(1687-1648)

قال شيخ الإسلام أفندي ذات مرة: "الرجاء أن تتركوا الصيد عدة أيام يا سلطان سلاطيني وشرفوا القصر الجديد أو أحد القصور الشاطئية، وعودوا إلى متعتكم بعد أن تهدأ الشائعات".

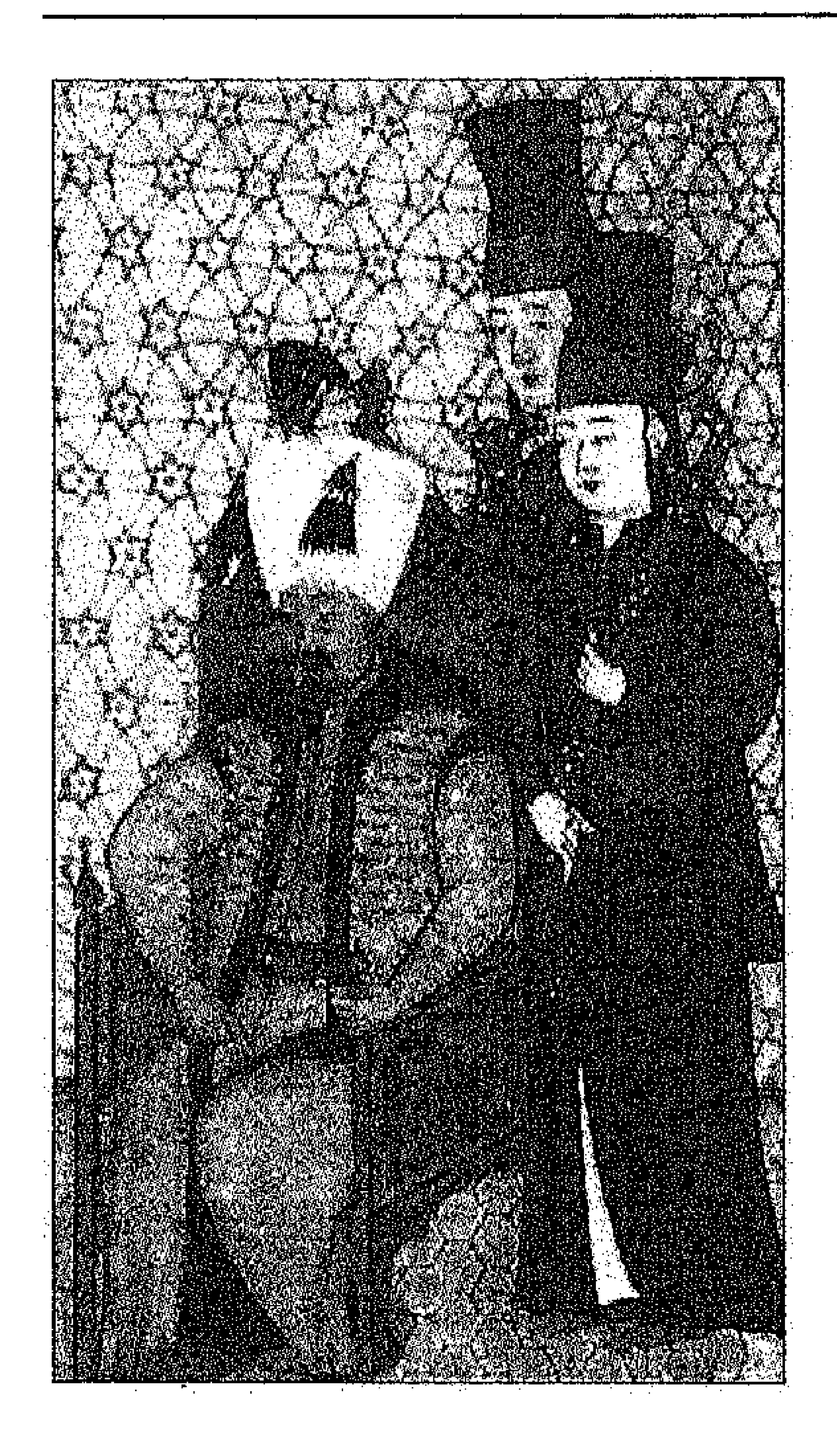
السلاح دار محمد آغا

جلس محمد الرابع 39 عاماً على العرش، وهي ثاني أطول فترة حكم لسلطان عثماني بعد القانوني، وقد جلس على رأس الدولة وهو في السابعة من عمره أي في سن الدخول إلى المدرسة اليوم. مارس الحكم في ظل أغوات الثكنات وجدته السلطانة كوسم ماهبيكر بداية، ثم أمسك بزمام القيادة، وسلم مقاليد الإدارة لعائلة كوبرولو.

كان متوسطَ القامة، وممتلئ الجسم، وأبيضَ البشرة، وملفوح الوجه المستدير الحنطي بالشمس، وخفيف اللحية، وأشهل العينين، وعريض الصدر.

الصيد أشهر هوايات محمد الرابع وبلواه، لهذا السبب لُقب الصياد. كان رجال القصر المهتمون بتربيته يعدّون له حفلات صيد خاصة منذ أن كان في التاسعة أو العاشرة من عمره، وحبّبوا إليه هذه الهواية. ويرد في التاريخ أنه أمر بإنشاء قصور خاصة لكلاب الصيد التي يحبها. وكان شغفه بالصيد هذا سببَ إسقاطه عن العرش.

كان أحمد الرابع يصطحب حبيبته السلطانة رابعة غولنوش إلى الحملات؛ وهذا استثناء لم يُسبق إليه، ويجول بها بعربة أو هودج من الفضة. ذات مرة، غاصت عربتها الفضية في الطين، فربطها الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا بفرسه، وأخرجها.



حراس محمد الصياد يحملون السلاح متأهبين أثناء جلوسه على العرش.

اضطر السلطان لترك بلية الصيد التي يحبها كثيراً في آخر سنوات عهده بسبب كثرة القيل والقال بين الناس.

شارك شخصياً بالحملة على جهرين التي تقع داخل حدود أوكرانيا اليوم. (هذا يثبت عدم صحة المعلومة التي تقول إن السلاطين العثمانيين لم يخرجوا على رأس الحملات بعد القانوني، فقد استمروا بالخروج في الحملات إلى تاريخ إسقاط مصطفى الثاني عن العرش بالقوة عام 1703) ها هو أنطوني غالاند يتحدث بالتفصيل عن العرض الرسمي العسكري المهيب عند انطلاقه في حملة جهرين، وعودته، ويكتب أن "محمد" الرابع خرج مع نموره التي يأخذها عادة إلى الصيد[1].

(1) أنطوني غالاند، مذكرات إسطنبول 1672-1673 إعداد تشارلز شيفر، المجلد الأول، ترجمة ناهد سري أوريك، الطبعة الثانية، أنقرة 1987، منشورات مجمع اللغة التركية، ص 124.



السلطان محمد الرابع مع والدته السلطانة خديجة طورهان (الرسام: أنطوني لاورينت كاستيلان).

ونعرف جرأته من خلال عدم اهتزازه عند تعرضه لقصف قراصنة البندقية بين سيراز وسيلانيك، وعبور عدة مقذوفات من فوق رأسه، ونعرف فروسيته من سرعته بالقفز على الأرض عندما سقط حصانه أثناء تسلقه قمة تسليا في جبال الأولمب. ولم يتراجع بعد سقوط الحصان عن المنحدر، وتابع التسلق مشياً، ووصل إلى القمة. ولكن جسمه كان محنياً قليلاً إلى الأمام لكثرة ركوبه الخيل[1].

كان شهيراً بقوته البدنية، وورد في السجلات أنه بقي عشرين ساعة على صهوة حصانه من دون تعب، بعد أن أنهك كل من كان معه[2].

يرد في المصادر أن مهنة محمد الرابع هي صناعة الأزرار، والمنطقي أكثر

(1) م. جاويد بايصون، محمد الرابع، الموسوعة الإسلامية، المجلد السابع، ص 556؛ آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 124.

(2) آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 126.

أن مهنته هي طرق المعادن[1].

استخدم محمد الرابع الاسم الفني وفائي في شعره، وكان شاعراً قوياً حظي فنّه بالاحترام. ونعرف أنه كتب كلمات الأناشيد العسكرية لفرقة المهتر.

تشير المصادر إلى أن أسيراً اسمه بوبوفي علّمه الموسيقى في قصر أدرنة[2]. وهو أول من رسم لوحة في قصر طوب قاب، ولكنه طرد من وظيفته بعد أن قُبض عليه ثملاً من دون أن يُعرف من أين حصل على الخمر.

أكثر طعام أحبه محمد الرابع هو كباب الحمام. وكانت تُجلب إلى المائدة اثنتا عشرة قطعة منه، وتُقدم بقية الأطعمة بعدها. الطعام الآخر الذي كان يحبه هو جبن ميلانو، وكان يؤمّنه سفير البندقية بشكل خاص للقصر.

تلقى أوّل دروس الموسيقى بعد جلوسه على العرش في السابعة من عمره، ثم استمر بها[3].

كان محباً للرسم. وتذكر المصادر أن رساماً أجنبياً يدعى فاجيو كان في القصر العثماني في عهده[4]. وشغفه بالموسيقى، يفسر سبب تواجد عدة جوارٍ يتقنّ الموسيقى في القصر. وقد حظي أستاذا الموسيقى العثمانية حافظ بوسط وعطري بخاري زادة بعطائه الكبير.

وهو الذي أصدر فرماناً بجلب ألماسة صانع الملاعق[5] التي وجدت في مزبلة أيري قابِ وإدخالها إلى الخزينة.

وأخيراً، ندرك من خلال شغف محمد الرابع بالصيد أنه ماهر جداً بالتصويب.

---

(1) سبب الالتباس الفرق بسيط بين "düğmeci/ صانع الأزرار" و"dövmeci/ طارق المعدن"... المترجم

(2) ماهر بانو، فن المنمنمات العثماني إسطنبول 2005، منشورات دار قابالجا، ص 20.

(3) چاغاطاي أولوچاي، الوجه الآخر لحياة الحرم في القصر العثماني، إسطنبول 1959، دار انقلاب للنشر، ص 36.

(4) إسماعيل حقي أوزن تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث/ 2، ص 570.

(5) أكبر ألماسة في العالم حتى الآن، موجودة حالياً في متحف قصر طوب قابِ، وسميت ألماسة صانع الملاعق لأن الروايات تقول إن فلاحاً وجدها، واستبدلها بعدة ملاعق خشبية (بثلاث ملاعق).. المترجم.

عندما يكون الزوج والزوجة شاعرين

يقال إن حضرة السيدة عفيفة كانت أحب نساء عائلة محمد الرابع إليه، ويتخاطب معها شعراً. يقول محمد الرابع على سبيل المثال:

تلبسين الأبيض فتشبهين الدر والياقوت

تلبسين الأسود فتتحولين إلى زنبق

تلبسين الأخضر فتغدين كأنك ببغاء

سامحيني عفيفتي، فأنت وردة نضرة

ترد السيدة عفيفة على مديحه الكبير بهذا النظم:

تلبس الأبيض فتشبه القمر يا سلطاني

تلبس الأسود فتصبح كالمقام المشرف

تلبس الأحمر فتغدو كأنك جوهر حر

يا سلطاني المهيب، أنت تشبه البحر

ولي العهد صاحب الرقم القياسي: سليمان الثاني (1691-1687)

إذا صدر أمر بقتلنا فقل، لأصلي ركعتين بعدها نفذ الأمر... الموت مرة أفضل من الموت كل يوم، ما هذا الخوف الذي نعيشه من أجل روح؟

سليمان الثاني

جلس سليمان الثاني على العرش بعد إسقاط شقيقه الأكبر محمد الرابع إثر هزيمة فيينا عام 1683. كان سليمان الثاني حينئذ في السادسة والأربعين من عمره. جلس على العرش آملاً بإيقاف التدهور، وفي نهاية فترة حكم قصيرة لم تتوقف فيها الحروب خرج في حملة وهو لا يستطيع الوقوف على قدميه، وعندما وصل إلى أدرنة على نقّالة، كان جسمه منتفخاً، ولم يستطع النهوض مجدداً، ومات هناك، ونُقلت جثته إلى إسطنبول مغطاة بالثلج، ودُفن في تربةِ سميّه وجده السلطان سليمان القانوني المجاورة لجامع السليمانية. من تجليات القدر أن يظهر سلطانان يحملان اسم سليمان، وأن يموتا كلاهما في حملة، ويدفنان في التربة نفسها.

يصف تاريخ السلاح دار واسمه الأصلي نصرة نامة سليمان الثاني بهذه الخصائص: مربوع القامة، ومفلطح الصدر، وبهيّ الشكل والمظهر. أبيض الوجه المستدير، وأسود العينين، وصقري الأنف. لحيته سوداء وخشنة يخضبها الشيب، كما أنه بدين وضخم الجسم، ووقور الوجه ومهيب.

كان يرتدي ثوباً أحمر مفتوحاً من الأمام عندما جلس على العرش، وفي

قدميه (طوماق)[1]. (الطوماق بالعثمانية اسم لعبة، وحذاء يلبس داخل الجزمة)[2] وجاء في **تاريخ السلاح دار**: "كان حسن اللباس واللفة". ونستنتج مما قيل أنه وسيم وصاحب ذائقة رفيعة باللباس.

كان سلطاناً مهماً عذب الحديث، وحسن الأخلاق، وجيد المعاملة مع الجميع، كما كان كريماً ومحباً للكرم، وصادقاً ومنطقياً، يحاول أن يكون عادلاً قدر المستطاع، ويسير على الصراط المستقيم، ولا يفوّت الصلوات والسنن. ينهض تأدباً عند ذكر اسم الله والرسول ﷺ أو مرور البردة النبوية من أمامه. لا يمنع شيئاً مادياً إذا طلب منه، ويعيش حياة الدراويش، وهو ورع إلى درجة الأولياء[3]. كان واثقاً من نفسه، وعلى خلق عظيم. ولكنه يتأثر بمن حوله.

هناك وثيقة تدل على انتسابه للطريقة الخلوتية. وينبغي أن يكون شيخه عثمان فاضل أطبازارلي.

الأمر الذي يستحق التقدير من كل النواحي هو تعيينه فاضل مصطفى باشا كوبرولو زادة نجم نجوم الدولة العثمانية في ذلك العصر في منصب الصدر الأعظم، وتسليم الإدارة للوزير العالم الحيوي القيّم الأمين. بكى بكاء شديداً حين وصله خبر هزيمة الجيش الذي أرسله إلى النمسا، وخسارته أراضيَ نتيجة تلك الحرب، وظهرت في عينه بقعة بيضاء نتيجة بكائه.

في الوقت نفسه، حقق السلطان سليمان الثاني رقماً قياسياً في الأسرة المالكة، فقد ضغط على أعصابه كثيراً في عهد سلطنة أخيه محمد الرابع ليبقى تسعاً وثلاثين سنة ولياً لعهد السلطان.

سليمان الثاني أحد السلاطين العثمانيين الذين لم يرزقوا بأولاد.

من المعروف أنه خطاط ماهر يكتب بخط جميل. وقد تلقى دروساً بالنسخ

(1) أحمد رفيق آلطن آي، **الذين أداروا الإمبراطورية العثمانية**، يديغون، العدد 106، 20 آذار 1935، ص 4-5.

(2) سرت أوغلو، **معجم التاريخ العثماني**، ص 260.

(3) محمد آغا سلاح دار، **تاريخ السلاح دار**: حياة القصر في القرن السابع عشر، إعداد: مصطفى نهاد أوزأون، إسطنبول 1947، منشورات دار عقبة، ص 153. غير هذا، انظروا إلى: آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 128-129.

والثلث من أحمد أفندي طوقاتلي. لا نعرف مدى صواب ما كتبه سليمان مستقيم زادة: "لا كلام على جمال خطه"[1].

سليمان الثاني أول سلطان يضع زخرفة زهرة بجانب الطغراء على الفرمانات، وغدت تلك الزخارف طرازاً من بعده. وقد ذهب عبد الحميد الأول أبعد من هذا، فقد وضع وردة على يمين الطغراء، وخزامى على يسارها[2].

(1) بكطاش أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 292.

(2) "J. Deny"، الطغراء الموسوعة الإسلامية، الجزء 125، ص 9.

سلطان لم تطأ قدمه إسطنبول: أحمد الثاني (1695-1691)

كان السلطان أحمد الثاني حساساً، وغضوباً، ومحباً للشعر والموسيقى، وخطاطاً.

وحيد تشابون

ابن السلطان إبراهيم والسيدة خديجة معزز. إثر وفاة أخيه الأكبر سليمان الثاني في أدرنة، جلس السلطان أحمد الثاني على العرش نتيجة اتفاق الوزراء، أي بنوع من الانتخاب، وكان عمره وقتئذ 49 عاماً.

قُلد أحمد الثاني السيف في الجامع القديم في أدرنة. وقد اعتمر قبعة صوفية صغيرة عليها ريشة، وارتدى سترة فراء من دون كمين أثناء مراسم تقليد السيف، وكان قد ذهب إلى الجامع بموكب، وقلّده السيف شيخ الإسلام فيض الله أفندي، وجلس على العرش[1].

فترة حكمه مليئة بالآلام، لهذا السبب لم يأخذ مكاناً في التاريخ العثماني مثله مثل أخيه الأكبر. وقد بقيت معلوماتنا حول صفاته الشخصية ضئيلة.

كان الصدر الأعظم فاضل مصطفى باشا كوبرولو أحد الشهود الذين نقلوا لنا جوانبه الإيجابية. بحسب **تاريخ السلاح دار** فإن فاضل مصطفى باشا يعرّف السلطان أحمد الثاني بأنه زاهد وتقي، وإنسان كامل لديه مهارات بمختلف الفنون.

كان أحمد الثاني هزيل البنية وحساساً وحاد الطبع، ومحباً للموسيقى والشعر،

(1) خلق ي. شهصوار أوغلو، "سلطان سلاطين متردد وعاجز: السلطان أحمد الثاني"، مجلة التاريخ الجديد، العدد 3، آذار 1957، ص 70 – 75.

وخطاطاً[1]. وكتب بيده مصحفاً جميلًا جداً. حتى إنه في العام 1680 نسخ كتاب إلهام الشيخ وفا الذي كتبه حضرة الشيخ وفا[2]. وانتسب إلى طريقة الخلوتية.

أجاد السلطان أحمد الثاني العربية والفارسية، وأحب القراءة والبحث[3].

بحسب المصادر، كان يخرج من القصر متنكراً، ويستمع لهموم الشعب ومشاكله، ويأمر المسؤولين بحلها.

كان محباً للصيد، ولكن ليس إلى درجة حب أخيه محمد الرابع له.

أتاه من السيدة ربيعة إقبالي التوأم إبراهيم وسليم. توفي الأول في شهره الثامن، والثاني في عامه الثالث والعشرين (ولادتهما: 1104 هـ/ 1692 م). وأقيمت الاحتفالات بمناسبة ولادة التوأم، وكُتبت قصائد، ودخلت التاريخ. وقد أورد زكي أفندي أكثر مؤرخ مقبول هذا البيت:

يا لسعادة مبشر السلطان أحمد بالتوأم

إنهما أميران إبراهيم وسليم

من هواياته الغريبة التي نقلها المرحوم زيا نور أقصون أنه كتب مذكراته في فترة إمارته. بحسب أقصون، عندما يدقق بدفتر مذكراته يُفهم مدى تحمل السلطان أحمد للمسؤولية.

لنبحث بخاصية أخيرة، ونغلق هذا الموضوع.

سكن أحمد الثاني في أدرنة خلال فترة حكمه التي دامت أربع سنين، ولم تطأ قدمه إسطنبول وهو سلطان. تدفّق حب أدرنة في عروق سلاطين القرن السابع عشر سيفتح باب المشاكل على رأس ابن أخيه. أسقط عن العرش نتيجة ضغط الإسطنبوليين، وأجلس مكانه أحمد آخر، وهكذا تم دخول العصر الزنبقي.

ولكن، قبل ذلك علينا أن نبحث بسلطان "ثانٍ" آخر: السلطان مصطفى الثاني.

---

(1) مجتبى إلغورال، "أحمد الثاني – الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية"، المجلد الثاني، إسطنبول 1989، ص 34؛ إيسن، **الجانب الشعري لدى الأسرة المالكة العثمانية**، ص 87.

(2) نجدت صقا أوغلو، "أحمد الثاني – موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، المجلد الأول، إسطنبول 1993، ص 110.

(3) آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 132.

من العالمية إلى النرجسية: مصطفى الثاني (1703–1695)

خاض الحرب كأجداده ثلاث مرات، وغدا مجاهداً. إنه حسن الكلام، وذكي، وحنون، وعادل، ومحب للعلماء.

عبد الرحمن بيك شرف

جلس مصطفى الثاني على العرش حين كان في الحادية والثلاثين من عمره، وإثر جلوسه على العرش مباشرة نشر فرماناً يحرّم فيه على نفسه المتعة والراحة، وأراد أن يخرج على رأس الحملات مثل جده القانوني، وأعلن أنه "في خدمة الدين، والدولة، وعباد الله". وعندما أراد الخروج على رأس الحملات بنفسه وقيل له أثناء الاستشارات إن هذا سيكلف الكثير، رد بالعبارات التالية:

"لا تلزمني الأحمال والخزينة، سآكل الخبز عند اللزوم، وأضحي بجسمي في سبيل الدين. وسأتحمّل الصعاب مهما عظمت، وسأصبر عليها، ولن أعود من الحملة إلى أن تنتهي خدمة عباد الله".

تصور المراجع مصطفى الثاني مربوع القامة، وقصير الرقبة، وأحمر اللحية، ومهيب الطلعة. وتصور منمنمة الرسام لوني هذه الخصائص الجسدية بوضوح. وتلاحظ عليه انحناءة خفيفة في عموده الفقري لكثرة امتطائه الخيل.

أُعطي تعليمه اهتماماً خاصاً عندما كان أميراً. وقد بدأ تعلّمه بمراسم بدء البسملة عندما كان مع والده في مورا[4]. وأعطاه الدرس الأول رجل الدين الشهير محمد أفندي الواني، وأقرأه دعاء "رب يسر".

(4) هذه المراسم تجري لكل الأمراء عندما يبدأون تعليمهم. ولكن "محمد" الفاتح أعدم في ما بعد "خليل" باشا چاندارلي الذي أهداه أول جزء من القرآن عند بدئه التعلّم.

في العام 1670، عاش تطوراً سيؤثر على حياته في ما بعد، وهو تعيين فيض الله أفندي الذي سيغدو شيخ الإسلام معلماً له. فيض الله أفندي هو صهر محمد أفندي الواني، وقد استطاع أن يضع مصطفى الثاني تحت تأثيره، ويبعده عن الناس. ولكن فيض الله أفندي قتل، وأسقط مصطفى الثاني في تمرد 1703. ووصلنا أنه كان سلطان سلاطين متمكناً من علوم عصره.

ويُعرف أن مصطفى الثاني كتب قصائد ومدائح نبوية باسم مفتوني الفني، وفي ما بعد باسم إقبالي، وأن جزءاً منها لُحن. ويُرى في كتاب **تاريخ مدرسة القصر** لعطا بيك نصّان يُنسبان إليه؛ أحدهما مناجاة، والآخر مدح نبوي. وكانت له ردود شعرية. مثلاً، كتب القانوني وابناه الأميران بيازيد ومحمد رداً على غزل جده السلطان بيازيد الثاني الذي يبدأ بالبيت التالي:

لم يبارحنا البلاء بسبب فخ سالفك
ولم يبارحنا الجفاء بسبب نظرتك الحادة

وتابع مصطفى الثاني هذا التقليد، فكان مطلع قصيدته على النحو التالي:

لا يبارح هواء سالف الحبيب رأسنا
ولا تبارحنا الريح لأننا نجلس في الأعالي

كما أنه كاتب القصيدة الدينية المدرسية التي لحنها إفيج: **يسر لنا خير الأمور**، وندرج كلمات هذه القصيدة أدناه:

الله ربي لا يزول، يا واحد يا ذا الجلال
أدم علينا السلطان ويسر لنا خير الأمور
نقوم الليل، ويصل توسلنا إلى العرش
نحن عبادك الخطّائين يسر لنا خير الأمور
إن لم تصبنا رحمتك فلا يُسر بأعمالنا
يا صاحب الكون، يسر لنا خير الأمور

يا خالق خير الأنام، لحبيبك سلام

هذا زبد الكلام، يسر لنا خير الأمور

إقبالي مسكين عاصٍ لا تحرمه عفوك

يا باقي يا حي يا مجيب يسر لنا خير الأمور

وبحسب كتاب **دولة المشايخ** لسعد الدين سليمان مستقيم زادة فإن مصطفى الثاني مارس فن الخط، وتلقى دروساً على يد محمد أنواري وحافظ عثمان (اعتباراً من العام 1694)، وقدّم نماذج ناجحة بخطوط التعليق والثلث والنسخ والجلي بشكل خاص. وكان تلميذ حافظ عثمان من أهم خطاطينا، ويوقع باسم: الدرويش مصطفى آل عثمان. يطلب من حافظ عثمان وضع خطوط وتكوين العبارة التي يريد أن يكتبها، ثم يقلدها. ويروى أنه كان يمسك المحبرة لأستاذه أثناء الكتابة كما كان يفعل بيازيد الثاني لأستاذه الشيخ حمد الله.

ومن المعروف أنه كتب البسملة والآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ بخطه، ووضعها في محفظة فضية، وأرسلها هدية لشاه إيران[1]. إنها هدية ذات معنى... ويروى أنه كتب بسملة في أيا صوفيا دون أن يرفع القصبة[2]. واشتهرت قصة طلبه محبرة من أستاذه عبد الله أفندي يدي قولة لي، وعندما أعادها له كانت مليئة بالمجوهرات[3].

صكت أول نقود ذهبية بالطغراء في عهده عام 1669، وسميت أشرفي جديد. وغدا صك طغراء السلاطين في عهودهم تقليداً من بعده[4].

كان مصطفى الثاني ماهراً بالرماية واللعب بالنبوت، ومحباً للصيد كوالده محمد الرابع، ومتمرساً باستخدام أنواع الأسلحة كافة. وكان جريئاً إلى درجة أنه

(1) إسماعيل حقي أوزن تشارشلي، **تاريخ العثمانيين**، المجلد الثالث/ 2، ص 559.

(2) بكطاش أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 293؛ علي رضا أوجان، مصدر سبق ذكره، ص 98.

(3) علي ألب أرسلان، أحمد الثالث (خطه)، موسوعة العثمانيين حياتهم وأعمالهم، المجلد الأول، ص 99.

(4) إبراهيم أرطوق، **أشرف جديد**، **الموسوعة الإسلامية الصادرة عن أوقاف الشؤون الدينية التركية**، المجلد السابع، إسطنبول 1993، ص 210-211.

استل سيفه، وتقدم الصفوف في أول حملة قادها محمساً جنوده. كما أن عدم اهتزاز شعرة منه حين مرت تسع مقذوفات أطلقها العدو في معركة أولاش من فوق رأسه لتسقط على مبعدة منه يشير بوضوح إلى أن جرأته تصل إلى حدود الشجاعة.

وإن لم يكن مشهوراً بالصيد مثل والده محمد الرابع، فقد تراخى بعد توقيع معاهدة كارلوفيتس للسلام، وتوجه للهو والصيد. كان ينظم رحلات صيد تستمر أسابيع وأحياناً تتجاوز الشهر[1].

أنجبت له السلطانة حفيظة توأماً، ومات الأول في شهره السادس، والثاني في شهره العاشر.

بدأ مصطفى الثاني العمل بطاقة كبرى فور جلوسه على العرش. وبعد عودته من الحملات منتصراً، سيطرت عليه فكرة - تحت تأثير من حوله - أنه حاكم العالم. وبحسب بحث حوله، تم التوصل إلى أنه أصيب بالنرجسية[2]. هذه المعلومة تفتح الباب على تساؤل حول كيفية التأثير على السلاطين المظفرين الفاتح والجبار والقانوني، وحول من أثر عليهم فأصيبوا بالغرور. يُعَدُّ الوصول إلى النضج النفسي الذي يتحمل هذه الانتصارات الكبرى بحد ذاته نظر عظيم.

---

(1) قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 263.

(2) قدم رفعت أبو الحاج واحدة من الدراسات العلمية النادرة حول نفسية سلطان السلاطين "The Narcissism of Mustafa II (1695–1703): A Psychohistorical study"، "Studia Islamica, XXXIX"، 1974، ص 115–131.

سلطان السلاطين الذي يهوى الأشغال النسوية: أحمد الثالث (1730–1703)

انتشرت أجواء المرح في عهد أحمد الثالث إلى درجة أن أجمل مناطق إسطنبول وأظرفها زُينت بالحدائق الأخاذة.

أحمد رفيق آلطن آي

بُنيت استراتيجية الدولة العثمانية بعد معاهدة كارلوفتس للسلام التي فقدت فيها الكثير من الأراضي على انتهاز فرصة الرد على البندقية والنمسا وروسيا لعدم استطاعتها التغلب عليها بعد أن تحالفت في ما بينها. وقسمت معاهدة بساروفيتش عام 1718 باعتبارها جزءاً من هذه الاستراتيجية عهد أحمد الثالث إلى مرحلتين، وأدخلت الدولة العثمانية في حالة استرخاء على الجبهة الغربية، ولكن منافساً خطيراً صعد في الشرق، وهو نادر خان الأفشاري. حققت هذه الاستراتيجية نجاحاً في الغرب، واستعيدت الأراضي التي فقدت مثل شبه جزيرة مورا باتفاقية بلغراد عام 1739 في عهد محمود الأول.

شكّل قَسَمُ السلطان أحمد الثالث أن يسكن في إسطنبول بعد تمرد أدرنة عام 1703، واضطراره لترك العرش بعد سبعة وعشرين عاماً إثر تمرد خليل باترونا خلفية نهجه الانطوائي. لهذا السبب؛ يجب أن ننظر إلى مرحلة السلام والمتعة التي تتحدث عنها كتب التاريخ التركية باسم العهد الزنبقي باعتبارها مرحلة استقرار نسبي ضمن فترة تقلبات.

دخل أحمد الثالث كتب التاريخ اعتباراً من مطلع القرن العشرين بصفة سلطان العهد الزنبقي، وهو طويل قليلاً، وذو وجه طويل، ونحيل، وخفيف السمرة، وحلو النظرات، وضاحك الوجه.

كان شغوفاً بالماء. أكسب إسطنبول سدوداً وسُبلاً وشلالات. ويحتل السبيل

أمام قصر طوب قابِ، وسبيل ساحة أسكدار مكانة رفيعة بين سبل الساحات العثمانية.

بيت الشعر التاريخي الذي كتبه السيد وهبي على سبيل السلطان أحمد القائل: "افتح واشرب الماء مع البسملة، وادعُ لمحمد خان" هو للسلطان. ولكن شكله الأصلي كان: "ادع لمحمد خان، وافتح مع البسملة واشرب الماء". وقد طلب شعراء العصر من السلطان أن يكمل القصيدة، ولكنه لم يستطع تقديم قصيدة بالمستوى الجمالي المطلوب. بدّل الشاعر السيد وهبي بين الكلمات، وحصل على قافية مناسبة، ونجح بكتابة واحدة من أجمل قصائده. وزخرفة البطيخ الأصفر الذي تُغرز فيه سكين على سبيل جدار جامع الوالدة الرخامي في أسكدار أحد النماذج اللافتة للأسلوب الواقعي بزخرفة العصر الزنبقي في عهد أحمد الثالث.

إضافة إلى موهبة أحمد الثالث بالفنون الجميلة وحبه الكبير لها كان راعياً للموسيقيين والفنانين الآخرين.

يُعدُّ شاعراً وكاتبَ نثر جيداً، وخطاطاً ماهراً جداً. استخدم الأسماء "نجيب" وأحمد خان أو أحمدي كأسماء الفنية. جمع الأستاذ علي أميري أفندي قسماً مهماً من ذلك الشعر بلغ ثلاثمائة بيت تقريباً. لقد خيّم جو من التصوف على شعره، وكان قسم منه على وزن التفعيلة. والمعروف أن سعد الدين نزهت إرغون لحّن قسماً مهماً من تلك الأشعار[1].

يُروى أن أحمد الثالث رأى ثعباناً يتسلق شجرة عليها عش بلبل مليء بالأفراخ أثناء تجواله في الحديقة الخاصة، فأمر رجاله بقتل الثعبان فوراً، وحينئذ خرج من لسانه شطر بيت الشعر التالي: "ثعبان الأجل يتسلق شجرة الحياة"، ولكن شيطان الإلهام صمت هنا، ولم يستطع إكماله. إثر هذا استدعوا الشاعر نابي إلى القصر على عجل. شُرح الأمر للشاعر في الطريق، وهذا ما جعله يتحضر ذهنياً. عند مثوله في حضرة السلطان، خرج من لسان نابي الشطر التالي: "والبلبل الحي نائم في عشه دون علم". وأوفى المعنى المقصود. وفرح السلطان

(1) إسان، "الجانب الشعري في الأسرة المالكة العثمانية"، ص 87–88.



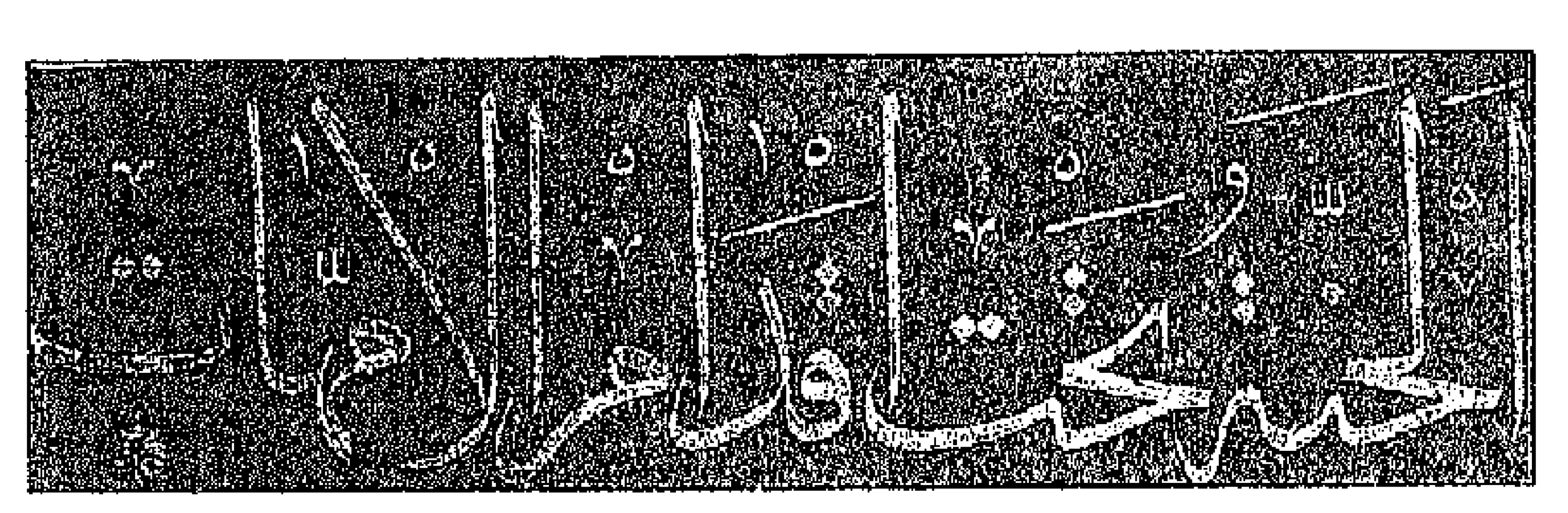
منمنمة تصور أحمد الثالث جالساً على العرش، ومعه حاملو السلاح، وتعطي فكرة جيدة عن بنيته الجسدية ولباسه وزينته.

ومن حوله بعد أن كانوا واجمين.

أحمد الثالث أهم خطاط أنجبته الأسرة العثمانية الحاكمة. تعلّم من الخطاط الشهير حافظ عثمان ستة أنواع من الخطوط[1]، ومن شيخ الإسلام ولي الدين أفندي التعليق، وحصل منه على الإجازة.

كان يأمر بتعليق اللوحات التي يكتبها في الجوامع، وعندما يكتب مصحفاً

(1) يذكر المرحوم البروفيسور منير آقتبة في مادة أحمد الثالث من الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية أنه تعلم الثلث والنسخ من حافظ عثمان. (المجلد الثاني، إسطنبول 1989، ص 37).



لوحة الحديث الشريف: "الجنة تحت أقدام الأمهات" التي كتبها أحمد الثالث، معلقة في جامع والدته السلطانة رابعة غولنوش.

كان يهديه أيضاً لأحد الجوامع أو رجال الدين. أرسل مصحفين بخطه هدية إلى قبر سيدنا الرسول في المدينة. وخرجت من يده لوحة البسملة التي تعلو غرفة "الطلبات"، والكتابة التاريخية على السبيل الذي يحمل اسمه في مدخل قصر طوب قابِ، ولوحتا الثلث الجلي في جامع الوالدة الجديد الذي أمر ببنائه عن روح والدته السلطانة رابعة غولنوش[1]. هناك لوحتان شبيهتان بهاتين معروضتان في متحف الأوقاف التركية للخط[2]. وصلنا مرقّع من أربع عشرة صفحة كتبه بالثلث الجلي، وحاز إعجاب خطاطي عصره.

ونعرف جمال خطه من الحواشي التي كان يدونها على القرارات السلطانية.

المعروف أن أحمد الثالث كتب طغراء فنية رفيعة. وإذا كان هناك الكثير من السلاطين الذين كتبوا بخطّ جميل، فهو الوحيد الذي كتب طغراء.

المعروف أيضاً أن قطاع المكتبات خطا خطوة مهمة في عهد أحمد الثالث. فقد أمر بجمع الكتب القيمة المتفرقة في قصر طوب قابِ، وبناء مكتبة خاصة في القصر. غير هذا، لقد منع إخراج المخطوطات النادرة خارج الوطن، وبهذا حاول منع تهريب هذه الثروة القومية من الدولة العثمانية.

ما الذي يمكن أن يكون أكثر طبيعية من حب السلطان لحياة الحرم واللهو

(1) نجدت صقا أوغلو، أحمد الثالث موسوعة إسطنبول بين الأمس واليوم، المجلد الأول، إسطنبول 1993، ص 114، واحدة من اللوحتين اللتين كتبهما في الجامع الذي أنشأه عن روح والدته تحمل دلالة جميلة، فقد اختار الحديث الشريف: "الجنة تحت أقدام الأمهات"، والثانية نص حديث شريف أيضاً: "رأس الحكمة مخافة الله"؛ انظروا إلى: بكطاش أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 293-294. وقد كلف مصطفى آغا طوزقونضرماظ بتذهيب اللوحتين. انظروا إلى: علي رضا أوزجان، مصدر سبق ذكره، ص 81.

(2) أوزصاينر، مصدر سبق ذكره، ص 81.



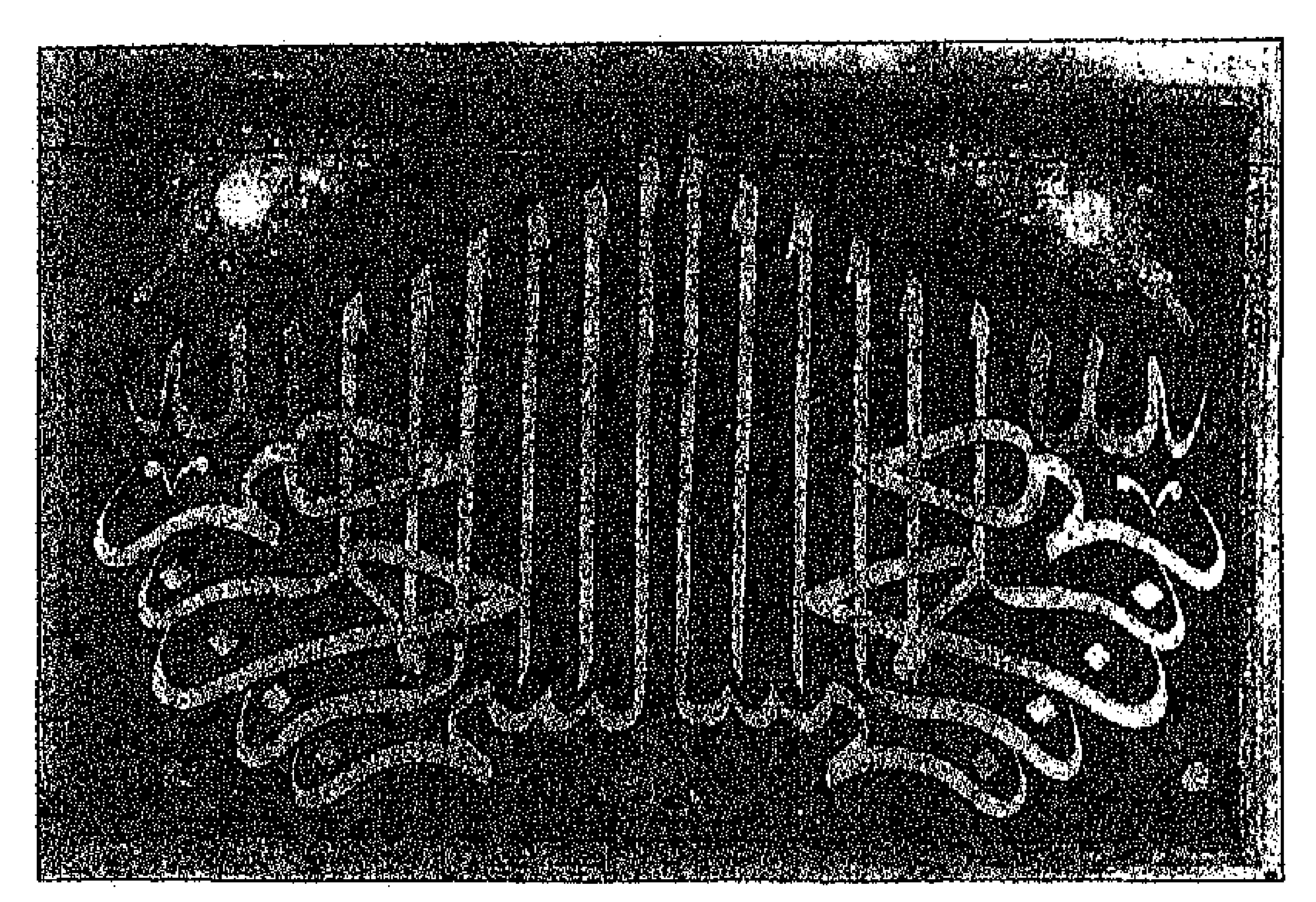
يجب أن تكون مدهشة رؤية أحمد الثالث وقد نهض على قدميه أمام عالم مسن؛ لأن هذا الموقف نموذج لاحترام الحكام العثمانيين الكبير لرجال العلم.

في العصر الزنبقي؟ ولكن، علينا أن نذكر أن هذا لم يكن لهوه الوحيد؟

حسنٌ، ما الذي كان يثير فضول حاكم العصر الزنبقي هذا؟

كان استثناء بين أعضاء الأسرة المالكة بحبه منذ الصغر للأشغال النسوية، واستمر بهذه الهواية بعد جلوسه على العرش. ويروى أنه كان يذهب إلى قصر السلطانة فاطمة في أوسكدار، ويجلس خلف نافذة تطل على بحر مرمرة، ويطرز مع النساء.

في آخر ثلاث عشرة سنة من عهده انتشر حب الأزهار، وخاصة الزنبق



لوحة بسملة مزدوجة متناظرة كتبها أحمد الثالث بماء الذهب، ويلفت النظر توقيعه ورسم أربع وردات بدقة في زواياها. إنها نموذج يتحدى فناني الغرافيك في عصرنا. جاويد آفجي، "الكتابات المتناظرة في الفن التركي"، الفن والثقافة، كانون الثاني 1977، ص 22 و27.

بشكل كبير. إذا كان رائد الاهتمام بالأزهار هو الصدر الأعظم والصهر إبراهيم باشا النفشهيرلي، فإن سلطان السلاطين لعب دوراً مهماً بتطوره من خلال الجوائز التي كان يمنحها[1]. لم يكن مسرفاً كما يُعتقد، بل على العكس كان معروفاً بالبخل.

تروي الكتب أنه كان ماهراً بالتسديد، وأنه أصاب ديناراً ذهبياً في مركزه بطلقة بندقية من على بعد خمس وثمانين خطوة[2]. والكتابة الموجودة فوق جناح الخزينة القديم في قصر طوب قابِ تتحدث عن إصابته بيضة من بعيد بواسطة البندقية[3].

لم يكن يحب ملاهي الصيد، ولكننا لا بد لنا من أن نصنف أحمد الثالث بين السلاطين الرماة؛ لأنه من المعروف إطلاقه سهماً عن بعد تسعمائة ذراع،

(1) للاطلاع على رؤية مختلفة في هذا الموضوع، انظروا إلى: مصطفى أرمغان، **صورة العصر الزنبقي بالأسود والأبيض، أطلس العثمانيين المفقود**، إسطنبول 2008، منشورات خط الأفق، ص 171-194؛ كارولاين فينكل، **العثمانية من الحلم إلى الإمبراطورية**: قصة الإمبراطورية العثمانية، 1300-1923، إسطنبول، منشورات تيماس، ص 308 - 309.

(2) جمال الدين سرفر رفاناق أوغلو، "ساحة الرماية، وتكية الرماة اللتان أسسهما الفاتح" التاريخ يتكلم، العدد 26، آذار 1966، ص 2172.

(3) إلبر أورطايلي، **الحياة في القصر العثماني**، ص 67.

ونُصِبَ له عمود حجري في ساحة الرماية.

أخيراً، ليست ثمة مبالغة بالقول إن أحمد الثالث سلطان التوائم لأنه صاحب رقم قياسي كأب لتوائم. فقد رزق بتوأم ثلاث مرات. أم كلثوم وزينب (توفيت الأولى في الخامسة والعشرين من عمرها، والثانية في شهرها الحادي عشر)، عبد المجيد وعبد الملك (توفي الأول في شهره الرابع، والثاني في شهره الرابع عشر)، سليم وصالحة (توفي الأول في الثالثة من عمره، والثانية في الثالثة والستين من عمرها).

"ما الذي يساويه عطائي مقارنة بالعطاء الإلهي؟"

يروي يحيى كمال في كتاب قصتنا على مدى سبعة قرون نقلاً عن أحد القدماء أن أستاذ الموسيقى التركية الكبير "عطري" عندما لحن عمله الرائع: مديح سيدنا الرسول دعاه السلطان أحمد الثالث إلى قصره، وقدم وليمةً فاخرة على شرفه. وضع كبير السفرجية طبقاً ذا غطاء ذهبي أمام السلطان، ولكن أحمد الثالث أمره قائلاً:

"أمرت بتحضير هذا الطعام للأستاذ بشكل خاص، ضعه أمامه!".

وطلب من عطري أن يفتح الغطاء. بُهرت عينا عطري عندما فتح الغطاء، لأن الطبق كان مملوءاً بالزمرد والألماس والياقوت والزبرجد وغيرها من الأحجار الكريمة. انفعل عطري أمام هذا العطاء، وقبل أن يرتمي على قدميه، قال:

"سلطان سلاطيني، لا يناسب الفقير عطاء كهذا".

حينئذ تنهد أحمد الثالث، وقال التالي:

"أنا لا أجهل تفاهة هذه المجوهرات مقارنة بعملك العظيم. أنا بصفتي سلطان سلاطين ليس لدي أغلى منه. أنتم أحب العباد إلى الله. ستبقى أعمالكم ما بقيت الدنيا. كل عطائي لكم تافه أمام عطاء الله لكم"[1].

---

(1) جمال قوطاي، **تاريخنا المجهول**، إسطنبول 1974، ص 120.

منوّر قطاع المكتبات العثماني: محمود الأول (1754–1730)

مر عهده الذي دام خمسة وعشرين عاماً سريعاً كطائر، واختاره جنابٍ الحق ليجاوره في أعلى عليين. كان سلطاناً محظوظاً جداً.

سليمان أفندي شمداني زادة[1]

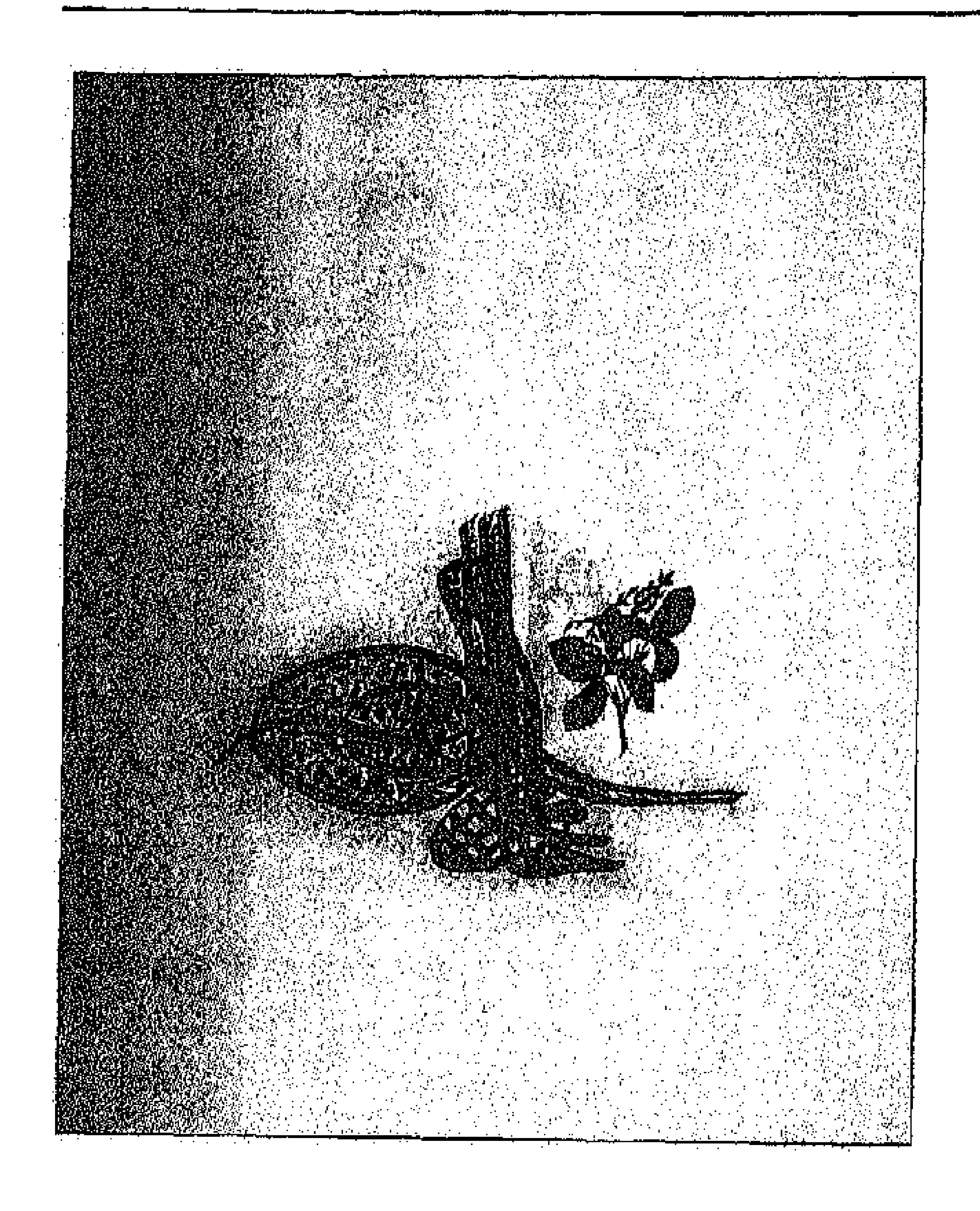
نجح السلطان محمود الأول ابن أخِ أحمد الثالث في عهده الذي دام ربع قرن بنقل الإمبراطورية من حالة الاهتزاز على وقع التمردات إلى حالة الاستقرار في الداخل، كما نجح في دخول التاريخ باعتباره حاكماً مظفراً خاض كفاحاً ناجحاً ضد ثلاث دول في الخارج. ونرى أن شخصيته المتوازنة والناضجة انعكست إيجاباً على الفن والأدب في هذا العهد المتنفس براحة كنسيم الربيع.

تصف المصادر "محمود" الأول بأنه قصير القامة، ونحيل. وبقدر ما هو منفتح على التجديد، بقدر ما هو تقليدي ومتدين.

ذكرنا أن لكل من السلاطين مهنة، أما محمود الأول فلم تكن لديه مهنة واحدة، بل عدة مهن. بتعبير آخر، كان غنياً بالمهن. ستدهشكم مهنه لكثرتها.

فهو صانع أخلة (أعواد تنظيف الأسنان)، وحفار أختام، وصائغ. كان يحفر أختاماً على حجر الهيماتيت، ويبيعها في السوق، ويتصدق بجزء من ثمنها ليكسب الثواب، ويشتري بعض حاجياته الخاصة بما تبقى، ويستمتع كثيراً بهذا الأمر. عندما قال له أحد وزرائه ذات يوم: "يا صاحب العظمة، خزينة الأمة خزينتكم، فلماذا تتعبون أنفسكم بعمل كهذا؟". ردّ عليه سلطان السلاطين: "يجب أن تُنفق خزينة

(1) تاريخ سليمان أفندي فندقليلي شمداني زادة: مرئي التواريخ، 1، إعداد م. منير آقتبة، إسطنبول 1976، منشورات كلية الآداب في جامعة إسطنبول، ص 178.



طغراء السلطان محمود الأول
ذات الزهرة.

الأمة على الأمة. ثانياً، متعة كسب النقود من عرق الجبين لا تضاهيها متعة".

كان يصنع أخلة من خشب الأبنوس والعاج[1]. وبحسب بعض المصادر فإنه وصل إلى أعلى مرتبة مهنية بصياغة المجوهرات[2]. ويروى أنه كان يعمل بالحفر أيضاً[3].

أحب زراعة الزنبق – يبدو أن هذا بتأثير من العصر الزنبقي – ولعب الشطرنج، والتنزه في البوسفور، وخاصة نزهات ليلة البدر. ولكنه كثيراً ما كان يشكي همه لمن حوله، قائلاً: "لم أستمتع بشيئين من هذه الحياة، الولد (لم يرزق بأولاد)، والبدر"[4].

ونفهم من الوثائق المتعلقة بسلطان السلاطين محمود الأول أنه يستمتع بالماء. ففي عهده، أدخلت مياه نبع قراقولاق في بيقوظ إلى القصر العثماني،

(1) حقائق تاريخية. صفحات الحقائق والعبر من التاريخ 1، إسطنبول 1007، منشورات دار تشاملجا، ص 117.

(2) يلماظ أوزطونا، "سلطان السلاطين في الدولة العثمانية 3: سلطان السلاطين أعلى من كل الحكام" مجلة الحياة تاريخ، العدد: 3، آذار 1976، ص 15.

(3) آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 145.

(4) بي. سي، سلطان سلاطين دفن حيا، مجلة التاريخ، العدد: 1، 15 نيسان 1950، ص 10.

وشرب السلاطين والخلفاء حتى الخليفة عبد المجيد من هذا الماء اللذيذ.

كتب الشعر، واستخدم اسم سبكاتي الفني في قصائده. ويعرف أنه كتب شعراً بالعربية، وهذه الميزة نادرة في الأسرة المالكة[1]. إليكم جزءاً من إحدى قصائده الجميلة بالتركية:

أقول لنقصد طريق قلب الحبيبة المزين

وأقول لنشم رائحة زر الوردة الجميلة

رحمتك، قتلنا خيال الشراب الأحمر

لنذهب في طريق القلب لنرشف ماءه

لن تدهشنا رؤية محمود الأول بموقع متقدم في ميدان الموسيقى. لأنه بالنتيجة ابن العصر الزنبقي، وقد وصلتنا بعض ألحانه. فهو عازف طنبور بحسب بعض الخبراء[2]، وبحسب بعضهم الآخر فهو بمرتبة أستاذ[3]، حتى إن ملحنات ظهرن بين الجواري اللواتي دربهن. وجاء في مرئي التواريخ لشمداني زادة أنه كتب كلمات الألحان التي لحنها أيضاً.

يمكننا اعتبار السلطان محمود الأول أكبر المهتمين بالكتب والمكتبات، وحتى إنه الحاكم الذي بدأ عصر نهضة الكتاب. يعتبر بعض الباحثين عهده العهد الذهبي للمكتبات[4].

أنشأ محمود الأول مكتبات في غلاطة سراي، وفي جوامع أيا صوفيا، والفاتح، والسليمانية حائزاً مكانة متميزة في تاريخ المكتبات التركي، وأوقف أربعة آلاف كتاب لمكتبة أيا صوفيا فقط، وتبرع بقرى في فيدين وسمندرة لتأمين دخل للمكتبات، ووضع المخطوطات القيمة التي جُمعت من المناطق

(1) نجدت صقا أوغلو، محمود الأول، موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم، المجلد الثاني، ص 57.

(2) عبد القادر أوزجان، محمود الثالث، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 27، أنقرة 2003، ص 351.

(3) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الرابع، ص 335.

(4) إسماعيل إ. أرنوصال، تاريخ المكتبات التركية 2: مكتبات الوقف العثمانية من التأسيس حتى التنظيمات، أنقرة 1988، منشورات مركز أتاتورك الثقافي، ص 279.

النائية وكتب القصر غير المستخدمة في هذه المكتبات. أرسل كتباً من القصر إلى المكتبة التي أنشأها في ثكنة غلاطة سراي، وفي حفل الافتتاح ملأ خزاني السبيلين المنشأين على طرفي المكتبة بالشراب، وسقى منه الناس. (لِمَ الكذب؟ يبدو أنه أسلوب مفيد لأمة لا تقرأ كأمتنا)[1].

كان العثمانيون ينتجون الورق يدوياً. وفُتح أول مصنع للورق في عهد محمود الأول، وفي زمن الصدر الأعظم علي باشا حكيم أوغلو. استقدم معلمو الورق من بولونيا، وبقي مصنع الورق في يالوفا يعمل حتى عام 1746[2].

كان محمود الأول يتردد إلى جامعي أيا صوفيا والفاتح، ويقرأ الموالد، ويطلب من رجال الدين شرح الكتب الدينية الشهيرة، ويستمع للشرح. وهو من أمر بوضع أثر قدم سيدنا الرسول ﷺ فوق قبر أبي أيوب، وأمر بكتابة تعريف منظوم فوقه.

كما أمر بجمع أحاديث الإمام البخاري أحد الصحيحين (الثاني صحيح مسلم)، وكان يعمل "ختماً للبخاري". وأولى السلطان محمود الأول اهتماماً كبيراً لختم البخاري، وعين عشرة أشخاص في بخاري خان؛ وهي المكتبة التي أمر بإقامتها في القسم القِبلي من جامع الفاتح، وأمّن لهم دخلاً ليستمروا مدة طويلة. وخصص فريقاً آخر "لختم البخاري" بجوار أيا صوفيا، وضحى كل يوم تقرأ المجموعة البخاري الشريف، وتختمه كل شهر. وحضور محمود الأول أحياناً هذا الختم يدل على اهتمامه بالبخاري والأحاديث الشريفة[3].

ونعرف أن "محمود" الأول أحب رياضة رمي الرمح والفروسية والسباحة.

ملاحظة أخيرة: هل تعلمون أن أول ميدالية في الدولة العثمانية أصدرها محمود الأول؟ وكانت هذه الميدالية مربعة الشكل، ومصبوبة من الذهب، وليست مؤرخة. على أحد وجهيها طغراء، وعلى الوجه الثاني الآية الكريمة: ﴿... فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف، الآية: 64][4].

(1) أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد الرابع، ص 328.

(2) أوزون تشارشلي، **التاريخ العثماني**، المجلد الرابع/ 2، ص 519.

(3) نسيمي يازجي، **شريحة من الحياة الدينية العثمانية: ختم البخاري**، الوطن التركي، العدد 148 – 149، كانون الأول 1999، كانون الثاني 2000، ص 351 – 352.

(4) أحمد راسم، مصدر سبق ذكره، ص 37.

دفن حياً

هناك رواية تدور شفهياً بأن "محمود" الأول دفن حياً[1]. ثمة فائدة من إعطاء معلومات حول هذه القصة التي تبدو للبعض مقنعة.

يقال إن حارس مقبرة محمود الأول سمع صراخاً مخنوقاً بعد دفن الجثة، فهرع إلى القصر، ونقل الخبر، ولكن سلطان السلاطين الجديد عثمان الثالث خشي أن يتعرض عرشه للخطر، فأسكت حارس المقبرة، أي أمر بقتله، وبهذا حال دون انتشار الخبر. بالنتيجة، تسرب الخبر من القصر من أذن إلى أذن، ووصل إلى يومنا هذا.

على كل حال، يستحيل وجود احتمال كهذا. إذ إن موت سلطان سلاطين أمر مهم، خاصة أن من عادات القصر الكشف على الجثة ليراها سلطان السلاطين الجديد. أي لا يمكن أن يتم الدفن على عجل.

ساءت حالة محمود الأول أثناء عودته من استقبال يوم الجمعة على الحصان، فسقط، وهذا الوضع كان سبباً بانتشار شائعة كهذه.

---

(1) لنذكر على سبيل المثال روايتين إحداهما تعود إلى نصف قرن مضى، والثانية تأتينا من الحاضر. بي سي، **سلطان سلاطين دفن حياً**، عالم التاريخ، العدد 1، 15 نيسان 1950؛ عوني أوزغورال، **السلطان المدفون قبل أن يموت**، راديكال، 7 تموز 2002.

سلطان الحرائق: عثمان الثالث
(1757–1754)

كان يشتري رقائقَ عجين محشوة ومقلية وكباباً وحمّصاً محمّصاً ومهلبية وغيرها عندما يخرج متنكراً، ويأكلها في الهواء الطلق.

تاريخ واصف

شخصية السلطان عثمان الثالث من بين شخصيات السلاطين الأكثر غموضاً. عاش خلف شبك في قصر شمشيرلك منذ أن كان في السابعة وعلى مدى خمسين عاماً تقريباً، وهذا ما أثر سلباً على حالته النفسية. حدوث بعض الآفات الطبيعية في عهده دفع المؤرخين لاعتبار عهده عهد نحس. لهذا السبب، تُعتبر المعلومات الواصلة إلينا حوله فُتاتاً، ولكن بعضها يستحق الجمع.

يقال إنه كان الأكثر بدانة بين السلاطين العثمانيين، وغير متناسق الجسم، وعصبياً وسريعَ الانفعال، ولا يثق بأحد، ويعتبر أن الشبهة أساس إدارة الدولة. يتدخل بكل شيء، ويريد أن يعرف كل تفصيل بسبب شبهته.

نعرف أن "عثمان" الثالث اشتغل بالنجارة في أوقات فراغه، ونجد أنه أول من بذر هذه البذرة التي سنجدها في ما بعد عند عبد المجيد وابنه عبد الحميد الثاني.

تشير الفرمانات التي كتبها بيده إلى أن خط النسخ لديه جميل ومقروء مثل خط أخيه الأكبر محمود الأول[1]. وهذه نقطة مهمة تدل على اهتمامه بفن الخط.

نعرف أيضاً أن "عثمان" الثالث شغوف بالكتب إلى درجة الغيرة. وقد بلغ به الأمر مبلغاً؛ حيث نزع صفحات الكتب الممهورة بمهر سلفه محمود الأول في مكتبته، ومهرها بمهره. وتشكّل المخطوطات التي جمعها جزءاً مهماً من

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الرابع/ 2، ص 553.



أحد ألبسة عثمان الثالث.

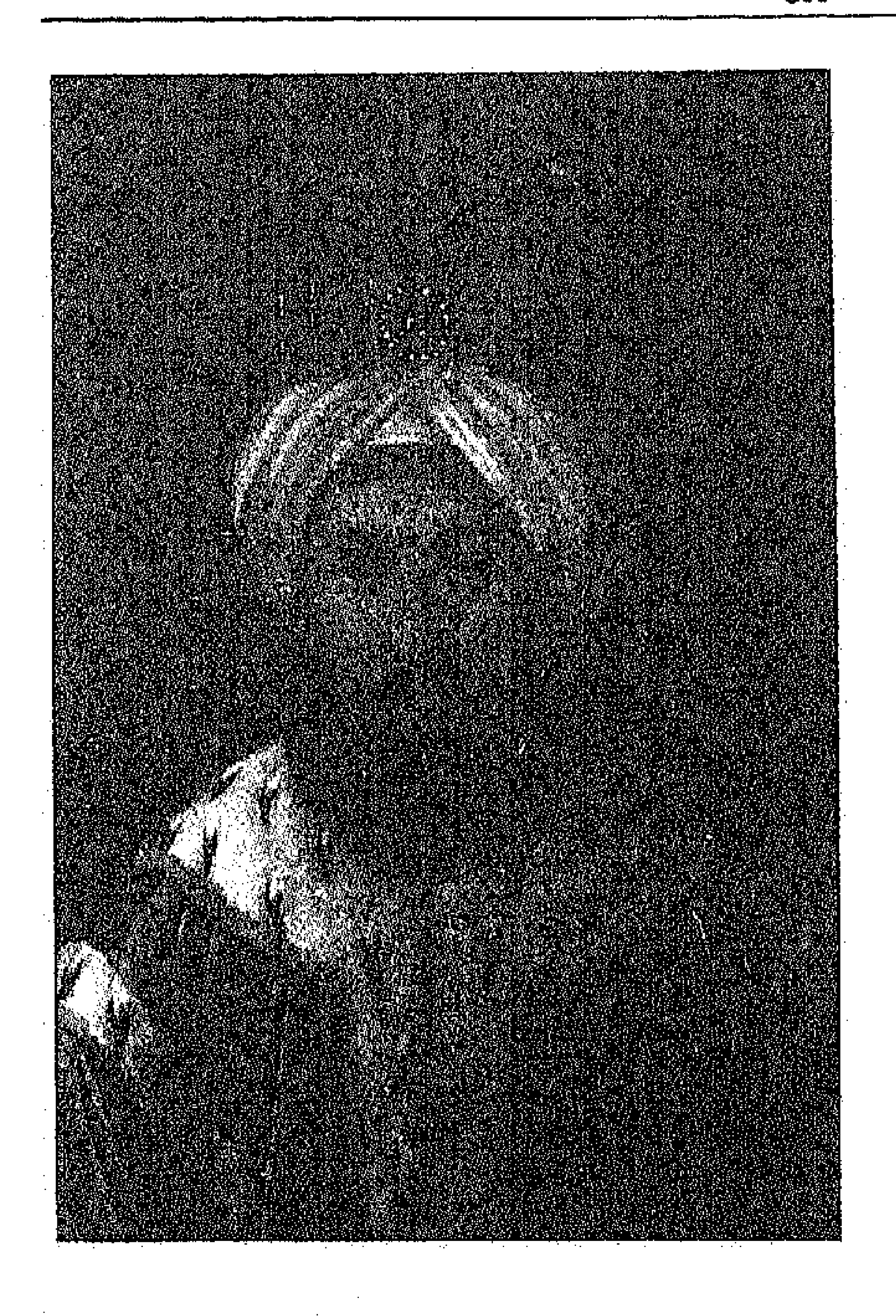
مجموعة كتب جناح إيروان.

خلال فترة تربع عثمان الثالث على العرش التي لم تدم ثلاث سنوات (كانت سنتين وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً بالتحديد) شبت سبعة حرائق في مدينته إسطنبول؛ أحدها ليلة مراسم تقليده السيف، ولهذا لُقِّب "سلطان الحرائق"[1]. وشهد عهده وباء، وشتاءً قارساً إلى درجة تجمد البحر.

اشتهر عثمان الثالث بكرهه للنساء. أمر بصناعة حذاء على أرضيته قطع فضية ينتعله عندما يدخل الحرم لكي يصدر وقعاً قوياً، وتهرب النساء عندما يسمعن هذا الصوت، وتعاقب من تظهر أمامه. هل يجب أن نُدهش لعدم وجود أولاد له؟

---

(1) جمال قوطاي، المدينة المتدفقة من وسط رماد الحرائق، تاريخنا المجهول 1، إسطنبول 1974، ص 420-431.



عثمان الثالث بريشة فنان أجنبي.

من خصوصيات عثمان الثالث الغريبة أيضاً خروجه المتكرر بين الناس. كان يتنكر، وينخرط وسط الناس، ويسمع همومهم، وحتى إنه اتخذ لنفسه مكاناً في أحد المقاهي، وعرّف بنفسه أنه "عثمان آغا" من المكان (كذا)، وهناك كان يسمع من الناس ما يدور من قصص وشائعات.

نعرف أنه أغلق خمارات إسطنبول، ومنع ما يخالف الشريعة، وخروج النساء بشكل سافر في الشوارع.

عندما نضيف طرده الموسيقيين من القصر تظهر أمامنا شخصية غريبة لسلطان سلاطين. ولكن، علينا ألا نتسرع بإطلاق حكم بأنه متعصب وعدو للنساء والفن. يمكن أن يكون سبب هذا التصرف هو الحيلولة دون قول الناس: نحن هنا منهكون، وفي القصر تقام حفلات موسيقى ولهو[1].

(1) آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 148.

قبر دون سلطان

في كلّية نور عثمانية التي بدأ ببنائها السلطان محمود الأول، وأكملها أخوه عثمان الثالث جامع ومدرسة دينية ومكتبة، إضافة إلى قبر خصصه لنفسه.

دفن عثمان الثالث صاحب التصرفات الغريبة أخاه "محمود" الأول في الجامع الجديد، واحتفظ بالقبر لنفسه.

ولكن الحظ لم يحالفه، فعندما جلس مصطفى الثالث على العرش دفنه قرب الجامع الذي أمر ببنائه في لالة لي، ولم يدفنه في القبر الذي احتفظ به لنفسه في الجامع الذي يحبه كثيراً.

وهكذا، لم يكن من نصيب أي سلطان سلاطين أن يُدفن في القبر المجاور لنور عثمانية، ودفنت فيه سلطانة والدة هي السيدة شهسوار أم عثمان الثالث المتميزة بتدينها. (إنها السيدة شهسوار التي توسلت للصدر الأعظم علي باشا حكيم أوغلو لكي يعفو عن ابنها).

هذا ما يعتقد أنه المقصود بالقول: "النية لناس، والقسمة لناس".

عينان تتوسلان مدداً من النجوم: مصطفى الثالث (1774-1757)

ليس فظاً كما وصفه فولتير، بل مقتصداً ودقيقَ الملاحظة وطموحاً، وحتى إنه رجل علم ومعرفة.

ألبرت سوريل

لا بد أن تلاحظوا تغييراً في مفهوم الإدارة لدى السلاطين العثمانيين اعتباراً من عصر الزنبق. بعد توقف قصير في عهد عثمان الثالث، سنرى هذا الجانب بارزاً حيناً، وخافتاً حيناً آخر بدءاً من مصطفى الثالث وحتى انهيار الدولة. لهذا السبب، إن القسم الذي سنقرأه يمثل صفحات التاريخ العثماني التي يجب أن نثني طرفها.

تصوّر المصادر مصطفى الثالث ربع القامة، وقصير الساقين، وشاحب الوجه، وضيق الجبهة، وكبير الأنف وأفطسه، وأسود اللحية. جسمه قوي ومهيب. ولكننا نعرف أن بصره كان ضعيفاً.

اختار مصطفى الثالث مهنة الصبّ؛ أي إنه كان هاوياً لصك العملة، ولديه ورشة كاملة، ويعمل مع عمال لديه ساعات، ويقدمون عملاً يدوياً دقيقاً[1].

بحسب ما نقله رئيس الكتاب عمر أفندي وحيد عن الدبلوماسي الفرنسي كومت دي فيرجين فقد كان متديناً إلى درجة التعصب[2].

عرف بجمال حديثه، ويرد في المصادر أنه كان مهتماً بعلم الطب[3]. كما

(1) الحقائق التاريخية 1، ص 117.

(2) الناقل جمال قوطاي، أحاديث، تشرين ثاني كانون أول 1971، إسطنبول، ص 187.

(3) إسان، الجانب الشعري في الأسرة العثمانية المالكة، ص 88.



لوحة تصور جلوس مصطفى الثالث على العرش.

كان هاوياً لألعاب القوة[1].

المعروف أنه خطاط جيد. تلقى دروس خط التعليق من محمد رفيع كاتب زادة، ودورة في الخط من ولي أفندي صدر الروم إكشي زادة. استخدم في الفرمانات خط "التعليق المشتق"، وكتب بخط جميل[2].

كان شغوفاً بعلم الفلك إلى درجة استقدامه المشتغلين فيه من مختلف دول العالم إلى القصر، ولم يكن يبدأ بعمل حتى تُحدد له ساعة الحظ. طلب

(1) قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 288.

(2) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد 4/ 2، ص 553.

بعض الكتب المتعلقة بالفلك من فرنسا، وأُرسل له بعضها، منها كتاب عالم القرن الثامن عشر الشهير لالاند[1].

كان يؤمن كثيراً بالحظ. لهذا السبب، كان يختار وزراءه ممن يعتقد أنهم محظوظون. المعلومة حول طلبه منجماً من ملك بروسيا فريدريك تحتاج إلى إعادة نظر. الأقرب إلى المنطق أن مصطفى الثالث طلب من فريدريك الكبير ملك بروسيا الماسوني كاهناً لإقامة علاقة أقرب معه[2].

من المعروف أن مصطفى الثالث اهتم بالتاريخ، كما اهتم بدروس الحضرة التي كان بعض رجال العلم يلقونها في رمضان حول الدعوة، وبالمناقشات التي تدور فيها، وجعلها تقليداً، وفتح الطريق أمامها لتستمر حتى نهاية حياة الدولة. وقد أرسل زمردة من أربعين قيراطاً لتوضع عند قبر سيدنا الرسول ﷺ[3].

اهتم بإعادة إعمار إسطنبول بعد تعرضها لتخريب كبير إثر زلزال 1776، وكان له دور كبير بوصول جامعي الفاتح وأيوب من الآثار المعمارية الضخمة إلى يومنا هذا.

دفع ديونَ الكثير من الناس التي وصلت إلى مئات الآلاف من ماله الخاص، لهذا عرف بين الناس برحمته وحبه للمساعدة[4].

أحد مشاريع مصطفى الثالث الغريبة، وحتى إنه يمكن تسميتها الجنونية، هو جر مياه نهر صقاريا إلى بحيرة صبانجا، وربط بحيرة صبانجا بخليج إزميت بواسطة القنوات. وقد بدأ المشروع في عهد محمد الرابع، ولكنه لم يصل إلى نتيجة. وإذا صدقنا ادعاء البارون دي توت، فإنه طور فكرة فتح قناة السويس قبل قرن من طرح مشروعها، وقد بدأ بأعمالها أيضاً. ولكن هذا المشروع وصل إلى طريق مسدود بسبب الحرب الطويلة مع روسيا وما جلبته من دمار للدولة العثمانية.

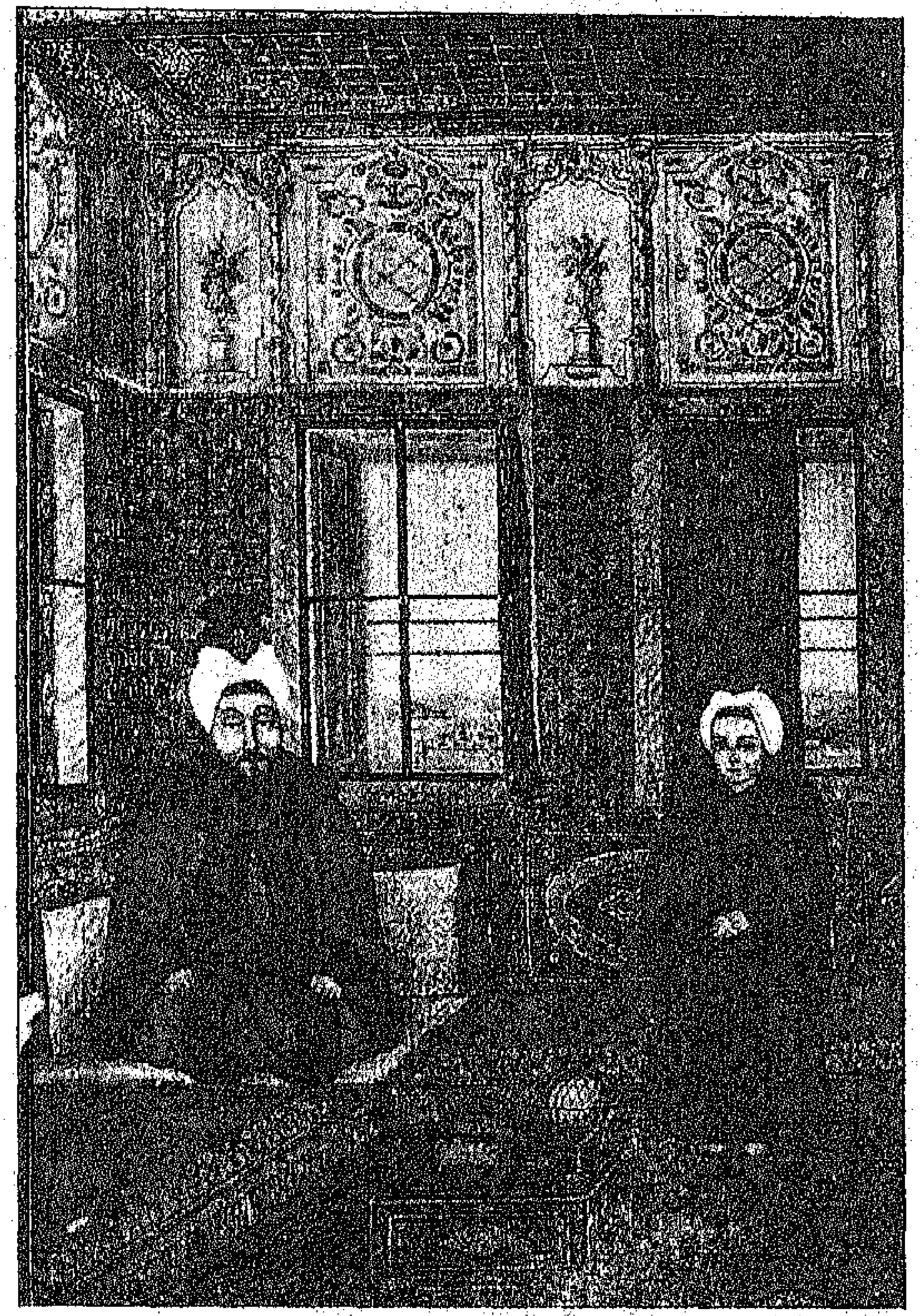
---

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد 4/ 2، ص 534.

(2) آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 151.

(3) محمد الأمين المكي، خدمات سلاطين العثمانيين للحرمين، ص 58.

(4) أحمد لطفي، نظام العدل العثماني، إعداد أردنتش بيلم، إسطنبول، 1979، ص 87 (اسم الكتاب الأصلي مرآة العدالة).



رسم يصور السلطان مصطفى الثالث والأمير "سليم" عندما كان طفلاً.
لوحة لرسام القصر رفائيل (1757-1788 تقريباً).

هل من المناسب قول إن مصطفى الثالث سلطان منحوس؟ لأن أياً من الجوامع الثلاثة التي أمر بإنشائها لا تحمل اسمه. وكان يشتكي من هذا أحياناً، فيقول: أمرت ببناء ثلاثة جوامع؛ أحدها (جامع الفاتح اليوم) لجدي، أي للسلطان محمد الفاتح، والثاني (جامع لالة لي) للمجذوب (الشيخ لالة لي)، والثالث (جامع أياظما في أسكدرا) وقد تسرب إليه الماء.

كان مطّلعاً على الأدب التركي بشكل جيد. استخدم اسم جيهان غير الفني في شعره. وكان يشعر باضطراب روح رقيقة ومتدينة نتيجة حزنه العميق لسوء

إدارة الدولة. لم تُجمع قصائده، وهي متفرقة في الكتب[1].

له مقطوعة شهيرة يشتكي فيها من قلة الرجال المؤهلين أصحاب المستوى العالي، ومن بقاء الدولة بين أيدي من ليسوا أهلاً لها:

أعتقد أن الدنيا تنهار بانهيار نظامنا

استهانت عجلة الدولة بشؤون الناس

يجول السفلة على أنهم أصحاب سعادة

لم يعد لنا غير من لم تزل رحمته

وكتب رداً على هذه المقطوعة كل من الصدر الأعظم راغب باشا قوجا، وشيخ الإسلام إسماعيل أفندي عاصم[2].

ونرى مصطفى الثالث وراء تأسيس مدرسة الهندسة البرية والبحرية باعتبارها أول مؤسسة تعليمية حديثة، وله بعض المبادرات التجديدية في الاقتصاد. جمع كل صناع الزجاج قرب قصر تكفور في أيوان سراي، وغدا المكان هناك مركزاً لصناعة الزجاج، وأنفق الدخل الوارد من أجرة الدكاكين هناك صدقة من السلطان[3]. غير هذا، عمل على تطوير صناعة النسيج، وبذل جهداً من أجل إعادة تدوير بقايا المصنوعات النسيجية.

وبحسب المعلومات التي قدمها علي بيك رضا فإن عادة إطلاق المدفع بوقت الإفطار والسحور في رمضان بدأت في عهد مصطفى الثالث[4].

لنتحدث في النهاية عن اللباس والزينة. اختار مصطفى الثالث زياً خاصاً به يختلف عن أزياء السلاطين الذين سبقوه، فقد كان يضع على رأسه ما يشبه القبعة المخروطية الملفوفة عليها لفة تشبه لفة العلماء، وعليها ريشة طويلة مزينة بالألماس.

ولننه بحثنا بالقول إنه انتسب إلى الطريقة الجرّاحية، وكتب الأبيات الآتية:

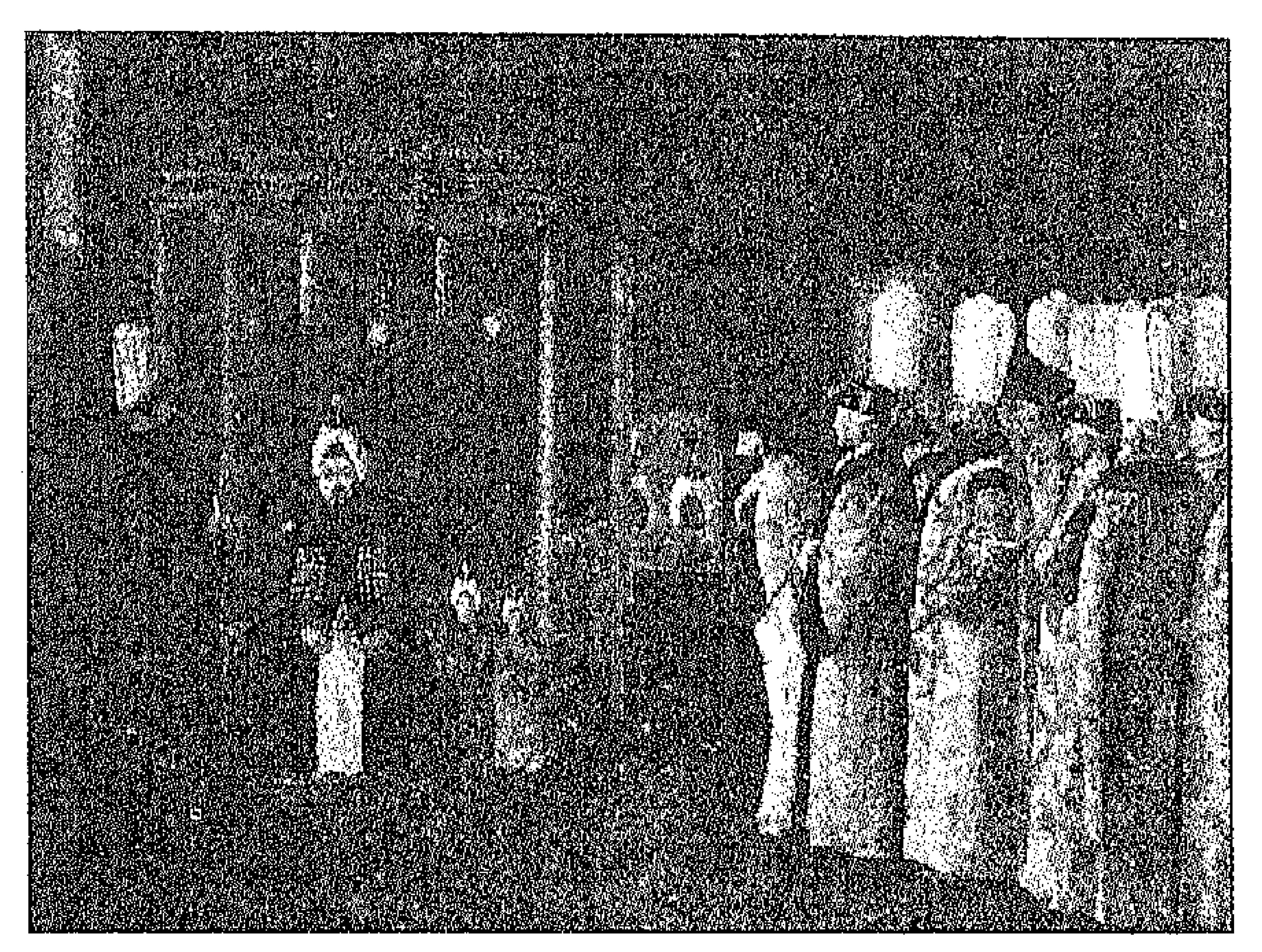
---

(1) إسان، **الجانب الشعري في الأسرة العثمانية المالكة**، ص 87.

(2) عطا بيك، **تاريخ مدرسة القصر**، المجلد الرابع، ص 67.

(3) إردم يوجل، **الأعمال الزجاجية في الفن التركي**، تركيتنا، العدد 12، شباط 1974، ص 26.

(4) الناقل سرفر ر. إسكيت، **رمضان إسطنبول في عهد التنظيمات**، التاريخ يتكلم، العدد 24، كانون الثاني 1966، ص 1944.



السلطان مصطفى الثالث يستقبل في حضرته سفير السويد أولريك كلسينغ، وبجانبه أميراه الصغيران.

أوصلتني يا رب إلى هذا المقام
وأنعمت عليّ بكثير من إحسانك
بحق سيد المرسلين وفخر الدنيا
اجعلني من الشاكرين على نعمتك
أمّنتني على عبادك الفقراء فاجعل
من نصيب عبدك أن يقوم بواجبك
أنعم علي بأن أقوم بهذه الخدمة
ووفّقني لكي أوفي أحكام خلافتك
ما أتمناه من مقامكم العليّ
يا خالق الكون أن تقبل دعائي لك

ماذا تعني دروس الحضرة؟

دروس الحضرة ثمانية دروس يقدمها علماء العصر المعروفون، وتبدأ في اليوم الأول من رمضان، وتقام في القصر في حضرة السلطان، ويديرها شخص يدعى مقرراً. وكانت تسمى "دروس في الحضرة السلطانية" أيضاً. وتعود جذور هذه الدروس التي تدور بالكامل حول موضوع التفسير إلى عهد الغازي عثمان، واستمرت حتى انهيار الإمبراطورية. تقدم الدروس في إحدى صالات القصر بين الظهر والعصر. وتتألف دروس الحضرة من ثمانية دروس، وتنتهي في العشر الأول من رمضان. يُقدِّم الدرسَ مقررٌ ومعه خمسة عشر مشاركاً. ويستمر الدرس قرابة الساعتين. يرتدي المقرر جبة سوداء، والمشاركين جباباً زرقاء. بعد أن ينهي المقرر درسه، يبدأ الأعلى رتبة من المشاركين بتوجيه الأسئلة له. وتكون الأسئلة متعلقة بالموضوع المقدم، ولا يمكن أن تكون من خارج الدرس حيث تُحرج المقرر. بعدئذ، ينتهي الدرس بدعاء المقرر. تُقدم لكل مقرر أعطية وصرة. ولا تتمايز الصرر بحسب رتب المقررين بل تكون متساوية. ولا يُعطى المشاركون سوى عطايا[1].

(1) محمد زكي بقالن، معجم المفاهيم والاصطلاحات التاريخية العثمانية، المجلد 1، ص 708-709.

السلطان الولي: عبد الحميد الأول
(1789–1774)

مثلما كان المرحوم ببايزيد خان جعل الله مثواه الجنة بعين الجميع ولياً، ويسمى الولي ببايزيد خان، يعتبر كثيرون عبد الحميد خان ولياً، ويروي المسنون الذين عاصروه حكايات كراماته.

في الحقيقة، إنه سلطان طيب القلب ورحيم.

أحمد جودت باشا[1]

عندما يُذكر عبد الحميد مجرداً في التاريخ العثماني يخطر بالبال عبد الحميد الثاني. ولكنّ وجود الثاني ألا يفرض وجود الأول؟ إنّ قرب الثاني منا، وعظمته، غطّيا على جده الذي يحمل اسمه.

حسنٌ، من هو عبد الحميد الأول؟

جلس السلطان عبد الحميد على العرش العثماني وهو في التاسعة والأربعين من عمره؛ إثر وفاة أخيه الأكبر مصطفى الثالث، وبعد خسارة الدولة أول أرض إسلامية هي القِرم. عاش هذا السلطان المرهف فترة حرجة، فقد خسر قلعة أمام الروس[2]، وأصيب بالجلطة بعد تبلغه خبر قطع رؤوس خمسة

(1) أحمد جودت باشا، تاريخ جودت: التاريخ العثماني، المجلد 2، إعداد مؤمن تشفيك، إسطنبول 1994، منشورات أوتشضال، ص 1061.

(2) يختلف المؤرخون حول ما إذا كانت هذه القلعة قلعة أوزي أم أنابا. تعتبرها بعض المصادر (أوزون تشارشلي) أنها أوزي، وفي تاريخ جابي يذكر أنها أنابا. والحقيقة هي أن السلطان حزن كثيراً لدى سماعه خبر سقوط قلعة أوزي فمرض، ولكنه بعد سماعه خبر سقوط قلعة أنابا أصيب بالشلل. انظروا إلى: فكرت صارجي أوغلو: "صورة سلطان بقلمه: السلطان عبد الحميد الأول (1774–1789) إسطنبول 2001، منشورات أوقاف التاريخ والطبيعة، ص 35. ولكن هذا الخبر ليس صحيحاً، وستسقط قلعة أنابا بيد الروس في السنوات اللاحقة.

وعشرين ألفاً من الجنود المسلمين في تلك القلعة، وأغمض عينيه على الحياة.

بحسب السجلات، إن عبد الحميد طويل القامة، وطويل الوجه، وأسمر البشرة، ونحيف الجسم، وكان ضعيف الصوت والحركة، ومرهفاً. كثيراً ما كان يتجول في المدينة متنكراً، وينبه الصدر الأعظم للأعمال غير المناسبة التي يراها.

انشغل بتحسين خطه عندما كان أميراً، واستخدم خطه هذا بكتابة المصاحف، وتزيين الأقواس والنبال.

كان عبد الحميد الأول رامياً ومصنعاً جيداً للأقواس. وطوّر هذه المهارة في حياته الطويلة في القفص.

كتب قصيدة الهجرة (مديح نبوي) بالعربية لتوضع في الروضة المطهرة، وتظهر إلى اليوم مدى حبه لرسول الله ﷺ، ونورد هنا مطلعها ونهايتها:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي
ما لي سواك ولا ألوي على أحد
فأنت نور الهدى في كل كائنة
وأنت سر الندى يا خير معتمد
(...)
فمدحه لم يزل دأبي مدى عمري
وحبه عند رب العرش مستندي
عليه أزكى صلاة لم تزل أبداً
مع السلام بلا حصر ولا عدد
والآل والصحب أهل المجد قاطبة
وتابعيهم بإحسان إلى الأبد[1]

قصة بنائه جامع بيلر بيه لافتة للانتباه. كان أحمد الأول يذهب إلى قصر إستاوروظ الواقع مكان هذا الجامع للإقامة في الصيف (هنا خيطت أول كسوة

(1) سعدي تشوينلي، وسلامي بكرجي، عبد الحميد وقصيدة الهجرة، يني أوميت، العدد 69، تموز أيلول 2005، ص 17-19؛ غير هذا انظروا إلى: حب الرسول لدى العثمانيين، إعداد زيا ديمريل، وعوني أرسلان، أنقرة 2007، منشورات آقتشاغ، ص 95-96.



عبد الحميد بريشة ج. ب. هيلاير. ويلفت طول قامته الانتباه.

للكعبة أرسلت من إسطنبول إلى مكة) ويأخذ معه البردة النبوية. مع الوقت، أنشأ لها جناحاً خاصاً. ولكن الجناح الذي أنشأه أحمد الأول للبردة النبوية في قصر إستاوروظ هُجِر مع الزمن، وهُدم. غير أنّ السلطان عبد الحميد الأول الذي يتوهج قلبه بحب الرسول أنشأ مكان جناح البردة النبوية جامع بيلر بيه لكي لا يدع مجالاً بالتقصير باحترام الرسول. والأكثر من هذا، لقد كتب لوحات خط بيده لتُعلق في جامعي بيلر بيه وإميرغان معبراً عن حبه بأعمال فنية[1].

كانت غايته من النزهات الكثيرة هي لقاء الناس، وإشعارهم بأنه إلى جانبهم. وهذا في الوقت نفسه يعطي عنه صورة السلطان المتدين:

"كان السلطان متديناً، ويصلي الظهر والعصر في جامع الحي خلال تلك الجولات، وبهذا يكسب احترام الناس وحبهم. تردُّدُ السلطان على الجوامع

(1) إردم يوجل، السلطان عبد الحميد الأول، التاريخ يتكلم، العدد 57، تشرين الأول 1968، ص 3916.

كثيراً، وإقامته الصلاة فيها رفعاه إلى درجة الصالحين، وكانا سبباً بذيوع الكثير من المناقب بحقه تجعله من الأولياء. ويتوقف جودت باشا في تأريخه عند هذا الجانب، ويدافع عن رؤية الناس وما يؤمنون به[1].

ونرى أن عبد الحميد الأول شغوف بالعلم والفن. عندما أفلس إبراهيم متفرقة، أغلقت مطبعته في عهد محمود الأول. ولم تفتح مطبعة تطبع الكتب التركية ثانية حتى عهد عبد الحميد الأول. غير هذا، أنشأ مدرسة دينية في المدينة المنورة، وأعد مكتبة ضخمة من المخطوطات، وأرسل إليها كتباً. كان مثل بقية السلاطين العثمانيين محباً لقراءة كتب التاريخ.

عبد الحميد الأول أحد أكثر السلاطين العثمانيين بذلاً لأعمال الخير. وقد أعاد الحياة لتكية المصارعين التي أنشأها جده السلطان محمد الفاتح في عهده بجوار جامع السيدة شبصفا في أونقبانِ، أي إنه السلطان الذي أحيا نادياً رياضياً ضُرب القفل على بابه.

جانبه غير المعروف كثيراً هو أنه في عهده صدر أول قرار باستخدام البضاعة المحلية في التاريخ العثماني. الهدف من هذا هو حماية الصناعة المحلية. دخلت سياسة (المركنتيلية/ التجارية) التي بدأها الصهر إبراهيم باشا النفشهيرلي جدولَ أعمال الإداريين العثمانيين بعمق، وتم إدراك أهمية حماية الإنتاج الصناعي المحلي خلال فترة قصيرة.

شبت حرائق كثيرة في إسطنبول في عهد عبد الحميد الأول، وخاصة في آب من عام 1782 حيث غدت إسطنبول وكأنها ترقص مع النار، ودارت لعبة الملاحقة بين الأهالي والنار في أزقتها[2].

لا يذكر أنه كان يمارس الرياضة، ولكننا نعرف أنه أحب الرياضة والألعاب من كتاب **رزنامة** الذي كتبه كاتبه الخاص. فقد طلب من أغوات مدرسة القصر

(1) م. تشاغاطاي ألوتشاي، رسائل حب للسلاطين العثمانيين الطبعة الثانية، إسطنبول 2001، كتب أفق، ص 125.

(2) بشير أيواظ أوغلو، ثلاثة أيام في بحر النار، إعداد مصطفى أرمغان، "هدية إسطنبول 3: ألوان الحياة اليومية"، إسطنبول 1997، إسطنبول، منشورات رئاسة دائرة الشؤون الثقافية في بلدية إسطنبول الكبرى، ص 168.

تنظيم مسابقات بالرماية، وأمر بتدريبهم على ألعاب السيف والرمح، وإدخالهم في ألعاب المصارعة. كان يكافئ الأوائل، ويمنح الرياضيين عطاءة. ونرى أنه استطاع جذب اهتمام الناس من خلال أمره بالتدريب على إطلاق المدفعية في ثكنة لوند.

كان ينظّم ليالي موسيقية فيأمر رقباءه أو العازفين بعزف الموسيقى، والمغنين بالغناء في قصر طوب قابِ، حتى إنه جلب محركي دمى خيال الظل، وشاهد عروضهم، ولها معهم. ما نراه أدناه نموذج لتوسل السلطان إلى جارية أدهش الجميع؛ حتى مؤرخ الأسرة المالكة الأجنبي فيليب مانسل[1]:

يا روهشاهي، فداك عبد الحميد. جناب الحق خالق العالم والمخلوقات يعذبني بتقصير واحد. يا سيدتي، أنا عبد وهبتك نفسي، اضربيني إن شئتِ أو اقتليني. أنا مستسلم لك. تعالي هذه الليلة أرجوكِ، والله إن لم تأتي فستكونين سبب مرضي أو موتي. أرجوكِ وأنا أمرغ وجهي بقدميك. والله العظيم لا أستطيع ضبط نفسي[2].

---

(1) فيليب مانسل، Constantinople: City of the World's Desire, 1453–1924 لندن 1995، جون ماراي، ص 226.

(2) المصدر الذي يمكنكم أن تجدوا فيه هذه الرسالة مع بقية الرسائل، محمد تشاغاطاي أولوتشاي، "رسائل حب للسلاطين العثمانيين" ص 121–134.

الرامي المسدد بالهدف: سليم الثالث (1807-1789)

لا يجوز ترك الأمة والدولة، نحن مجبورون على هذا يا صاحب الفخامة سليم.

إلهامي (سليم الثالث)

عندما جلس سليم الثالث على العرش إثر وفاة عمه عبد الحميد الأول كان في الخامسة والعشرين من عمره، وعلّق الجميع عليه آمالاً كبيرة. وكان السلطان الشاب طموحاً. ولكن الهزائم المتتالية على ثلاث جبهات، ومعاهدة ياش عام 1792 التي تخلى بموجبها عن أراضٍ للروس جعلته يرى ضرورة أن يجري إعادة نظر شاملة.

ينبغي تناول الجانب الإصلاحي لسليم الثالث من هذه الخلفية. يمكننا القول إن الشك بسلامة النظام القديم الذي حاول عبد الحميد الأول المحافظة عليه، والتردد بالخطو نحو النظام الجديد قد طبعا شخصيته وعهده.

تشير المصادر إلى أن السلطان "سليم" الثالث مربوع القامة، وطويل الوجه. لحيته خرنوبية داكنة، وحركاته هادئة وظريفة. بسبب اهتمامه بالقراءة أقيم له حفل بدء البسملة أي بدء التعليم بتاريخ 24 تشرين الأول 1766 في قصر إنجيلي. ونعرف أن درسه الأول أخذه على يد شيخ الإسلام مصطفى أفندي دري زادة.

اختار سليم الثالث مهنة النقش، وكان ماهراً بالزخرفة وطباعة الأقمشة الحريرية. أحب المجوهرات وخاصة الألماس. ألماسة نور العين التي جلبت من خزينة الشاه نادر حاكم إيران دخلت الخزينة بمساعيه الخاصة[1].

(1) مدحت سرت أوغلو، **المغامرة الشيقة للألماس المقدم لسليم الثالث** عالم التاريخ، العدد 37، 26 كانون الثاني 1953، ص 1506-1507؛ غير هذا انظروا إلى: زيا إركينس، **مساومة الألماس الشيقة بين**

عُرف سليم الثالث بأنه أكبر ملحني الأسرة العثمانية المالكة. هناك عبارة تقال: "إذا لم يُعدّ عبقرياً بالتلحين، فقد لمس حاجز العبقرية، ولكنه لم يتجاوزه"[1]. كان أستاذاً في مجالين؛ كل منهما يحتاج إلى خبرة خاصة، وهما الطنبور والناي. أستاذه في الطنبور هو الملحن فرسكو رومانو والذي يرد ذكره في الكتب باسم إسحاق الطنبوري، وهو "واحد من أكبر أساتذة الأسلوب التقليدي بالطنبور"[2].

دفاعه عن نفسه بالناي الذي بيده ضد المتمردين الذين هاجموه لقتله مشهد تراجيدي بكل معنى الكلمة.

من جهة أخرى، حظي موسيقيو عهده برعايته ودعمه، وهكذا فهو المحرّض على تألق الموسيقى التركية في القرن التاسع عشر. "تشجيع سليم الثالث للموسيقيين ورعايته لهم لعبا دوراً مهماً بنهضة هذا الفن في البلد".

من خدماته التي لا تنسى، دعمه للملحن العبقري الشيخ إسماعيل أفندي حمزة زادة، ومكافأته بلقب "مصاحب السلطان"[3]. وسليم الثالث هو الذي طلب من الشيخ عبد الباقي إيجاد نظام تدوين موسيقي بالحروف الأبجدية، وتدوين المقطوعات الموسيقية التركية.

وهذا تقييم رؤوف بيك يكطا آخر شموس الموسيقى التركية العظيمة للجانب الموسيقي لدى سليم الثالث:

"إذا أردنا تقييم موقع سليم الثالث الموسيقي في تاريخ موسيقانا القومية، فيرى صاحب هذا الرأي المتواضع أنه ليس من الصحيح وضعه في مصاف الملحنين العظماء أمثال العطري وددة أفندي، ولكن ينبغي وضعه في مصاف

العثمانيين والإيرانيين التاريخ يتكلم، العدد 31، آب 1966، ص 2529–2531.

(1) تحسين طونالي، السلطان الملحن سليم الثالث، مجلة الحياة تاريخ، العدد 1، شباط 1965، ص 48.

(2) بولند آقصوي، حول علاقة الموسيقى التركية التقليدية باعتبارها ثقافة عليا بموسيقى الثقافة الدنيا، بيريكيم، العدد 71–72، آذار – نيسان 1995، ص 210–211.

(3) انظروا إلى: سزائي كوتشوك، القرن الأخير للمولوية إسطنبول 2003، منشورات سيمورغ، ص 379 و384.

طبعي وسعد الله آغا، ودلال زادة من الملحنين المهمين"[1].

هوايته الأخرى في ميدان الموسيقى هي تركيب المقامات. فقد ركّب أربعة عشر مقاماً، وتطبيق هذه المقامات عملية معقدة.

بين أيدينا اثنان وستون لحناً مدوناً. عرف على الأكثر بمقامي سوزي ديلارا وابتهال مولوي[2]. ويعتبر البعض "سليم" الثالث "سلطاناً بدوام جزئي" لأنه خصص أغلب وقته للموسيقى[3].

وصلتنا أيضاً كلمات أغنية يقال إنه لحنها قبل مقتله بليلة، وجاء هذا في مصدر إنكليزي (يقال إن الكلمات الأصلية موجودة في المكتبة البريطانية). ويلفت النظر التشابه بين لحن ددة أفندي لهذه الأغنية على مقام البياتي، وتلك التي لحنها[4].

من خصائصه التي ينبغي ذكرها أنه خطاط. كان خطه جميلاً، وكتب الفرمانات بخط تعليق مشتق[5]. ووصلتنا بعض نماذج خطه، مثلاً البسملة المزدوجة. وتبادل الرسائل عندما كان أميراً مع ولي العهد الفرنسي (صار الملك لويس السادس عشر في ما بعد)[6].

سليم الثالث متعدد المواهب الفنية كان شاعراً متوسطاً، إذ لم يصل شعره إلى مستوى موسيقاه. ويُلاحظ من القصائد التي كتبها باسم إلهامي الفني أنها تشع بصدق محبب. تُشعر قصائده بتمرد خفيف وحزين، ويعبر من خلالها

(1) ما نقله سليمان أرغونر من مقالة رؤوف يكطا بعنوان: سليم الثالث موسيقياً المنشورة في مجلة المجموعة الجديدة، في مقالته: "اسمه الفني إلهامي، وهو سلطان"، عالمنا الموسيقى، العدد 73، 1999، ص 168. كتبت مقالته بالحروف اللاتينية في ما بعد. انظروا إلى: سليم الثالث موسيقياً، المجلة الموسيقية، العدد 465، 1999، ص 48 – 51.

(2) يلماظ أوزطونا، موسوعة الملحنين الأتراك ص 54. (ملحق مجلة الحياة، العدد 23، تاريخ 29 أيار 1969).

(3) إلبر أورطايلي، محاسبة العصر القريب، مليبيت، 4 أيار 2003.

(4) بولند آقصوي، الأغنية التي لحنها سليم الثالث في الليلة التي سبقت مقتله، مجلة الأبحاث التركية، العدد 8، إسطنبول 1997، ص 31-34.

(5) أوزن تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد 5/ 2، ص 553.

(6) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، مراسلات سليم الثالث عندما كان أميراً مع ملك فرنسا لويس السادس عشر، بللتن، العدد 5-6، كانون الثاني – نيسان 1938، ص 191-246.

عن أفكاره ببساطة وصدق[1]. وصداقته مع الشيخ غالب المولوي الذي يعتبر أحد آخر عمالقة الشعر الكلاسيكي التركي مؤشر كافٍ على ميوله نحو الشعر والتصوف. ولكن شاعريته تبقى خافتة مقارنة بتلحينه.

دعمه لمحركي دمى خيال الظل يجعله راعياً لهذا الفن الذي استمر إلى يومنا. كان حافظ بيك خيالي أحد أهم محركي دمى خيال الظل يقدم عروضاً في القصر ويحظى بتقدير سليم الثالث.

قُدِّم أول عرض باليه في تركيا في القصر بحضوره. سر السلطان كثيراً بالعرض الذي قدمته بنات سفير مملكة الصقليتين وقنصل فرنسا في إزمير، وبادرت أخته السلطانة خديجة بتعليم جواري القصر هذا الفن. وهكذا، كان أول دخول للباليه إلى تركيا عن طريق القصر[2].

تمكن السلطان العثماني صاحب الروح الفنية الأعظم من الإمساك بالسيف والناي باليد نفسها. كان الموسيقي سليم الثالث ماهراً بصناعة السلاح، فقد صنّع البنادق التي نراها في المتاحف وفق حسابات دقيقة لآلية التصويب إلى درجة أن مقذوفها يصيب الهدف بالضبط.

كان مدمناً على نشوق يُصنع من العشب لكي يريح نفسه[3].

كان مشهوراً برماية النبال. يرد في أحد المصادر أنه أطلق سهماً قطع 732 متراً، ولم يكن في الجيش العثماني سوى راميين فقط يستطيعان رمي السهم إلى المسافة التي يرميها[4]. وتتحدث الكتابة التي على الدريئة الحجرية أمام جناح الخزينة القديم أن "سليم" الثالث تمكن من إصابة هدف بالبندقية من بعيد في مزرعة لوند.

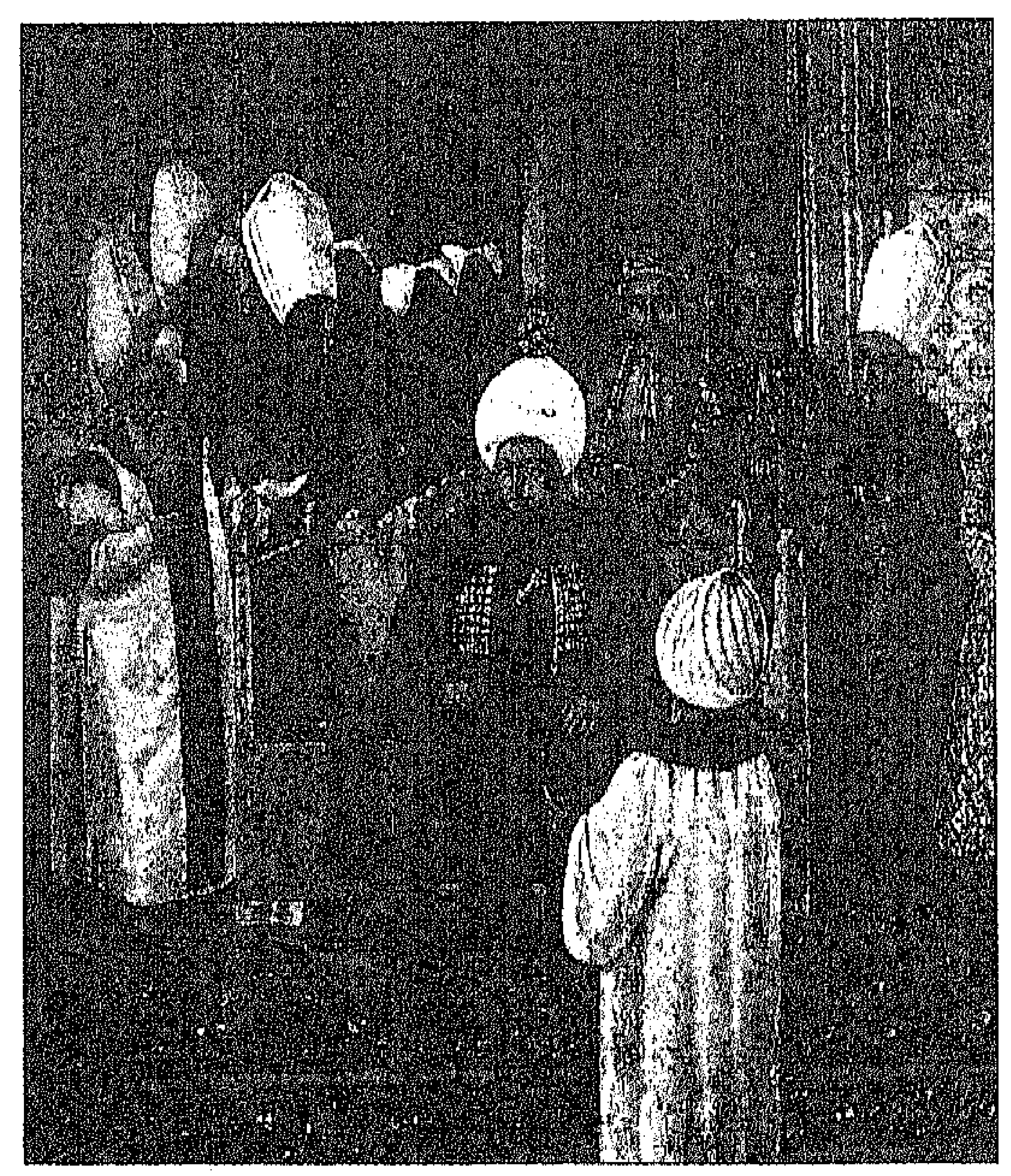
الأفضل أن ننهي هذا الموضوع المحزن بمديح سليم الثالث الرائع لسيدنا

(1) إسان، الجانب الشعري لدى الأسرة المالكة العثمانية، ص 88.

(2) نور الله تيلغن، **الرقص الإيقاعي والباليه في تركيا**، الموسوعة الشهرية، رقم 50، حزيران 1948، ص 1453.

(3) **طرائف تحمل عبرة من التاريخ العثماني**، مجلة التاريخ المصورة، العدد 4، نيسان 1950، ص 1453.

(4) Sir Ralph Payne-Gallwey, The Projectile: Throwing Engines of The Ancients, With a new introduction by E.G. Heath, 1973, Rowman and Littlefield, Totowa, New Jersey, p. 22-23.



سليم الثالث يتقبل التهنئة بالعيد (1789) الرسام: قسطنطين قابضاغلي.

الرسول:

لِمَ لا نرفع الهامة فخراً بمديحك

صف عظمة الرسول دولتك

لم تر الدنيا محبوباً مثلك

سروة نور لمن يراها هامتك

بعثك الله للخليقة مخلصاً

برفعة العرش يا رسول الله مكانتك

نحمد الله أنه جعلنا من أمتك

لا يمكن إيفاؤك حمداً على نعتمك

لو أساء لك الكافرون جهلاً
فقد رضخوا عندما رأوا عظمتك
عيني ترى بعثك جوهر الحق
لعلها تحظى يوم الحشر برؤيتك
أنت شمس العالمين يا فخر الرسل
ختَمَ النبوة بضياء خاتم نبوتك
تلطف علي بإحسانك وقدرتك
أنت ملك ملوك العالمين برفعتك
اعتقني من هم الظلام بكرمك
واغمر أمتك العاجزة بشفاعتك
قلبي بحاجة إلى كل شعاع من ضيائك
لنشمخ مباهين بنشوة بعثك
ملائكة تسعة بحار وأنسها وجنها لك
ملأت ثمانية عشر إقليماً شهرتك
أنت حامل رسالة رب العرش
أنا دائماً أذكرك وأصلي عليك
وصفك هذا الذي أُلهمت بكتابته
سيبقى بخدمتك إلى يوم شفاعتك
ألف صلاة وسلام تدفق بطهرك
يرجوك "إلهامي" أن تمنحه شفاعتك
رب اعصم لساني عن لهب العصيان
أكرمني بأن تغمرني برحمتك

وجه غامض مسحه العرش: مصطفى الرابع (1808-1807)

يشبه مصطفى الأول بضعف شخصيته.

جاويد بايصون

جلس السلطان مصطفى الرابع، ابن عبد الحميد الأول على العرش حين كان في الثامنة والعشرين من عمره، وكان قد وصل الصراع بين المجددين والمحافظين في الدولة إلى ما يشبه لعبة الشطرنج. هل ستتابع مبادرات التجديد التي لم يستطع سليم الثالث الحزم فيها، وأوقفت خلال فترة قصيرة، أم ستترك جانباً؟ لقد سقط مصطفى الرابع وسط هذا الصراع الحاد.

أمضى أقصر فترة حكم في تاريخ الأسرة العثمانية المالكة الطويل، وسرعان ما أُسقط بتمرد جديد. وأثناء انتظاره أغوات الثكنات لإعادته إلى العرش، راح ضحية انقلاب مضاد، وقُتل بأمر سلطان المجددين محمود الثاني.

لم تذكر المصادر أي خاصية شخصية لدى مصطفى الرابع الذي لم يبق جالساً على العرش سوى سنة وشهرين. ولكن مصادر كثيرة، وعلى رأسها **شرح تسلسل التاريخ العثماني** لإسماعيل هامي ضانيشمند دمغته بدمغة **السلطان** الرجعي. لا بد من اعتبار وصف ضانيشمند المحزن له بأنه "شديد المكر" و"طموح" ولكنه ضعيف الذكاء دليلاً على أنه منحاز[1]. متى كان الطموح مستهاناً به في السياسة؟

من الغريب أيضاً أن "جودت" تصرف وكأنه لم يكن هناك سلطان كهذا،

(1) إسماعيل هامي ضانيشمند، شرح تسلسل التاريخ العثماني، المجلد الرابع، إسطنبول 1961، منشورات تركيا، ص 88.

وهـو الـذي سـجل ذلـك العصـر بـكل تفاصيله، ولـم يكن كتابـه **تاريخ جودت** يسـقط مـن الأيـدي علـى الرغم من توجيه النقد إليه لشـدة احترامه السـلاطين. حتـى إن المصفّـق لتمـرد القباقجـي الذي أتى بمصطفى الرابـع إلى العرش "أبو بكر" أفندي تجنب بشـكل خاص تناول صفاته الشـخصية. وصف مشـيته وهو في طريقه للجلوس على العرش بعبارة: "كطاووس الجنة المدلل"[1]، وهذا مع الأسف لا يتعدى كونه صورة أدبية.

ولكن هناك رواية تفيد أنه حزن حزناً شديداً عندما علم أن البدو هاجموا موكب الصرة الوحيد الذي استطاع إرساله إلى الأرض المقدسة، وانسكب من لسانه هذان البيتان:

نوينا الذهاب إلى بيت الله
وتمريغ وجهنا بالحجر الأسود
والوقوف على عرفة أيضاً
قالوا التقدير يخرب كل تدبير[2]

(1) عبيد الله كوشماني وأبو بكر أفندي، إعداد آيسل ضاناجي يلضظ، **العصاة والغزاة: رسالة مصطفى قباقجي**، إسطنبول 2007، منشورات كتاب، ص 120.
(2) ديمريل وأرسلان، مصدر سبق ذكره، ص 99.

مطعّم الصدف والخطاط والرياضي: محمود الثاني (1839–1808)

خرج المحافظون عن طورهم لأن "محمود" الثاني ألبس ابنته السلطانة عطية بذلة ضابط، وجمع شعرها تحت الطربوش وأخرجها بالسروال، وأرسل شقيقها عبد المجيد معها إلى الجيش باسم قائد الجيش.

يلماظ أوزطونا

عندما أُجلس محمود الثاني على العرش مكان أخيه الأكبر مصطفى الرابع إثر تمرد مضاد كان في الرابعة والعشرين من عمره. لم تكتمل مبادرات سليم الثالث الإصلاحية، وبحسب جودت باشا فقد انقطع ارتباط إسطنبول في عهد مصطفى الرابع بالولايات والمقاطعات تماماً، وهذا يعني أن السلطان لم يعد يستطيع إصدار أوامره للمناطق النائية. وهكذا أصيبت آلية الدولة بالشلل في عهد مصطفى الرابع الذي بدا سلطاناً شكلياً، وأصيب الشعب بالإحباط نتيجة عدم حلّه مشاكله. يبدو أنه كانت ثمة مشكلة مشروعية. كانت المرحلة معقدة وتتطلب تسويات جديدة لا يكفي فيها الجلوس على العرش في إسطنبول.

جلس محمود الثاني على العرش في عصر عانت الدولة فيه مشكلة الوجود، وقد عُلِّقت عليه آمال كبيرة كما كان الأمر لدى جلوس سليم الثالث.

تعرّف الكتب شخصية محمود الثاني بأنه مربوع القامة، ونصف جسمه العلوي أطول من نصفه السفلي، وعريض الكتفين. لحيته خرنوبية، وأصبحت بيضاء تماماً في أواخر حياته. وجهه ظريف ومحبب، وعيناه زرقاوان داكنتان جميلتان نظرتهما ذات معنى.

أعطى سليم الثالث أهمية لتنشئة أميره محمود، وتلقى تعليماً في الدين



عبارة طلب الشفاعة من رسول الله بخط الثلث الجميل بتوقيع محمود الثاني.

والأدب والموسيقى والكتابة والمدفعية في جو من الحرية.

محمود الثاني موسيقي كبير، بمستوى قريب من مستوى سليم الثالث. وهناك ستة وعشرون لحناً له وصلت إلى يومنا. من ألحانه الشهيرة لحن حجاز ديوان[1].

كان يعزف على الطنبور والناي. إضافة إلى هذا، كان يُقيم "حفلات موسيقية لفرقة كبيرة"، ويأمر بدعوة موسيقيّي عصره وشيوخه ودراويشه وخاصة المولويين، ويشعر بسعادة عظيمة من ظهوره بجانبهم[2].

بفضل رعايته لمشاهير الموسيقى الكلاسيكية أمثال دلال زادة، وكبير المؤذنين شاكر آغا، والشيخ إسماعيل أفندي حمامي زادة استمروا بالتألق. لا بد لنا من القول إنه خدم تطوير الشعر الشعبي من خلال تأسيس "جمعيات الشعراء الشعبيين" من أجل تنظيمهم بعد أن صاروا يتدفقون إلى إسطنبول مع انتشار مقاهي الحفلات الموسيقية[3].

غير هذا، يروى أنه من المطربين النادرين. كان يُسمع صوته القوي مغنياً

(1) نجدت صقا أوغلو، محمود الثاني/ موسوعة العثمانيين حياتهم وأعمالهم، المجلد الثاني، ص 62.

(2) سزائي كوتشوك، مصدر سبق ذكره، ص 379.

(3) م. ناظمي أوزالب، الموسيقى التركية في العصر العثماني الوطن التركي، (عدد خاص بالذكرى السبعمائة لتأسيس الدولة العثمانية)، العدد 148-149، كانون الأول 1999 - كانون الثاني 2000، ص 334.



لوحة بخط من نوع المحقق للسلطان محمود الثاني.

في القصر بمتعة. وبحسب زيا شاكر: "كان العازفون والمغنيات يطربون عندما يغني الغزل إلى درجة ارتمائهم على ركبتيه"[1].

هناك قصائد كتبها محمود الثاني بالاسم الفني عدلي. كان شاعراً متوسطاً. كتب هذا المديح النبوي بمناسبة إرساله شمعداناً ذهبياً ليوضع عند قبر سيدنا الرسول في الروضة المطهرة:

تجرأت على إهدائك شمعداناً يا رسول الله
قصدي خدمة المقام الأعلى يا رسول الله
لا يليق بروضتك عالية المقام
أنعم عليّ وأَحْسِنْ بالقبول يا رسول الله
من لي غيرك يا سيدي أشكو له ألمي
وأستجديه قوة ونعمة يا رسول الله
أتوسل إليك وأرجوك السعد واقع عليك
ترحم عليّ، وكن شفيعي يا رسول الله
قرّب "محمود" خان عدلي منك في الدنيين
الدولة والأول والآخر لك يا رسول الله

(1) زيا شاكر، مصدر سبق ذكره، ص 2925.

كما عُرفت عنه رعايته للأدباء.

بدأ حب محمود الثاني للخط منذ كان أميراً، وتدرب ليكون خطاطاً جيداً. خضع لتدريب في خط النسخ والثلث من محمد وصفي أفندي كبجي زادة، وكتب في أواخر عهده بالإمارة لوحة جميلة، وحصل بموجبها على الإجازة (1807). وفي الفترة نفسها كتب مصحفين.

واستمر بكتابة الخط بعد أن أصبح سلطاناً، وأخذ دروساً بكتابة الثلث الجلي على يد مصطفى أفندي راقم؛ إحدى قمم فن الخط. وتقدم بكتابة خطوط الجلي إلى درجة اقترابه من مستوى أستاذه.

لوحة التعليق الجلي فوق آخر باب لغرفة العرض في قصر طوب قابِ بخطه. يمكننا رؤية لوحات خط من كتابته اليوم في جامع أُلُو في بورصة، وعند قبر والده عبد الحميد الأول[1]، وقبر مولانا في قونية، وفي جامع الوالدة في آق سراي، وغيرها[2]. وصلنا أكثر من ستين لوحة مكتوبة بالخط الجلي.

يمكن رؤية ثمانية أعمال خط له في متحف الأوقاف التركية لفن الخط. استخدم تقنية تدعى مالاكاري على أرضية بلون أسود أو نفطي أو أزرق أو أحمر داكن لتكون الكتابة نافرة، وليعلقها في مختلف الجوامع والأمكنة[3].

ولكي يحبب محمود الثاني الشعبَ بالرسم، ويكسر المقاومة ضده طلب من الرسام الأرمني من مدينة قيصري رسم لوحة نصفية له، وتعليقها في الدوائر الرسمية، وعندما أراد شيخ الإسلام أن ينتقده أمر برسم واحدة له، وأهداه إياها[4].

السلطان محمود الثاني معلّم تطعيم صدف أيضاً. كان يطعّم الصدف في أوقات فراغه مع معلم استقدمه بشكل خاص من دمشق يدعى حمدان.

(1) كمال بيه ديللي، محمود الثاني/ الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 27، أنقرة 2003، ص 356.

(2) غير هذا، انظروا إلى: بكطاش أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 292؛ علي رضا أوزجان، مصدر سبق ذكره، ص 99.

(3) علي ألبصلان، فن الخط لدى محمود الثاني/ موسوعة العثمانيين حياتهم وأعمالهم، المجلد 2، ص 62؛ أوغور درمان، فن الخط لدى محمود الثاني، ندوة السلطان محمود الثاني وإصلاحاته، إسطنبول 1990، منشورات كلية الآداب في جامعة إسطنبول، ص 37-47.

(4) آيلا أرصوي، السلاطين وفن الرسم، أنتيكا وديكور، العدد 50، كانون الثاني 1999، ص 74.

لم يكن محمود الثاني يحتمل الجمود، بل كان هاوياً للصيد والرياضة، حتى إنه يعدّ من أكثر السلاطين العثمانيين اهتماماً بالرياضة.

كان ماهراً برماية النبل وكذلك باستعمال البندقية[1]. تلقى دروساً على يد المعلم حافظ أفندي لستة شهور، ويوم حصل على القبضة نجح بإطلاق السهم على مسافة 1221 "غز" (الغز 66 سم، أي 805 أمتار)[2].

غير هذا، فهو صاحب الرقم القياسي 810,48 متراً. الاعتقاد أن هذا الرقم القياسي نوع من الواسطة للسلطان فيه ظلم لمحمود الثاني. لأن هذا الموضوع كان حساساً جداً. حتى إن موظَفَين طُردا من وظيفتيهما لأنهما حاولا إظهار مكان سقوط السهم أبعد من مكان سقوطه الفعلي[3].

طلب من مصطفى أفندي كاني كتابة أطروحة "تلخيص رسائل الرماة"، وخلدها بالطلب من أشهر خطاطي عصره عزت أفندي مصطفى أن يكتبها.

اهتم محمود الثاني برياضة المصارعة والفروسية بالإضافة إلى الرماية. وجاء في السجلات أنه حوّل مدرسة القصر إلى مركز رياضي وموسيقي. غير هذا، الغريب أنه منع رياضة الرمح على الرغم من أنه رامي رمح جيد[4].

بحسب ما نعرفه من طرائف المدرسة السلطانية أنه عندما يهطل الثلج فإنه يجلب أغوات الغرف البعيدة إلى ساحة شيمشيرلك في قصر طوب قاب، ويجعلهم يلعبون بكرات الثلج، ويستمتع بالتفرج عليهم[5]. ونعرف من المصدر

(1) خلوق ي. شخصوار أوغلو، موت السلطان محمود الثاني، مجلة التاريخ المصورة، العدد 49، كانون الثاني 1954، ص 2821.

(2) من أجل تفاصيل عن مراسم الحصول على القبضة وشهادة السفير الأمريكي حينئذ على الرمية انظروا إلى: عاطف قهرمان أوغلو، رياضة السلطان محمود الثاني، الثقافة التركية، العدد 118، آب 1972، ص 1068–1072؛ غير هذا، انظروا إلى: جمال الدين سرفر روناق أوغلو، "ساحة الرماية التي أسسها الفاتح وتكية الرماة" التاريخ يتكلم، العدد 26، آذار 1966، ص 2172.

(3) من أونسال يوجال، الرماية التركية، أنقرة 1999 الناقل: مراد أوزفيري، "الرماية لدى العثمانيين" التاريخ الاجتماعي، العدد 137، أيار 2005، ص 70–75، الهامش 21.

(4) سليم صوم تشاغ، الحيوانات في إسطنبول، إعداد مصطفى أرمغان، "هدية إسطنبول 3: ألوان الحياة اليومية" إسطنبول 1997، منشورات دائرة الشؤون الثقافية في بلدية إسطنبول الكبرى، ص 168.

(5) إلياس آغا حافظ خضر، تاريخ مدرسة القصر، وطرائفها 1812–1830، إعداد جاهد قايرا، إسطنبول 1987، منشورات غونش.



لوحة حفر تقدم صورة لمحمود الثاني بالبذلة العسكرية بعد ثورة اللباس التي حققها.

نفسه أنه في عهده جُلِبَت أول زرافة إلى إسطنبول.

أبدى محمود الثاني ميلاً نحو عادات الطعام الغربي، إلى درجة أنه كان يعد موائد مفتوحة إفرنجية في بعض أعراس السلطانات وزيارات الأمراء الأجانب. غير هذا، فهو أول سلطان أهدي مجموعة سكاكين وشوكات. الغريب بالأمر أن الذي قدّم هذه الهدية يذكر في تاريخنا المعاصر أنه محافظ وغير مسرور من الإصلاحات، إنه الصدر الأعظم خسرف باشا. ولكننا لا نعرف ما إذا كان قد استخدم الشوكة والسكين في تناول الطعام[1].

صار اسمه السلطان الكافر بسبب إصداره قراراً حازماً يفرض على الموظفين اعتمار الطربوش، ولكنه نفّذ حركة مبرمجة على طريق إصلاح الأضرحة ذات الأهمية الدينية. أصلحت قبور الصحابة المدفونين في إسطنبول بمساعيه.

(1) صباح الدين ترك أوغلو، خدمات المطبخ وتقاليده في القصر العثماني أعجب السلطان: ثقافة مطبخ تمتد سبعة قرون، أنقرة 2000، منشورات وزارة الثقافة، ص 51.

أمر بكثير من الأعمال الخيرية في مكة والمدينة. مثلاً، أمر بإعادة بناء بيت سيدتنا خديجة، وأنشأ مساجد في البيت الذي وُلد فيه سيدنا الرسول ﷺ والأمكنة التي صلى فيها. وإن وجدت وكانت مهملة فقد رممها، وبهذا بذل جهوداً لإحياء هذه القيم المباركة[1]. وأعاد بناء قبة الحجرة المدفون فيها سيدنا الرسول، وصبغها بالأخضر. وشهرة "القبة الخضراء" اليوم تعود لتغيير لونها في عهد محمود الثاني[2].

إنه منتسب إلى الطريقة الجراحية. ولكنه كثيراً ما كان يتردد على مجالس المولوية، وخاصة مجلس الشيخ علي نطقي في يني قابِ. يمكنكم أن تقرأوا حادثة غريبة أثناء تردده حينئذ.

لنبين هذا في النهاية: مات أول توأمه محمود ومحمد في سنته السابعة، والثاني في شهره السابع.

(1) من أجل معلومات أوسع، انظروا إلى: محمد الأمين المكي، **خدمات السلاطين العثمانيين للحرمين**، ص 60-66.

(2) نبي باشقورت – مصطفى صبري كوتشوك آشتشي، **المسجد النبوي** الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد، 29 إسطنبول 2004، ص 284.

مَنْ المقبول في التكية، السلطان محمود أم الدرويش محمود؟

سمعت هذا من والدي آخر شيوخ مولوية يني قابِ عبد الباقي أفندي.

في المرحلة الأولى لعهد محمود الثاني. كان علي أفندي نطقي شيخ مولوية يني قابِ. وكان مسموعَ الكلمة والحديث، ونظيفاً حقيقة من الداخل والخارج. القول إن شاعرنا الشهير الشيخ "غالب" كان من دراويش الرجل الذي نتحدث عنه لا يترك مجالاً لإضافة شيء.

كان السلطان محمود يتردد إلى التكية بين الحين والآخر، ويقدم إحساناً للدراويش بعد انتهاء الذكر.

لم يكن الأفندي الشيخ يصوّب تصرف السلطان هذا، ولكنه لم يجرؤ على القول بشكل مباشر:

"لا تعط الدراويش نقوداً، ولا تحسن إليهم".

فهذا سيكون مخالفاً لقواعد اللياقة.

من جهة أخرى، لم يرد أن يعتاد الدراويش على إحسان السلطان.

أتى السلطان محمود ذات يوم إلى التكية، وبعد الذكر انخرط بالحديث مع الشيخ علي نطقي في غرفته. وحين سنحت الفرصة، قال له:

"شيخي، هل تأمرني بشيء؟".

قال الأفندي الشيخ:

"أستغفر الله، لا شيء".

ألح السلطان:

"فلتأمرني بشيء يا عزيزي لأفعله".

لم يستطع الشيخ الكبير أن يحتمل فقال:

"هناك شيء، ولكنكم لا تستطيعون فعله".

استغرب السلطان محمود من هذا الجواب خاصة أنه مغرور، وقال مظهراً توتره:

"كيف هذا؟! قولوا لأفعله".

حينئذ نهض الأفندي الشيخ، وأجاب:

"إذاً، لا تأتوا إلى هذه التكية مرة أخرى".

سأل السلطان وهو مندهش:

"هل تطردني من باب أولياء الله؟".

اسمعوا جواب الشيخ:

"إذا أردتم أن تأتوا إلى هنا باعتباركم "محمود" أفندي، فتعالوا. ولكن، إذا كنتم ستأتون إلى هنا باعتباركم السلطان "محمود"، وأحسنتم للدراويش، وحولتم قلوبهم من الله إلى كيسكم، فلا تأتوا"[1].

---

(1) رسوخي بايقارا، طرائف غير معروفة عن خمسة سلاطين، عالم التاريخ الجديد، العدد 1، 17 أيلول 1953، ص 43.

راعي ددة أفندي ويوهان شتراوس:
السلطان عبد المجيد
(1861-1839)

عبد المجيد شاب وسيم وظريف تزين وجهه الشاحب لحية سوداء مهيبة على الرغم من أنه في السابعة عشرة من عمره. يبدو السلطان نحيل البنية أكثر من كونه مريضاً، ويضع طربوشاً أحمر عليه إبرةٍ ألماسية، ويلبس رداء كحلياً كوالده، ولكنه يبدو أكثر صمتاً، وعابس الوجه أكثر من السلطان محمود.

مولتكة

جلس السلطان عبد المجيد على العرش يافعاً وهو في السابعة عشرة من عمره إثر وفاة والده، ومعه بدأت مرحلة سلاطين التنظيمات. ستطبع سمة التجديد "الإفرنجي" الإدارة العثمانية بطابعها اعتباراً من الجزء الأخير من عهد عبد العزيز الذي أتى بعده، وعهد عبد الحميد الثاني؛ ما عدا جزءاً بسيطاً منه.

يبدو عبد المجيد من صوره رهيف البنية، وأشقر الشعر، وأزرق العينين، وشاحب الوجه الذي يبدو عليه أثر خفيف للجدري. كان وجهه محبباً على الرغم من عدم وسامته، وحركاته رقيقة. وهو مهذب جداً، وراقٍ.

عبد المجيد هو السلطان العثماني الوحيد الذي جلس أولاده الأربعة على العرش (وهم مراد الخامس، وعبد الحميد الثاني، ومحمد رشاد الخامس، ووحيد الدين)، وكان يشغل نفسه في أوقات فراغه بصناعة الأقواس والنبال.

عندما يصل الأمراء العثمانيون إلى سن التعلم، يبدأون تعلّمهم بحفل يسمى بدء البسملة. جاء هذا الاسم من قول المعلم "بسم الله" عندما يأتي التلميذ ويقفون أمامه في حفل يشبه العرس.

أقيم حفل بدء البسملة لعبد المجيد بعرض صاخب. وقد سجلت مراسمه بتفاصيلها:

في السابع عشر من ربيع الآخر لعام 1247 أقيمت مراسم بدء البسملة الشريفة للأمير السلطان عبد المجيد خان. بهذه المناسبة، نُصبت خيمة سلطانية غاية في الجمال والزينة بثمانية عشر عموداً في فسحة سهل إبراهيم آغا أمام قصر أوسكدار السلطاني، كما نصبت خيام أخرى من أجل أركان الدولة والعلماء والجنود، وتلاميذ المدرسة، والزوار والضيوف. أقيمت الولائم في تلك الخيام. على الرغم من العادة القديمة التي تقتضي عدم حضور أحد من أصحاب طريق العلم غير شيخ الإسلام أفندي والصدر نقيب الأشراف، فقد دعي علماء إسطنبول جميعاً[1].

اهتم السلطان عبد المجيد بالموسيقى مثل والده. وفي عهده أعطيت أول دروسٍ بالموسيقى بالمعنى الغربي في القصر. كان يعزف على البيانو، ويحافظ على الموسيقى الغربية بقدر ما يحافظ على الموسيقى التركية[2].

كان محباً لـددة إسماعيل أفندي، ويستمع إليه. ولكن ددة أفندي حزن لاهتمامه بالموسيقى الإفرنجية فقط، وعدم اهتمامه بالموسيقى التركية الكلاسيكية مثل سليم الثالث ووالده محمود الثاني، وبقائه مستمعاً لها فقط، وكان هذا سبب انقطاعه عن القصر. ويروى أنه عبّر عن يأسه بقوله: "لقد فقد هذا الأمر طعمه"، وهذا ما جعله ينوي السفر إلى الحج. وفي طريقه إلى هناك، أصيب بالكوليرا ومات. ومن خلال اكتشافه الخطاط الكبير والموسيقي مصطفى عزت أفندي طوصيالي وهو يرفع الأذان في جامع هداية، نعرف أن لديه أذناً موسيقية على درجة رفيعة.

لم يكتشف موسيقيونا وحدهم حبه للموسيقى، بل اكتشف هذا الموسيقيون الغربيون أيضاً، وتحينوا الفرص ليقدموا له ألحانهم. وقد قدّم الموسيقي النمساوي الشهير يوهان شتراوس بعض ألحانه لعبد المجيد، وكافأه مقابلها بمبلغ كبير. نعرف

(1) محمد زكي باقالن، قاموس المقولات والإصطلاحات العثمانية، المجلد 1، إسطنبول 1964، منشورات التربية القومية، ص 193.

(2) وداد قوصال، تغربت الحياة الموسيقية أولاً غوستري، العدد 212، تموز – آب 1999، ص 63.

بعض نماذج خطه إلى يومنا. ويمكننا القول إنه السلطان صاحب أكثر لوحات خط بقيت إلى عصرنا.

فعلى سبيل المثال، إن اللوحات التي تحمل أسماء الخلفاء الأربعة في جوامع علي باشا قلتش، وأورطا كوي، وضولما بهتشة من أعماله. له لوحة في مكتبة جامعة إسطنبول أيضاً. كما أن لوحات الآيات في جامع السترة الشريفة، واسم الجلالة واسم النبي وأسماء خلفائه الأربعة، واسمي سيدنا الحسن وسيدنا الحسين في جامع ياقاجق من أعماله[1].

بعض المعتقدين أنهم يقومون بأمر جيد في بداية عصر الجمهورية طمسوا قسم التوقيع من لوحة "هو الله" المتناظرة الرائعة التي أهداها عبد الفتاح أفندي لجامع أُلُو في بورصة لأنه يحمل شكراً للسلطان، ثم أعيد إبراز التوقيع خلال عملية الترميم.

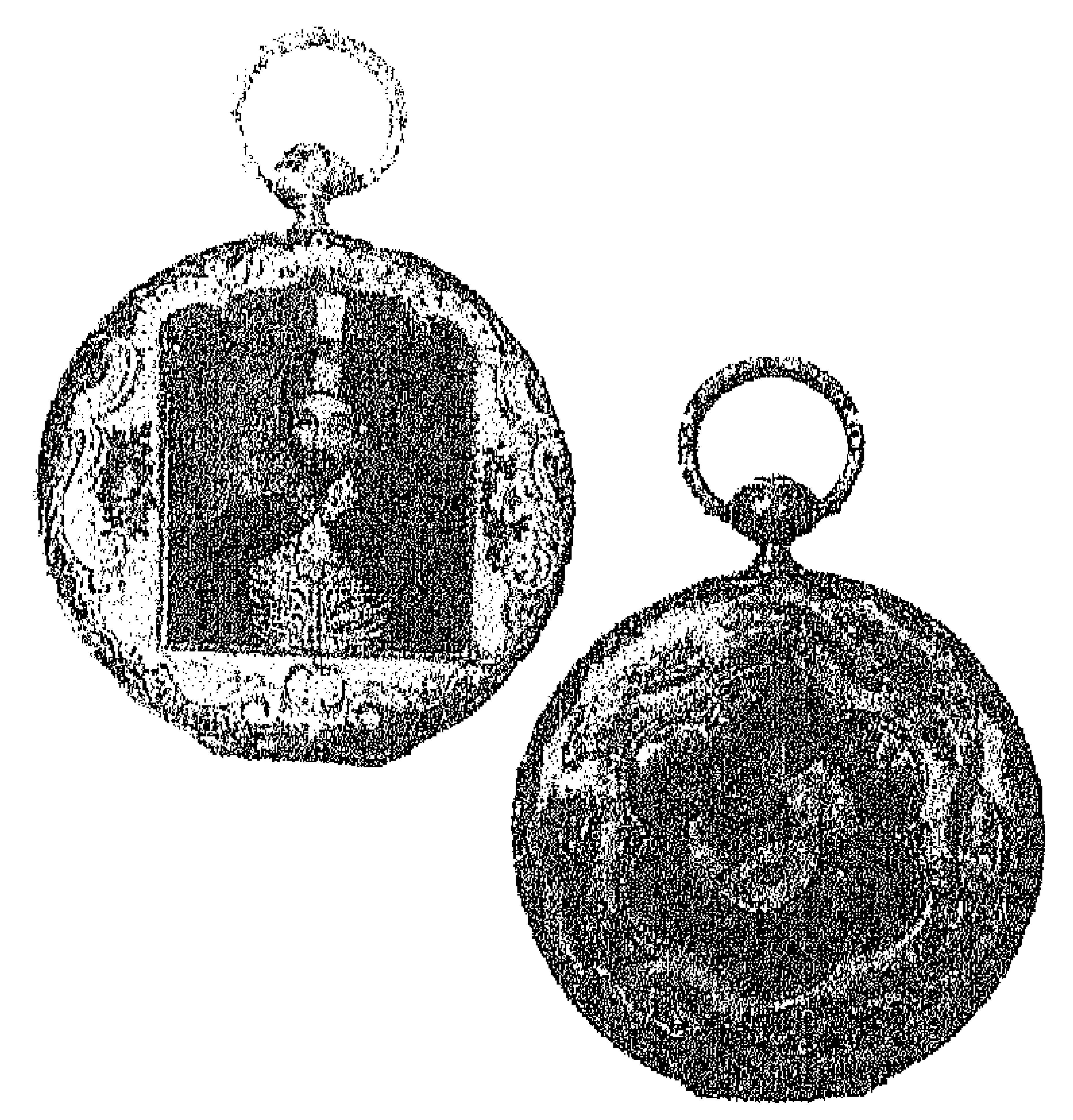
ولكن طريق عبد المجيد افترق عن طريق والده في فن الخط، فقد سار محمود الثاني على نهج الخطاط راقم أفندي، أما هو فقد سار على نهج جلال الدين أفندي محمود، وكتب الثلث والنسخ والرقعة. ثمة خمس لوحات خط له في متحف الأوقاف التركية للخط. كان يذهّب اللوحات التي يكتبها غالباً، ويهديها لوزرائه[2].

كان يهوى فن الرسم أيضاً. وقد طلب من الرسام إبراهيم أفندي (أصبح في ما بعد إبراهيم باشا فريك) أن يرسم له صورة نصفية، وأخذ منه دروساً في الرسم. عبد المجيد هو أول سلطان اشتغل فعلياً بالرسم[3]. وبحسب المعلومات التي قدمها مهندس ديكور القصر تشارلز شان، فقد كان يفضل اللون الأحمر

(1) مادة عبد المجيد من موسوعة الثقافة والفن في إسطنبول، المجلد 1، إسطنبول، 1982، منشورات ترجمان الثقافية، ص 189.

(2) علي ألب أرسلان، (الخطاط) عبد المجيد/ موسوعة العثمانيين، حياتهم وأعمالهم، المجلد 1، ص 66.

(3) للحصول على معلومات حول أول رسام تركي عثماني معروف إبراهيم باشا انظروا إلى: فخر الدين أوز طوبراق، الرسام إبراهيم باشا فريك، مجلة تاريخ العالم التركي، العدد 265، كانون الثاني 2009، ص 41-47.



ساعة جيب ذهبية ذات غطاءين صنع شركة فرنسية بشكل خاص لعبد المجيد. اللافت للنظر وجود آلات موسيقية على الغطاء الخلفي (متحف قصر طوب قابِ).

أن يوهان شتراوس لحن نشيداً وطنياً تركيا من أجله[1]. وكان في القصر أساتذة موسيقى من إيطاليا، وفرقة موسيقية، وحتى فرقة مسرحية وفرقة أوبريت صغيرة[2].

نفَّذ البرفيسور ج. لورنس سميث أول تجربة برق في قصر بيلر بيه بحضور السلطان عبد المجيد، وبعد نجاحها قَدَّمَ هدية (ميدالية) لمورس مخترع البرق[3].

أخذ عبد المجيد دروساً في خطوط الثلث والثلث الجلي والنسخ من طاهر أفندي المتدرب على يد محمود جلال الدين أحد أكبر أساتذة الخط في عصره، في ما بعد حصل على إجازة من رجل الدين عزت أفندي مصطفى، ووصلت

(1) المجلة الموسيقية، العدد 474، آذار 2006.

(2) قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 340.

(3) Cyrus Hamlin, Among the Turks, New York, 1878, Robert Carter and Brothers, s. 185-194. Prof.

للاطلاع على الوثيقة حول مكافأة مورس (BOA İ.HR 153/8120) انظروا إلى: سنان طونتش، ميدالية من العثمانيين لمخترع البرق مجلة يدي قطعة (القارات السبع) العدد 1، أيلول 2008، ص 16-20.

في الديكور والرسم، ويتهرب بقدر ما يستطيع من الأصفر[1].

عندما أمر السلطان بصيانة قبر سيدنا الرسول ﷺ في المدينة، علّق المعماري طغراء عبد المجيد على جدار القبر. غضب السلطان كثيراً عندما عرف بهذا، وقال: "إذا أرادوا أن يعلقوا الطغراء، فليعلقوها برأس إصبع قدم الرسول". ويروى أنه قال: "لِمَ اسمي هناك؟ إذا أردت أن تعلقها، فلتكتب: المذنب عبد المجيد.

أنفق على صيانة المسجد النبوي 750 ألف ليرة عثمانية، وهذا يعني إعادة بناء تقريباً، كما خلّف العديد من الأعمال الخيرية في مكة. وآخر صيانة لمسجد قباء جرت في عهده[2]. الطغراء المزدوجة المقلوبة فوق باب مدخل المسجد المهدّم الآن لافتة للانتباه. عندما يُنظر بدقة إلى الطغراء التي تعلو الكتابة، نجد أنها اسم سيدنا الرسول ﷺ. ووضعت الطغراء الأساسية تحت الكتابة احتراماً، ويجب اعتبار هذا أحد الأمثلة البارزة على حب السلاطين العثمانيين للرسول[3].

عبد المجيد أول سلطان في الأسرة العثمانية المالكة أصدر تقريراً مفصلاً باللغة الفرنسية، وهو أحد أكثر السلاطين بناء للقصور والدور أيضاً.

كان في الوقت نفسه أول سلطان يقبل وساماً من دولة أجنبية. لم يتردد بقبول وسام "Legion d'honneur" الذي قدمته له فرنسا في فترة تقوية علاقة الصداقة معها (1856). بعد ذلك قدمت الملكة فيكتوريا لعبد المجيد وسام الإنكليز الشهير المسمى ربطة الركبة أو الساق "Order of Garter"[4].

ورد في بعض كتب التاريخ أنه محب للصيد. والمعروف أن عبد المجيد

(1) فريدريك هيتزل، تشارلز شان (1803–1874): مهندس ديكور في خدمة السلطان عبد المجيد، تحرير كمال قهرمان، "ندولة قصر ضولما بهتشة في ذكراه المائة والخمسين الدولية: البيانات"، المجلد 1، إسطنبول 2007، منشورات رئاسة دائرة القصور القومية في مجلس الأمة الكبير، ص 82.

(2) محمد الأمين المكي، خدمات السلاطين العثمانيين للحرمين، ص 66–71.

(3) أوغور درمان، كتابة مسجد قباء، مجلة تحت القبة الأكاديمية، العدد 100، تشرين الأول 1996، ص 66–70.

(4) خير الدين بيك (خير الدين نديم غوتشن)، تتابع الوثائق التاريخية والسياسية: العثمانيون والأوربيون بلغة الوثائق إعداد: إسحق كسكين وعلي أحمد بيه أوغلو، إسطنبول 2008، منشورات كتب سليس، ص 25–26.

اهتم بالساعات، وتابع جديد الغرب في هذا الميدان عن قرب، وأعطى أهمية لتنشئة صناع ساعات أتراك[1].

ألبسة عبد المجيد بحسب الأديب الفرنسي ألفونس دي لامارتين عندما رآه في إحدى زياراته على النحو التالي:

"ألبسته بسيطة، وذات لون واحد، كأنه في مأتم: تنزل السترة المصنوعة من قماش داكن إلى ركبتيه، مفتوحة عند الرقبة، هناك ثنية عريضة للبنطال العريض المصنوع من قماش الكتان. حذاؤه قصير الساق أسود، وليس ثمة زينة على مقبض سيفه.

أما تصوير الرحالة الألماني ياكوب فيليب فالميراير فهو أكثر تلويناً بكثير:

"عبد المجيد أطول من متوسط القامة بقليل، وعريض الكتفين، وبنية جسمه شديدة التناسق. إنه شاب وحيوي على الرغم من عمله الطويل نتيجة تسلمه الحكم في سن مبكرة. بنيته النامية تبرزه في كل مكان، وفي هذه البنية تبرق عيناه الآسيويتان بفرح غامر. لا تتطابق مقاسات جسمه النامي طبيعياً مع المقاسات التركية".

يصف فالميراير هندام عبد المجيد في احتفال سهل حيدر باشا على النحو الآتي:

"بفضل بنطاله الأبيض، وسترته الكحلية ذات التفصيل الظريف على مقاس الجسم، والحواف المطرزة بخيوط ذهبية، والحذاء الجلدي اللين اللامع تبرز مقومات جسمه الطبيعية. فهو عريض الجبهة، وواسع العينين، وحاجباه كقوسين، وصغير الفم، ومدور الذقن، ومستقيم الأنف كأنوف العهود القديمة يناسب مكانه. ومهما بدت آثار الجدري على وجهه فإن خصوصية لون بشرته تجعله وسيماً. (...) بالنتيجة، إن خطوط وجه الإمبراطور عموماً تعطي انطباعاً مريحاً".

---

(1) مجموعة ساعات القصور القومية/ Clock in the National Palaces إسطنبول 1997، منشورات رئاسة دائرة القصور القومية في مجلس الأمة الكبير، ص 16.



لوحة خط كتبها عبد المجيد وعليها توقيعه.

أخيراً، يقول عنه الرحالة الألماني إنه أكثر حكام عصرنا خيراً، كما أنه صديق للناس[1]. قال ذات مرة لطبيبه النمساوي الخاص سبيتسر:

"أنا طيب النية. أكره الدم والحقد. أمتي فقيرة وبدائية. دائماً أردت مصلحة الناس. سيساعدني الله بالتأكيد"[2].

جاءت مؤسِسة التمريض الحديث فلورانس نايتنغيل إلى أسكدار في عهده، وعملت في المستشفيات الإنكليزية، وبفضل هذا العمل حازت شهرة عالمية. ورداً لجميل فلورانس نايتنغيل على خدماتها بعد الحرب، أمر عبد المجيد بصنع سوار خاص قيّم، وأهداها إيّاه[3].

السلطان عبد المجيد أول سلطان يذهب إلى حفل راقص. ولكن ذلك الحفل الذي أقيم في السفارة الإنكليزية لم يتعدَّ كونه حفل استقبال، ولم يرقص السلطان الخليفة مع أي امرأة كما يُعتقد. ولا يمكن أن يرقص، بل اكتفى بالفرجة على الأزواج الراقصين، وغادر السفارة بعد أن جاملهم باختصار[4].

(1) ياكوب فيليب فالميراير، مشاهد من الشرق ترجمة: حسين صالح أوغلو، أنقرة 2002، دار إمغة للنشر، ص 502-503.

(2) طبيبه الخاص سبيتسر يتحدث عن سلطان التنظيمات، والقصر وأحداث 1840-1860.. التاريخ يتكلم، العدد 12، كانون الثاني 1965، ص 968.

(3) نوران يلضرم، فلورنس نايتنغيل/ موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، المجلد 6، إسطنبول 1994، ص 73.

(4) من أجل معلومات أوسع عن هذا الموضوع، انظروا إلى: فصل هل رقص السلطان في الحفل؟ من كتابي الموسوم مشروع العثمانية الكبير، إسطنبول 2008، منشورات تيماس، ص 152-159.

كان ماهراً بالأشغال اليدوية. لنقرأ الخبر الغريب المتعلق بعبد المجيد المنشور في جريدة حريت المؤرخة 24 شباط 2003:

"سيقام مزاد سيليبرتي التقليدي الذي ينظمه بيت إسكيدجي للمزاد في متحف رحمي م. قوتش يوم الأحد في 23 شباط 2003. وستعرض الطاولة الصغيرة التي صنعها عبد المجيد بأسلوب أدرنة وتحمل طغراءه بواحد وأربعين ألف دولار".

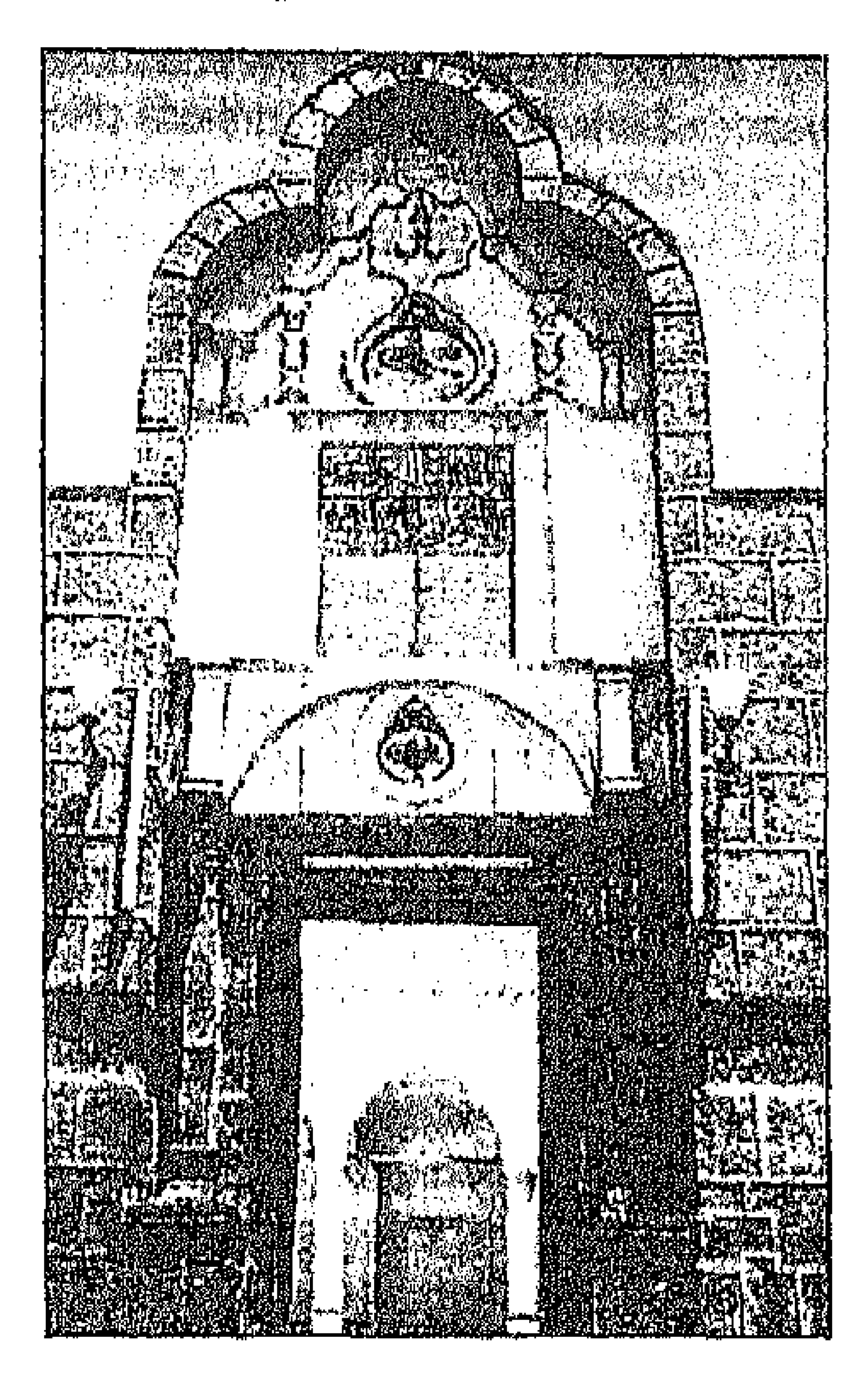
وبحسب ما علمناه من حفيدته عائشة عثمان أوغلو من مذكراتها المنشورة بعنوان **والدي عبد المجيد**، فقد كان يشغّل فناناً يدعى "خليل" أفندي معه في ورشة النجارة.

رزق عبد المجيد بتوأم مرتين. ماتت ابنته من الولادة الأولى المدعوة خديجة في سنتها الأولى، وعاشت السلطانة رفيعة إلى الثامنة والثلاثين دون أن تتذوق طعم السعادة[1]. مات محمد نظام الدين أحد التوأم الثاني في سنته الثالثة، ومحمد فامق في شهره الخامس.

أحب من أجداده كثيراً السلطان "سليم" الجبار. لهذا رغب بأن ينام نومته الأخيرة بجانبه، وأمر بإعداد قبره بجواره.

(1) نعد محظوظين لوصول معلومات مفصلة حول شخصية السلطانة رفيعة. انظروا إلى: علي آق يلضظ، ابنة سلطان مؤمنة ومسرفة: السلطانة رفيعة الطبعة الثالثة، إسطنبول 2003، منشورات يورت للأوقاف التاريخية.

سر الطغراء المزدوجة في مسجد قباء



اعتاد العثمانيون منذ القرن الثامن عشر على ترتيب لوحات الأبنية التي ينشئونها أو يقومون بصيانة لها بأن توضع طغراء سلطان العهد في شكل بيضوي أعلى وسط الكتابة. ولأن مسجد قباء بناه رسول الإسلام شخصياً، فقد أبدى العثمانيون لباقة خاصة بالإسلام في كتابة الطغراء. اعتُبر العهد عهد السعادة، أي عهد سيدنا محمد، ونُقشت الطغراء باسم الرسول فوق الكتابة باعتباره أول مسجد، واحتراماً للرسول، ووضعت الطغراء العثمانية أسفل الكتابة.

أوغور درمان

السلطان عبد المجيد
بنظر شاعر الصحراء لامارتين

بحثت عيناي عن السلطان عند دخولي القصر. لم يُر جيداً لأنه كان واقفاً في الظل بين النافذة والباب في الزاوية الأقل إضاءة من الغرفة. السلطان عبد المجيد شاب في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من عمره، ولكنه يبدو أكبر من ذلك. فهو طويل القامة، وظريف، ونحيل. الأصالة، والظرافة بنعومة، وشموخ رأسه تشبه الإسكندر الشاب في تماثيله النصفية اليونانية. تقاطيع وجهه منتظمة، فهو عريض الجبهة، وأزرق العينين، ومقوس الحاجبين كما لدى العرق القوقازي، ومتناسق الأنف، ومكتنز الشفتين المنفرجتين قليلاً. ذقنه يبرز وجهه بشكل أفضل، ويُظهر القوة والحزم. لا يبدي العظمة ببنيته بل الجاذبية، فهو لا يريد أن يُخشى منه، بل على العكس يشعرك بأنه يريد أن يكون محبوباً: في نظرته تواضع وخجل، وفي شفتيه حزن، وفي وقفته تعب مبكر. يبدو أنه غاص في التفكير قبل الأوان، وعانى الحزن. ولكن ما يلفت النظر أساساً هو جديته وحساسيته المصحوبة بالتفكير.

يقول الإنسان لنفسه حين يراه: "يحمل هذا الإنسان في ذهنه عبئاً ثقيلاً مقدساً هو الأمة، ويشعر بثقل حمله وقدسيته".

ليس ثمة شباب وخفة في تعابير وجهه، ويبدو رجلَ دين شاباً أكثر من كونه حاكماً شاباً. لهذا السبب يثير الشفقة في القلب. لا بد للإنسان أن يفكر على النحو التالي: "ها هو رجل يصل إلى أعلى سلطة. إنه شاب، ووسيم، ومقتدر، ولا شك أنه عظيم أيضاً، ولكنه لن يكون حراً في أي وقت، ولن يكون من دون هم، ولن يكون سعيداً. يشفق

الإنسان عليه، ويحبه، لأنه يشعره بمسؤوليته على الرغم من العظمة التي هو فيها. من المسموح لأي شخص في الإمبراطورية أن يكون سعيداً إلا هو. لقد سيطر عليه العرش منذ الولادة.

(...)

فتل قبضة السيف التي يمسك بها أثناء كلامي معه عدة مرات، وامتقع وجهه، وأطرق كأنه خجل من فضائله.

قلت لأصدقائي أثناء مغادرتي: "تحمّل هذا الرجل الذي ترونه عبء نهضة شعب من جديد، من الممكن ألا يكون هناك شبيه له في التاريخ! وهكذا، في أمسيات الأيام التي أعطى نفسه فيها لوظيفته يرتفع له الدعاء بكل الألسن!"[1].

(1) ألفونس دي لامارتين، شروط الحاكم، ترجمة نسرين مورالي، مجلة الحياة تاريخ، العدد 9، أيلول 1975، ص 30.

السلطان الذي أرسل زمزم إلى أوروبا: عبد العزيز (1876–1861)

كان دائم المحبة للجنود والضباط. يحسن للأنفار بمائتي ذهبية أو ثلاثمائة، وأحياناً بخمسمائة عندما يذهب إلى الثكنات أو يصادفهم في نزهاته.

خلوق ي. شخصوار أوغلو

جلس السلطان عبد العزيز على عرش العثمانيين في الحادية والثلاثين من عمره. وهو مستدير الوجه، ولحيته خرنوبية، وعريض الكتفين، وضخم البنية، وشديد القوة.

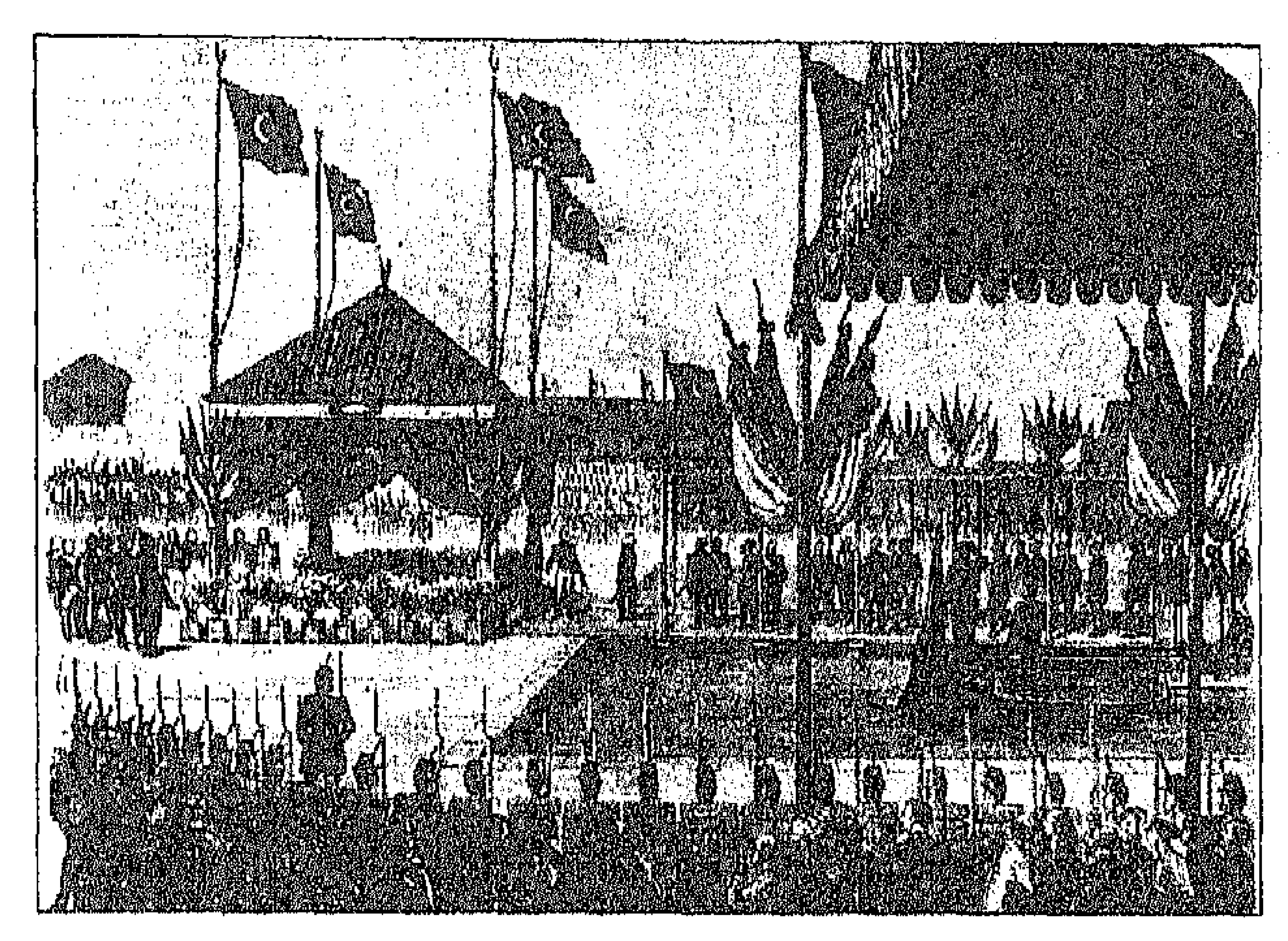
بحسب كمال بيك محمود: "مفتح الذهن، وموهبته بالحديث عالية، وحاضر البديهة"[1].

أحب الخيول والطعام والأسلحة ورماية النبال[2]، والجمال، والكباش، وصراع الديوك، والمسرح الشعبي، والمصارعة، والسباحة، والفروسية، وألعاب القوى (خاصة في شبابه)، والتجذيف، واللعب بالنبوت، والتدريب على التصويب، والصيد. هناك رواية واسعة الانتشار، وهي أنه كان يطلب من الولاة أن يرسلوا المصارعين الذين عندهم، ويصارعهم، ولكن ليس ثمة دليل ملموس على هذا[3].

(1) محمود كمال إنال ابن المنجم، آخر صدر أعظم في الدولة العثمانية، الكتاب الرابع، إسطنبول 1965.

(2) طورغاي تزجان، جناح الأسلحة في متحف قصر طوب قاب الفن والثقافة، العدد 4، حزيران 1979، ص 107.

(3) مراد سرت أوغلو، هل صارع السلطان عبد عزيز أم لا؟ التاريخ عبر السنين، العدد 1، كانون الثاني 1980، ص 12–13.



ثمة ما يلفت الانتباه في هذه اللوحة التي تصور استقبال الإمبراطور نابليون الثالث للسلطان عبد العزيز في فرنسا: العلم ذو الهلال والنجمة يرفرف على أربع زوايا خيمة البروتوكول المحضرة للسلطان.

كان يحب الليمون الحلو من الفواكه[1]، ويكره التبغ، حتى إنه كتب مقالة ضد التدخين (والمشروب)[2]. غير هذا، فقد كان يحب لعب الشطرنج والداما، ووظف في القصر مشرف داما[3]. ابنه الأمير سيف الدين موسيقي جيد، إلى جانب أنه اختار مهنة لم يُر لها مثيل في تاريخ الأسرة المالكة، وهي "عمل لوحات القناديل بين مآذن المساجد"[4].

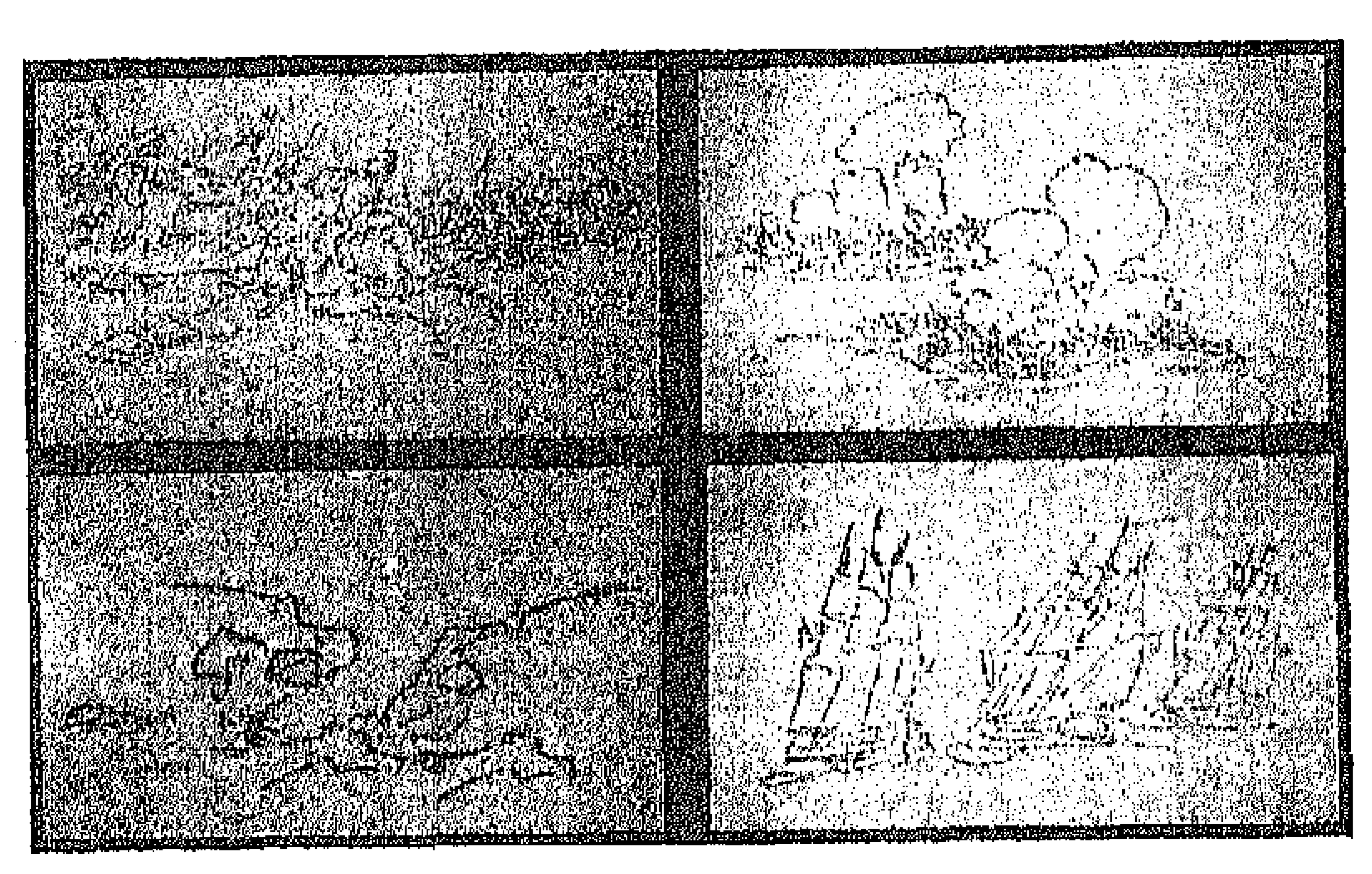
نعرف أن عبد العزيز أحب الساعات كأخيه عبد المجيد، وأصبح سليمان لذيذ ساعاتي القصر في عهده من خريجي مدرسة القصر، وأحد الساعاتيين

(1) سليم كاني إرتم، السلطان عبد العزيز وانقلاب قائد جيش إعداد عثمان سليم قوجا هان أوغلو، إسطنبول 2004، منشورات تمل، ص 9.

(2) أوز طونا، أحاديث تاريخية، مصدر سبق ذكره.

(3) صناع المقذوفات، مصدر سبق ذكره.

(4) إلبر أورطايلي، إعادة اكتشاف العثماني، إسطنبول 2006، منشورات تيماس، ص 114. سنرى بعد قليل أن سيف الدين بيك ورث عن والده حب البحرية، ووصل حبه إلى درجة بنائه سفينة. انظروا إلى: سليمان كاني إرتم، تمرد 31 آذار وجيش الحركة إعداد ع. س. قوجا هان أوغلو، إسطنبول 2003، منشورات تمل، ص 379-380.



يعتبر كبار الفنانين أن خطوط عبد العزيز حرة وعفوية، وقوية ولينة.

المشاهير في عصره[1].

ذكره محمود كمال إنال بن الأمين الذي يعزف عزفاً صافياً على الناي في كتابه **الصوت الجميل**[2]. أحب المولوية كوالده، وتعلّم العزف على الناي من يوسف باشا. غير هذا، فقد كان عازف طنبور، ومتمكناً من العزف على الآلات الشرقية والغربية، ومن تراكيبها الموسيقية، وسلطاناً ملحناً رفيع المستوى. غير هذا، فهو أول سلطان قدم لحناً غربياً.

يعرف عنه أنه يعزف على البيانو والعود. لديه أربع مقطوعات للبيانو، وثلاثة ألحان تركية منشورة. أُعِدَّت "دعوة إلى الفالس" و"أغنية الجندول" للأوركسترا، وهما من المقطوعات التي يستمتع بالاستماع إليهما. "ومن المعروف أن كثيراً من أغاني عصره وأناشيده لُحنت على مقامي الحجاز كار وشاهيناز لحبّه هذين المقامين. وصلتنا من ألحانه أغنية سيرتو حجاز وأغنيتا شوق فزا ومحيّر"[3].

أثناء زيارته لندن، عزفت الأوركسترا الملكية ألحانه الغربية عدة مرات.

(1) مجموعة ساعات القصور القومية/ Clock in the National Palaces إسطنبول 1997، منشورات رئاسة دائرة القصور القومية في مجلس الأمة الكبير، ص 17.

(2) محمود كمال إنال بن الأمين، الصوت الجميل، الموسيقيون الأتراك في القرن الأخير، إسطنبول 1958، منشورات بنك العمل في تركيا الثقافية، ص 19-21.

(3) جودت كوتشوك، عبد العزيز/ الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، إسطنبول 1988، ص 183.



نوتة لحن من مقام شوق فزا للسلطان عبد العزيز.

غير هذا، فقد ساعد الملحن الألماني الشهير ريتشارد فاغنر مادياً لإكمال بناء أوبرا بايروث.

بحسب خبر ورد في الصحف قبل سنوات، إن ألحان عبد العزيز المدهشة رُميت بالزبالة، واشتراها الفنان الباحث زكي قوش أوغلو من الزبالين[1].

وهو رسام خطوطه قوية بقدر ما هو خطاط متمكن. رَسَم غلاف كتاب هامر الذي ترجمه إلى التركية عطا بيك بعنوان: **تاريخ الدولة العثمانية**[2]. ونعرف أنه تلقى دروساً على يد رجل الدين الكبير عزت أفندي مصطفى المعروف أنه شاعر وموسيقي بقدر ما هو إحدى قمم فن الخط. وكتب بعض اللوحات أثناء فترتي إمارته وجلوسه على العرش. أهدى الجامع الذي بنته والدته في آقسراي، أي جامع الوالدة السلطانة بزم عالم لوحة خط ناجحة.

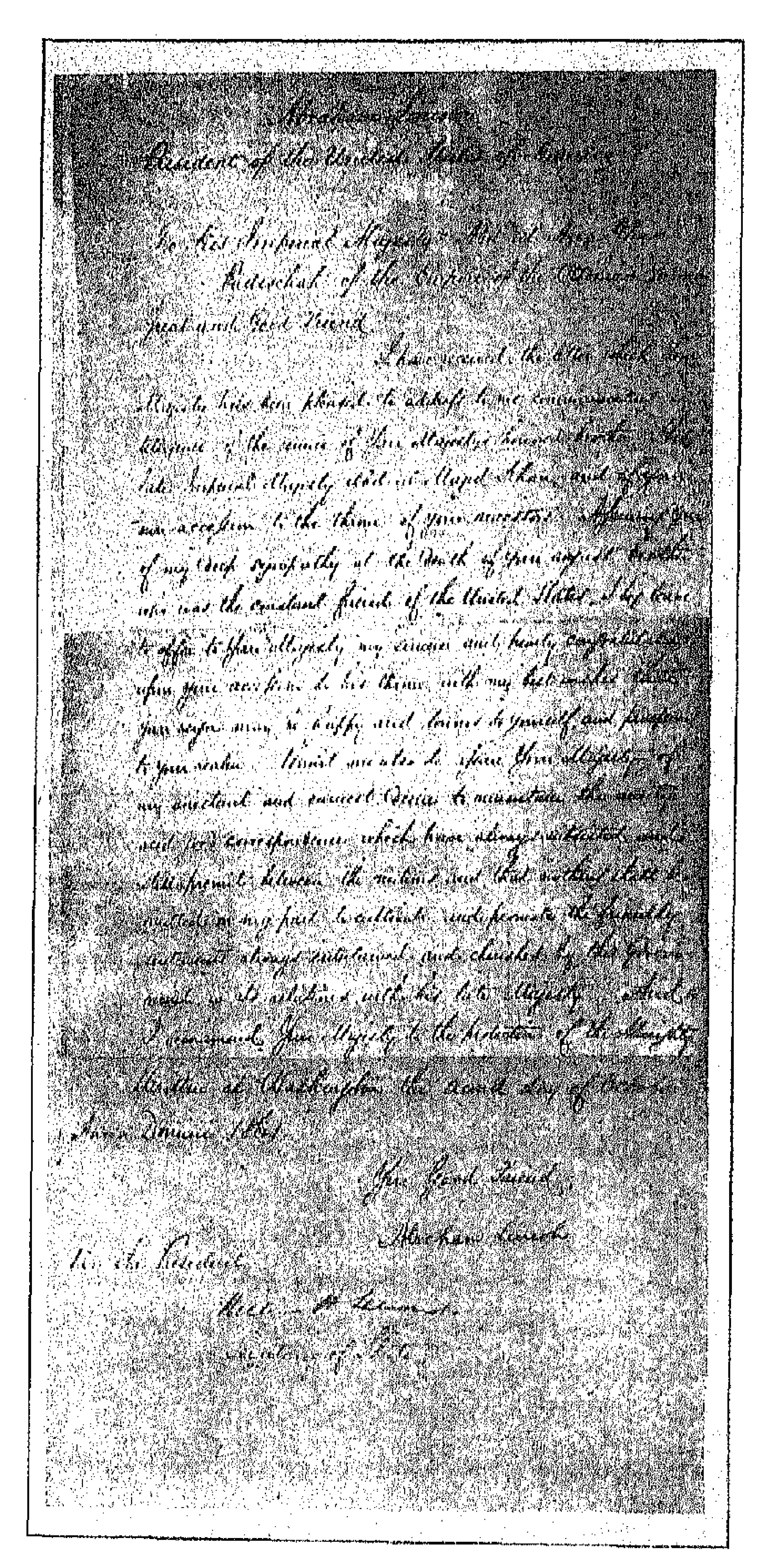
أول سلطان عثماني رسام بالمعنى الحقيقي هو عبد العزيز. كان يرسم في أوقات فراغه. ونشرت المجلات الفنية الإنكليزية في عصره بعض المقالات التي تمتدح موهبته، واعتبرت خطوطه حرة وعفوية وقوية ولينة. وله في المتاحف البولونية 68 رسماً بالقلم.

في الوقت نفسه، إنّ عبد العزيز أول من طلب صنع تمثال له على الحصان من نحّات يدعى س. ف. فولر (1872). "وقد ساهم في كثير من الإنجازات الهامة على صعيد تاريخ الرسم التركي خلال فترة جلوسه على العرش"[3]. إن

(1) آدم ياووظ أصلان، **ألحان السلطان عبد العزيز خرجت من الزبالة**، بوغون/ هذا اليوم، 25 حزيران 2006.

(2) فاتح تَفَت أوغلو، **يوسف بن هامر**، مجلة الحياة تاريخ، العدد 12، كانون الأول 1975، ص 12.

(3) إرسوي، مصدر سبق ذكره، ص 76.



Abraham Lincoln

President of the United States of America

To His Imperial Majesty Abd-ul-Aziz Khan
Padischah of the Empire of the Ottomans [illegible]

Great and Good Friend:

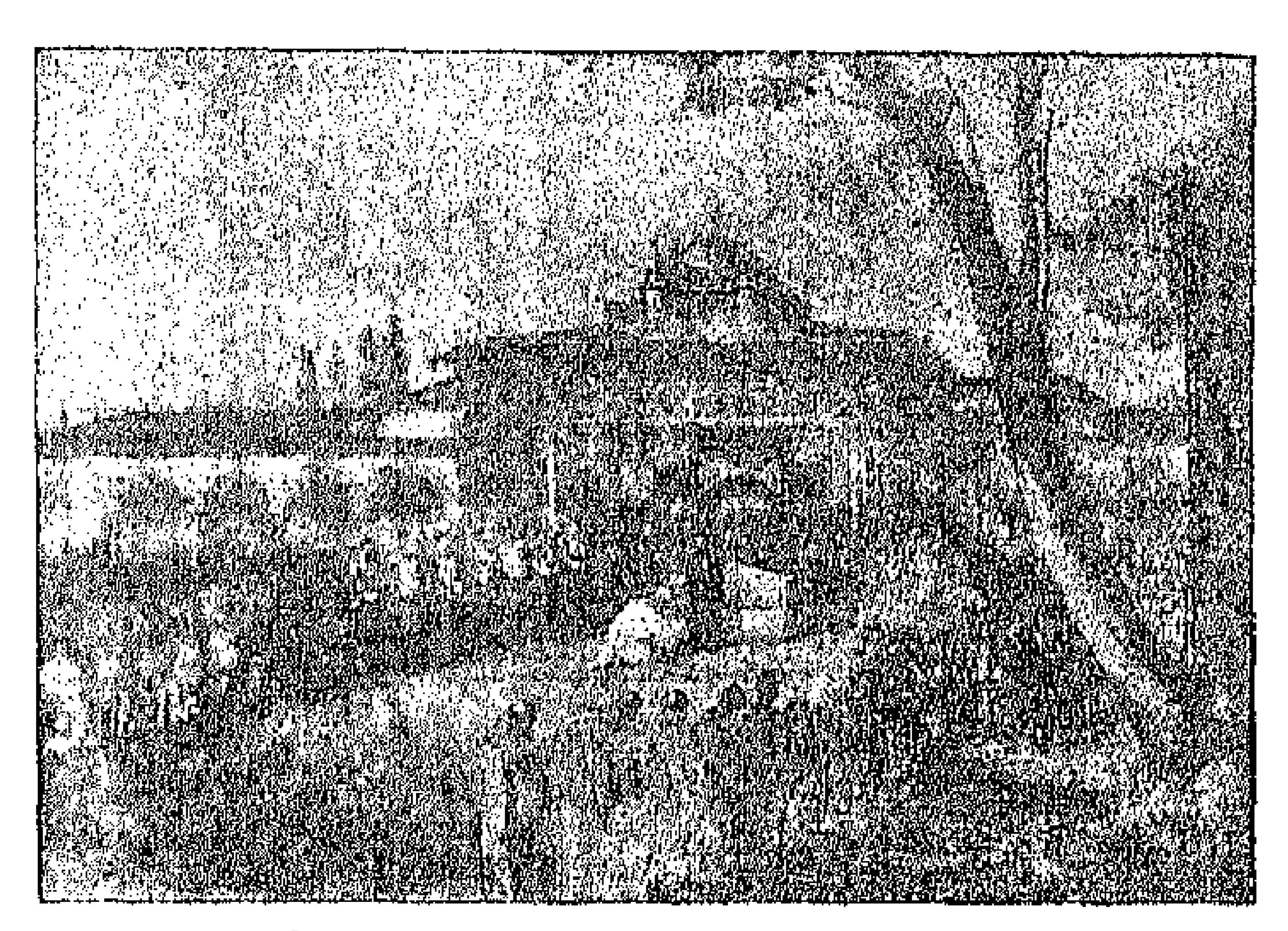
I have received the letter which Your Majesty has been pleased to address to me communicating [illegible] of the [illegible] of Your Majesty's honored brother, [illegible] late Imperial Majesty Abd-ul-Medjid Khan, and of your own accession to the throne of your ancestors. Assuring you of my deep sympathy at the death of your august brother who was the constant friend of the United States, I beg leave to offer to Your Majesty my sincere and hearty congratulations upon your accession to his throne, with my best wishes that your reign may be happy and glorious to yourself and prosperous to your realm. I must ... assure Your Majesty of my constant and earnest desire to maintain the [illegible] and good correspondence which have always [illegible] [illegible] between the nations and that nothing shall be wanting on my part to cultivate and promote the friendly sentiments always entertained and cherished by this Government in its relations with his late Majesty. And so I commend Your Majesty to the protection of the Almighty.

Written at Washington the second day of [illegible] Anno Domini 1861.

Your Good Friend,
Abraham Lincoln

By the President:
William H. Seward,
Secretary of State.

رسالة الرئيس الأمريكي إبراهام لينكون للسلطان عبد العزيز.



لوحة نادرة للرسام البولوني تشليبوسكي؛ وهو في الوقت نفسه أستاذ السلطان بالرسم، وتمثل مراسم جلوس عبد العزيز.

التمثال الذي طلب صنعه صغير جداً حيث يوضع على الطاولة.

كلف ستانيسلاو تشلوبوسكي (1835-1883) أحد الرسامين البولونيين الكبار برسم لوحات تمثل التاريخ العثماني (لوحات تصور القانوني و"مراد" الرابع بشكل قوي ومباهٍ في ميدان الحرب). وأشار شخصياً إلى الأمكنة التي طلب من الرسام الروسي الشهير أيفازوفسكي رسمها من إسطنبول، وغدت اليوم على درجة كبيرة من الأهمية. كان ينفعل عندما يشرح للرسام الأجنبي الرسم الذي يريده فيرسم الكروكي بنفسه. ولم يكن يحتمل منظر الجنود الأتراك الشهداء والجرحى المتمددين على الأرض، فيطلب من الرسامين إزالتهم.

لقد قدّم مساهمة هامة لتطوير فن الرسم، فأوفد أحمد باشا شَكَر وسليمان بيك سيّد من أوائل الرسامين العثمانيين إلى أوروبا لكي يدرسا ويطورا موهبتهما[1].

غير هذا، لقد أعطى أهمية لمجموعة الرسم الخاصة به. لوحات الرسامين الأوروبيين الموجودة في قصر ضولما بهتشة هو الذي اشتراها شخصياً أثناء زيارته لأوروبا.

آخر محاولة لبناء جامع ضخم كانت في عهده، ولكنه مع الأسف لم يكتمل (كان سيحمل اسم جامع العزيزية وبأربع مآذن. واستمد الحي المعروف باسم

(1) مادة عبد العزيز من موسوعة إسطنبول الثقافية والفنية، المجلد 1، إسطنبول 1982، منشورات ترجمان الثقافية، ص 104.

"طاشلك/ المحجرة" من حجارة أساسات الجامع هناك). وفي عهده أكمل بناء قصر ضولما بهتشة الذي بدأه عبد المجيد.

تلقى دروساً بقواعد العربية وآدابها وفي الدين من فهمي أفندي حسان كزوبي، وكانت كتابته قوية جداً. غير هذا، من المعروف أنه تعلم الفارسية.

كان هاوياً للطيور النادرة والكاسرة. ونعرف أنه ربى أسداً يدعى "بشير" في المكان المدعو أرصلان خانة الذي يمكن أن يعتبر نوعاً من حديقة الحيوانات[1]. كان يحب حصانه الأسود المدعو قرة بولوط/ الغيمة السوداء. أثناء زيارته إلى أوروبا أهداه إمبراطور النمسا فرساً بيضاء ليزاوجها مع قرة بولوط[2].

كان يفضل الألبسة كثيرة القص. وكان مؤسس الطراز المسمى عزيزي، ويجمع بين الطرازين الغربي والشرقي. والطربوش المناسب لشخصه المدعو طربوش الطبلة سمي أيضاً عزيزي[3].

أول سلطان يسافر خارج الوطن هو عبد العزيز. زار العديد من العواصم الأوروبية (باريس، لندن، برلين، فيينا)، وقد قلبت الدنيا رأساً على عقب حيث حلّ. ورأى عن قرب تطور أوروبا تقنياً وفنياً. اصطحب معه في تلك الزيارة ابنه يوسف عز الدين أفندي، وابني أخيه الأميرين مراد الخامس وعبد الحميد وهيئة كبيرة من رجال الدولة.

أثناء الزيارة، حلّ على معرض العالم في باريس ضيف شرف[4]. واستقبلته الملكة فيكتوريا في الصالة الكبيرة في قصر بكنغهام، وقُدمت عروضٌ على شرفه. وأغرب ما في الأمر أنه تبرع بألفي ذهبية إنكليزية أعطاها لرئيس بلدية لندن ليوزعها على فقراء المدينة[5].

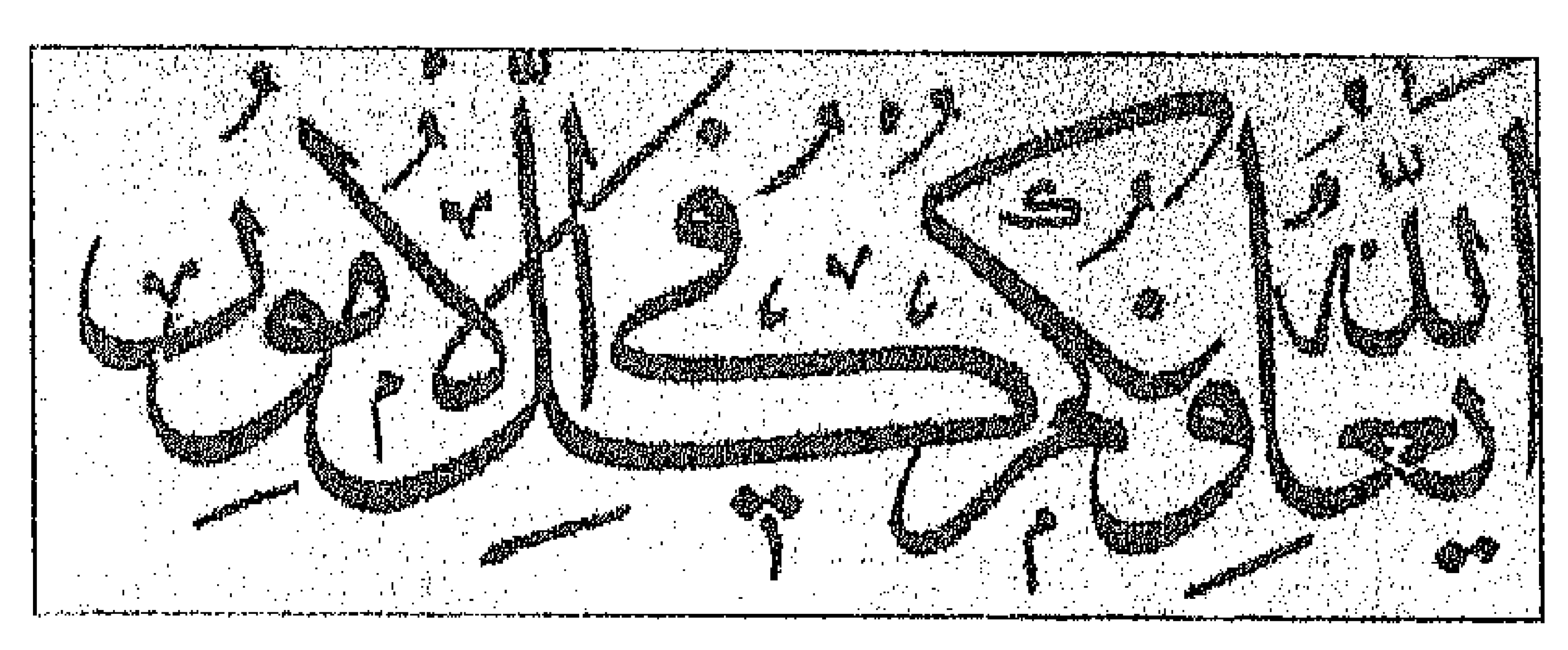
(1) دنيز أسامنديل، حب الطيور والأقفاص في القصر العثماني القصور القومية 1993، ص 100.

(2) علي كمالي آقسوت، زيارة السلطان عبد العزيز إلى أوروبا، مجلة التاريخ المصور، العدد 4، نيسان 1950، ص 130.

(3) نجدت صقا أوغلو، عبد العزيز/ موسوعة العثمانيين، حياتهم وأعمالهم، المجلد 1، ص 38.

(4) لمعلومات أوسع عن هذه الزيارة انظروا إلى: جمال قوطاي، السلطان عبد العزيز في أوروبا إسطنبول 1970، المكتبة التركية من الماضي إلى الحاضر.

(5) متين إند، زيارة السلطان عبد العزيز إلى لندن، مجلة الحياة تاريخ، العدد 10، تشرين الثاني 1967، ص 19.



إحدى لوحات الخط لعبد العزيز.

لم يكن عبد العزيز يحب المسرح الأوروبي. وقد انتقد بعض معاصريه جانبه هذا. من المعروف أن المسرح الشعبي ومسرح خيال الظل عاشا عصرهما الذهبي في عهده. عيّن رضا أفندي كبيراً لمحركي دمى خيال الظل، وشجع المسرح الشعبي.

بحسب ما نقله جمال قوطاي عن صالح فؤاد كتشجي، فقد نُقل من غرفة النوم في جناح الحرم إلى الغرفة التي سيموت فيها أتاتورك في ما بعد. وهذه أوسع قاعات القصر وأشرحها[1]. وإن لم يكن قد مات في الغرفة التي مات فيها أتاتورك، فالغريب أنه اختار الغرفة نفسها لتشييعه.

لم يكن ينظر إلى أية كتابة بالحبر الأسود، ولم يكن يوقّع أي نص مكتوب بهذا الحبر. لهذا السبب، كانت تستنسخ نسخة بالحبر الأحمر للمعروض الذي يُفترض أن يُقدم إليه والذي يكون مكتوباً بالأسود، ثم يُقدم له.

لم يقطع عبد العزيز الصلاة طوال حياته، وشرب ماء زمزم باستمرار، وعندما ذهب إلى أوروبا أخذ معه من إسطنبول ماء الوضوء لعدم ثقته بالأوروبيين[2].

يتميز عبد العزيز عن بقية السلاطين بوصول حبه للبحرية إلى درجة الشغف، وبنى سفناً حربية ممولة بالدين الخارجي، ليكون لديه ثالث أقوى أسطول في العالم. ولما لم تتوافر موارد مالية تجعل الأسطول يبحر، تُركت هذه السياسة، وأعطيت الأفضلية لخطوط السكك الحديدية في عهد عبد الحميد.

(1) جمال قوطاي، **تاريخنا المجهول**، إسطنبول 1974، ص 250.

(2) قادر مصر أوغلو، **مأساة أبناء عثمان**، إسطنبول 1973، منشورات سبيل، ص 50، هامش 31.

السلطان مهندس السفن

عند اكتشاف قوة البخار وبناء السفن المدرعة، صار عبد العزيز خلفاً للفاتح. كان السلطان عبد العزيز مهندس بناء سفن. وبعد رسم مخططات سفينة مسعودية في حوض بناء السفن، وتقديمها للسلطان عبد العزيز من أجل الموافقة على إرسالها إلى حوض تايمز لبناء السفن في إنكلترا، غطّ قلمه بالحبر الأحمر على عادته، وأجرى بعض الإضافات. وعندما ذهبت المخططات إلى إنكلترا، وتم التدقيق فيها، دهش مهندسو بناء السفن الإنكليز، وقالوا: "إذا نفذت هذه التعديلات فستكون مدرعة مسعودية بقوة مدرعتنا المسماة باسم رئيس وزرائنا كلارندن". سألوا سفارتهم في إسطنبول عمّن أجرى تلك التعديلات، فتلقوا هذا الجواب: "رسمها السلطان التركي شخصياً". (حوادث الرزنامة الجديدة)

هناك دليل آخر على أن عبد العزيز مهندس بناء سفن: لقد بنيت سفينة في الحوض، وعندما تم إنزالها إلى البحر لوحظ أن مقدمتها مائلة. عندها، أمر السلطان عبد العزيز بإعادة السفينة إلى الحوض من جديد. فحص السفينة، ورسم خطاً بالدهان الأسود على مسافة متر أو مترين من مقدّمتها. وعندما تم قطع الجزء الذي حدّده في مقدمتها، وأنزلت السفينة إلى البحر، وجدوا أنها استقامت. (حوادث الرزنامة الجديدة أو الترقي)[1].

(1) عبد الرحمن عادل إران، سفينتنا كاسحة الألغام يارم آي، العدد 77، 15 نيسان 1938، ص 1.

نوبة جنون لمدة 93 يوماً: مراد الخامس
(حزيران – آب 1876)[1]

عاش جدي المنحوس 28 عاماً سجيناً في قصر تشراغان، ومعانياً من ألوان العذاب كلها. ونظراً لحبه الموسيقى الإفرنجية وعزفه على البيانو والكمان وتأليفه الكثير من المقطوعات، أمضى أكثر سنوات عمره في الموسيقى، وهذا ما سلاه[2].

علي واسب أفندي (حفيده)

السلطان مراد الخامس صاحب أقصر فترة حكم في الأسرة العثمانية، جلس على العرش وهو في السادسة والثلاثين من عمره. وبقي 93 يوماً على العرش، عاش غالبيتها في حال جنون لم يُر له أثر في التاريخ العثماني. اشتهر هذا البيت الذي قيل عنه عند موته:

جلس في الثالثة والتسعين وبعددها

أياماً وهاجر مراد إلى عزلته دون مراد

مراد الخامس حنطي البشرة، وعيناه زرقاوان داكنتان، وهو وسيمٌ، ومحبب، وشديد اللباقة والتهذيب.

يختلف عن بقية الأمراء بأن عبد العزيز اهتم بتربيته. تلقى من فريد أفندي دروس اللسان التركي، ومن الشيخ حافظ أفندي الحديث، ومن عمر خلوصي أفندي غردانقران صحيح البخاري الشريف، ومن المسيو غاردت الفرنسية، ومن غواتيللي باشا ولومباردي البيانو. كان يعرف الفرنسية بشكل جميل جداً،

(1) اسمه محمد، ولقبه مراد أطالر/ الأجداد، مصدر سبق ذكره، ص 455.

(2) علي واسب أفندي، مذكرات أمير: ما رأيته وسمعته في الوطن والمنفى، إعداد عثمان صلاح الدين عثمان أوغلو، الطبعة الثانية، إسطنبول 2005، منشورات بنك البناء والقروض، ص 26.

ويتحدث بها. وأخذ دروساً من بير جوزيف أحد رهبان كابوتشين الذي عاش في إسطنبول منذ صغره.

كان مراد الخامس شغوفاً بالموسيقى، وخاصة العزف على البيانو والكمان. إنه السلطان الذي قدّم أكبر عدد من المؤلفات الموسيقية الغربية، والتي بلغت ثلاثة مجلدات[1]. بلغت مؤلفات صولو للبيانو 1134 صفحة قياس A3. كان دونيزاتي باشا ولومباردي بيك أستاذيه. من المحتمل أن يكون مراد الخامس أول من حوّل أغنية شعبية إلى البيانو في تاريخ العثمانيين الموسيقي (قبل أربعين سنة من تحويل جمال رشيد ري أغنية صارِ زيبق إلى متعددة الأصوات!). والمعروف أن أكبر ضَعف لديه هو تعلقه بالمشروب وإسرافه.

يُروى أنه أصبح ماسونياً أثناء زيارة عبد العزيز لمصر، وفي رواية أخرى أنه أصبح ماسونياً في إسطنبول في بيت لويس أميابل أحد أعضاء محفل برودوس الأول. التاريخ 20 تشرين الأول 1872[2].

لقد اهتم مراد الخامس بالنجارة تحت تأثير والده، وإن لم يكن اهتمامه بدرجة اهتمام أخيه عبد الحميد الثاني. كان هاوياً للعمارة التي لم تُر كثيراً، وحتى إنه أنشأ لنفسه قصرَ صيد في وادي قربغالي في قاضي كوي[3].

تشير بعض المصادر إلى أنه أحب الرسم، وهناك مسودات لرسوم سريعة تثبت هذا. ونعرف أن "مراد" الخامس يحب المطالعة، واهتم بالتاريخ والفلسفة. قرّب إليه أدباء عصره والعثمانيين الجدد. على سبيل المثال، كان نامق كمال أقرب صديق إليه.

---

(1) يتحدث وداد قوسال في مقالته المعنونة غُربت الحياة الموسيقية أولًا عن جمع ألحان مراد الخامس في خمسة مجلدات ضخمة. (صفحة 63).

(2) باول دومونت، العثمانية والتيارات القومية والماسونية، ترجمة علي بركطاي، الطبعة الثانية، إسطنبول 2007، منشورات بنك البناء والقروض، ص 32، 34.

(3) سيخصوار أوغلو، السلطان عزيز، ص 51.

الذكاء الذي يقرأ لغة الشجر:
عبد الحميد الثاني
(1909-1876)

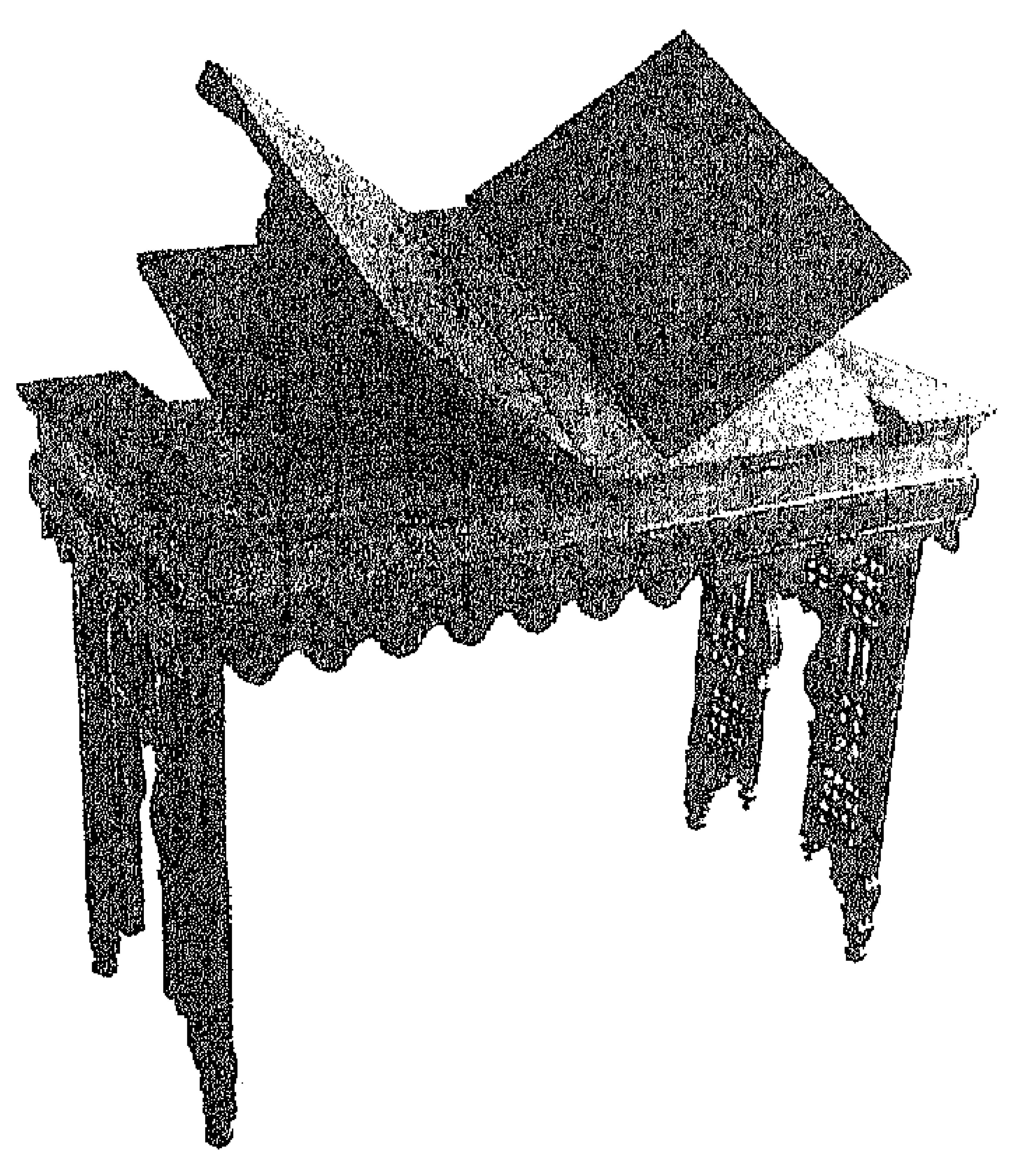
جاء إلى القصر، والتزم بعادة عزيز ووالده عبد المجيد خان جعل الله مثواهما الجنة، ودخل غرفة الأمانات المقدسة، وطلب العون الروحي من سيدنا الرسول لينجح بإسعاد الأمتين العظيمتين الإسلامية والعثمانية وحمايتهما.

أحمد مدحت أفندي

التنظيمات باعتبارها إحدى نقاط الانكسار في التاريخ العثماني نوع من محاولة إصلاح سفينة الدولة في عرض البحر. علّق نظام التنظيمات الأمل على البيروقراطية التي نشأت في المؤسسات التعليمية الحديثة لتحديث البنية الاجتماعية والسياسية والحقوقية بسرعة، ولكن المسافة بينها وبين الشعب بدأت تتباعد. وعندما حاول النظام إصلاح الدولة وقع بأزمة فقدان الشعب. في هذه النقطة، دخلت استراتيجية عبد الحميد الثاني المسماة إعادة فتح الدولة حيز التنفيذ، وبدأت في عهده مرحلة الحداثة مع الشعب.

تصفه المصادر أنه طويل القامة، ومحني الظهر قليلاً، بشرته جافة وسمراء، ولحيته خرنوبية داكنة، أمّا عيناه فلامعتان ومؤثرتان بمن ينظر إليه. كانت حياته متواضعة إلى أبعد الحدود، وبسبب حياته المقتصدة لقّبه كارهوه: حميد البخيل.

تلقى دروساً بالبيانو والموسيقى الغربية عندما كان أميراً؛ مثله مثل أبناء عبد المجيد جميعاً. عزف على الكمان، ويروى أنه ألّف معزوفات بأسلوب غربي في فترة إمارته. اهتم بالموسيقى التركية (مثلاً أرضى الحاج "عارف" بيك على



رحلة من صنع السلطان عبد الحميد (متحف أوقاف فن الخط).

الرغم من عقده كلها، وأعاده إلى أوساط القصر[1]، ولم يرعَ الموسيقى الغربية إلى درجة السلاطين الذين سبقوه. استمر بتنظيم الحفلات الموسيقية والأوبرا في مسرح قصر يلضظ[2]. ظهر من بين أولاده من يعزف البيانو كالسلطانة زكية، ومن يؤلف الموسيقى كالأمير برهان الدين.

"كانت لدى عبد الحميد الثاني هوايات كالفروسية والسباحة والرماية. وأحبّ الحيوانات وخاصة الخيول، ووصل حبه للرياضة إلى درجة العقدة. عندما زاره الرئيس الأمريكي الأسبق غرانت أهداه الحصانين ليوبارد (وهو حصان عربي أصيل) ولندن تري (وهو مغربي أصيل). وكان هذان الحصانان يشاركان في العروض في أمريكا، ويحظيان بإعجاب كبير، ويفوزان بالمراتب الأولى

(1) أُبعد الحاج عارف بيك عن القصر في عهد عبد العزيز بسبب مغامرة عشق في الحرم، وأعيد في زمن عبد الحميد أستاذاً لقسم الموسيقى التركية للمدرسة السلطانية برتبة نقيب متقدم. انظروا: يلماظ أوز طونا، الملحن الكبير الحاد عارف بيك مجلة الحياة تاريخ، العدد 6، تموز 1966، ص 23.

(2) قوصال، مصدر سبق ذكره، ص 63.

بالسباقات التي يشاركان فيها"[1].

كان محباً للخيول كثيراً؛ إلى درجة أنه أرسل وسطاء ليحظوا بحصان يدعى "فرحان" أُبعد صاحبه المصاب عن ساحة الحرب، وفعل ما يستطيع فعله من أجل أن يُهدى إليه. كان هذا الحصان ينحني قليلاً عندما يريد عبد الحميد أن يمتطيه. بعد أن أُسقط عن العرش في 31 آذار، أهدى أنصار الاتحاد والترقي أحد الخيول الأصيلة التي رعاها كعينه لقاطع الطرق البلغاري ساندانسكي. فوق هذا، كانت الهدية بمثابة شكر على خدماته التي قدمها للمشروطية[2].

يتحدث خالد ضيا أوشاقغيل عن حبه للحيوانات في مذكراته التي تحمل عنوان **القصر وما بعده** مستغرباً على النحو التالي:

"تعتبر الحيوانات – الخيول أولاً والكلاب في المرتبة الثانية – من أولى هوايات عبد الحميد. كم عددها؟ وكم نوعاً لديه؟ لا يمكن توقع هذا، لا بد أنها اختيرت من أفضل الأنواع. وهناك ببغاوات وكناريات وقمريات وحمام أيضاً. يبدو أن الحكومة قد باعتها ووزعتها قبل أن تُنقل إلى الخزينة الخاصة.

عندما كنا نجوب على الأجنحة الخاصة، أُعجبنا بالببغاوات الملونة، وحظائر الدجاج أيضاً. كان يتحين الفرصة من أجل أن ينزوي، ولكنه يجلب كلاباً وطيوراً وحيوانات داجنة عن طريق المؤسسات التي لها علاقات بأوروبا في بيه أوغلو، ويملأ بها القصر. وبالطبع لهذه الحيوانات ما يناسبها من مربين.

بقي الحمام الأقل رعاية، ونتيجة تزاوجه العشوائي كان أكثر نوع تعرض للتخريب. انجذب عبد الحميد إلى حب الحمام بشكل مخالف للعائلة المالكة، وقد عجز عن رعاية أزواج الطيور الجميلة هذه المتكاثرة إلى أن وصلت إلى الآلاف، وتركها بحالها، وخرب نوعها الذي تكبّد كثيراً من المشقة من أجل جلبها"[3].

---

(1) قانصو شارمان، **الجنرال غرانت في إسطنبول**، التاريخ الشعبي، العدد 46، حزيران 2004، ص 28.

(2) انظروا إلى: محمد حاج صالح أوغلو، **أنصار تركيا الفتاة والقضية المقدونية (1890–1918)** ترجمة إحسان جاطاي، إسطنبول 2008، منشورات يورد التابعة لأوقاف التاريخ، ص 300.

(3) خالد ضيا أوشاق غيل، **القصر وما بعده** إسطنبول 1965، منشورات انقلاب وأقا، ص 311–312.



عبد الحميد أثناء ذهابه إلى قاعة استقبال يوم الجمعة.

ثمة حيوانات أصيلة وطيور نادرة في حديقة قصر يلضظ التي تشبه حديقة حيوانات كالقصور العثمانية الأخرى. كان عبد الحميد يتردد على هذه الحديقة لكي يرتاح. ذهبت هذه الحيوانات لمن التقطها في عملية نهب القصر عام 1909، ونَفَقَ أغلبها. لم يُسمح له سوى بأخذ ببغائه إلى المنفى في سيلانيك. غير هذا، كانت لديه هواية تحنيط الطيور بعد موتها، والمحافظة عليها، وملء داخلها، وعرضها[1]. المعروف أن أول عمل حول الدواجن كتب في عهد عبد الحميد[2]. وكان في قصر يلضظ متحف حشرات[3].

كان لديه قط أنقروي أخذه معه إلى جانب الببغاء الذي يحبه كثيراً إلى منفاه في سيلانيك[4]. وبحسب عائشة عثمان أوغلو فإن اسم القط باموق | قطن[5].

(1) خلوق ي. شخصوار أوغلو، جناح عبد الحميد الخاص في قصر يلضظ وأسلوب حياته هناك، مجلة التاريخ المصورة، العدد 22، تشرين الأول 1951، ص 1009. غير هذا، انظروا إلى: أثر طوتل، حيوانات عبد الحميد، التاريخ الشعبي، العدد 48، آب 2004، ص 60-63.

(2) أول كتاب عن الدواجن في تركيا طلب عبد الحميد كتابته، الحيوانات وتربيتها في تركيا، المجلد 1، العدد 3، تشرين الثاني 1963، ص 19.

(3) عمر فاروق يلماظ، حياة السلطان عبد الحميد خان في الحرم، إسطنبول 2005، دار تشاطِ، ص 46.

(4) ميري مايلز باتريك، إسطنبول آخر السلاطين ترجمة عائشة آقصو، إسطنبول 2009، منشورات درغاه، ص 46.

(5) عائشة عثمان أوغلو، والدي عبد الحميد، ص 165، منشورات سلجوق، أنقرة 1984.

يـروي نديمـه الزنجـي نـادر آغا أنه رغب بجلب بقر القـرم المعروفة بوفرة حليبها، وتطويرها في القصر[1].

جلب أنواع الأزهار وفسـائل الورد من أوروبا أثناء عيشـه في قصر المهن وهـو أميـر، وحـوّل جزءاً من الحديقة إلى حديقة أزهار[2]، وأظهر اهتماماً خاصاً برعاية الحدائق بشكل علمي معاصر.

زرع في قصر المهن الذي يُعتبر امتداداً لبناء الوسـاطة مع القصر أشـجاراً مختارة وأزهاراً نادرة، وكثيراً ما كان يذهب إلى ذلك القصر، ويرتاح هناك. وقد زرع كاميليا جلبها من فرنسا في القصر السلطاني الواقع في المسلخ. غير هذا، كانـت ثمـة مغـارة في الحديقة مغطاة بمختلف أنواع الأزهار وأشـجار سـيكاس معمـرة[3]، وثمـة تنـوع نباتـي في قصر يلضظ. وما زالت هناك إلى اليوم أشـجار سيكويا نادرة[4].

دخلـت زهـرة يلضـظ الملونـة الجذابة كزينة إلى تركيا أول مرة سـنة 1885 في عهد السـلطان عبد الحميد، وأطلق عليها هذا الاسـم لأنها زُرعت في قصر يلضظ. الوطن الأصلي للزهرة هو المكسيك. كان الأزتيك يزرعون هذه الزهرة في حدائقهم في القرن الرابع عشر. أرسل ملك إسبانيا فيليب الثاني أحد علمائه لدراسة الغطاء النباتي لمستعمرته المكسيك. ونعرف أن أول زهرة يلضظ دخلت أوروبا وخاصة فرنسا عن طريق إسبانيا.

لنتابـع مغامـرة هـذه الزهـرة فـي تركيا مـن مقال مدير الحدائـق نجم الدين قاسم أوغلو:

"كان عبـد الحميـد الثانـي يتجـول فـي حديقة قصر يلضظ فـي أوقات فراغه،

(1) الزنجي الذي يمسكه عبد الحميد في كفه: نادر آغا مجلة التاريخ والأدب، العدد 7، تموز 1981، ص 48.

(2) عائشة عثمان أوغلو، والدي عبد الحميد، إسطنبول 1960، دار غوفان، ص 27-28.

(3) "قصور المسلخ"، إسطنبول 1994، منشورات رئاسة دائرة القصور القومية في مجلس الأمة الكبير، ص 14 و16.

(4) جليل أندر، "بعض الأوسمة والميداليات العثمانية المعلقة على التوابيت"، التاريخ والمجتمع، العدد 173، أيار 1998، ص 27.

ويسأل عن أسماء مختلف الأزهار بالتركية. قالوا له عن زهرة رآها حديثاً إنهم جلبوها باسم أضاليا. أعجب كثيراً بشكلها. ولأنها زرعت للمرة الأولى في قصر يلضظ (النجمة) وكأنها اقتطفت من السماء، وتشبه النجمة التي على العلم، التفت إلى البستاني، وأمر أن يكون اسمها يلضظ/ النجمة.

كانت ثمة خمسة أو ستة أنواع منها في بلدنا حينئذ. انتقلت يلضظ لاحقاً من حديقة القصر إلى حدائق الدور الفخمة. أعجب الناس بها وباسمها، وانتشرت باسم يلضظ[1].

كذلك الأمر، إن الخيزران الموجود حتى الآن في قصر بيلر بيه جاء هدية من اليابان، وعبد الحميد زرعه هناك. غير هذا، فقد جلب من الولايات المتحدة عن طريق السفير في واشنطن ماوروياني بيك شجرة أراكوريا (القرد)، وجلب كاميليا بواسطة البستاني روميو، وزرعها في قصر المسلخ[2].

كان عبد الحميد الثاني ماهراً جداً باستخدام السلاح. يكتب اسمه بالطلقات، ويثقب ميدالية تُقذف في الهواء. وقد أسس متحفاً صغيراً في قصر يلضظ للأسلحة القيّمة.

كما كان نجاراً ماهراً بالحفر والتزيين والتطعيم بالصدف والعاج. لديه أدوات نجارة خاصة في القصر. بدأ النجارة بتشجيع فنان نمساوي يدعى كارل جانسن. كان يرتدي بذلة العمل، ويدخل الورشة مع النقيب محمد أفندي أحد معلمي مصنع طوبخانة وينخرط بالعمل لساعات، ويفصّل مكتباً أو خزانة أو طاولة. ونعرف أن الباب المطعم بالصدف قرب قبر السلطان أيوب المرمم منذ فترة قريبة، والشبك المصنوع من خشب الورد الفاصل للمحفل السلطاني

(1) انظروا إلى: مقالة الزهرة التي أسماها عبد الحميد الثاني: يلضظ، لنجم الدين قاسم أوغلو لعام 1971 المنشورة في مجلة لم أستطع التثبت من اسمها مع الأسف (ص 20) لم أستطع تدوين بيانات المجلة المنشورة فيها المقالة لأن المجلة التي تضمها لدي ممزقة.

(2) رفيق فدان، أنواع الأشجار المستخدمة في حدائق القصور، القصور القومية، العدد 1، 1987، ص 68-71.

المزدوج في جامع يلضظ من صنعه[1].

إحدى الطاولات التي صنعها بيديه كانت موجودة في قصر تشانقايا خلال فترة رئاسة جودت صوناي (1973)، وقد قلبها جودت صوناي على رأس تكين أريبورنو الذي كان نائبه. (لا أدري إن بقيت هناك حتى الآن).

لقد دخلت القطع التي صنعها عبد الحميد المزادات، وإن كان هذا نادراً[2]. وقد عرفت الصحافة عام 1966 بطقم مفروشات صنع ورشة عبد الحميد كان في بيت ضابط متقاعد يدعى أدهم أوز أرصلان. نشر في ذلك التحقيق حوار مع أحد المعلمين الذين عملوا في ورشة النجارة الخاصة بعبد الحميد[3].

أبرَزَ إلبر أورطايلي أن التصميم هو الجانب الأهم في عمله:

"لو استمر عبد الحميد الثاني بالنجارة ولم يصبح سلطاناً لغدا أغنى بكثير. إنه مبدع تصميم نادر. الخزائن التي تحفظ قيود أرشيف السجل الشرعي لدار إفتاء إسطنبول من عمله. ولا يمكن تصوّر طريقة أفضل لحفظ أوراق تاريخية خاصة إلى هذه الدرجة في تصميم عالي المستوى من هذا النوع".

بحسب ما نقله سعيد ناحوم ضوهاني فإن عبد الحميد استقدم منشاراً يدوياً من اليابان يدعى "جابون أو جابونيز"، وهو أول من أدخل تلك الأداة إلى تركيا، وصنع منها أعداداً كبيرة في ألمانيا، وأدخلها سوق إسطنبول[4]. غير هذا، فقد كان يحب الأشياء القديمة، ويشتريها، ويضمها إلى مجموعته.

(1) نجدت صقا أوغلو **عبد الحميد الثاني**، موسوعة إسطنبول بين الأمس واليوم، المجلد 1، إسطنبول 1993، ص 42.

(2) على سبيل المثال، في المزاد الذي نظمته شركة Arts & Antiques بتاريخ 15 أيار 2005 في فندق "The Ritz Carlton" عُرض للمزاد صندوق كتابة له أدراج وفيه رحلة صنعه عبد الحميد الثاني، وأهداه إلى إحدى الأسر الملكية الأجنبية بمبلغ 7000 يورو. من أجل صورته وشرحه انظروا إلى: "مجموعة السلطان عبد الحميد: دليل المزاد"، إسطنبول 2005، ص 68-69.

(3) انظروا إلى: طورغوت إتنغو، **مفروشات السلطان عبد الحميد** مجلة الحياة تاريخ، العدد 3، نيسان 1966، ص 77-79 (مع أربع صور).

(4) الناقل: فريال إرز، **ورشة التصليح السلطانية أو ورشة عبد الحميد للنجارة** التاريخ والمجتمع، العدد 34، تشرين الأول 1986، ص 203.

كان يشغّل روميين في ورشته للنجارة. اسم الروميين (ميخائيل رفتاكيس) و(ستاماتيس فولغاريس)، وقد فتحا دكاناً في إسطنبول بعد أن تركا القصر، وكثيراً ما كانا يقولان إن السلطان عبد الحميد هو من علمهما المهنة[1].

نعرف من ابنة عبد الحميد عائشة عثمان أوغلو أنه أقام فترة في قصر طرابية في عهد عبد العزيز، وحينئذ تعلق بهواية المراكب الشراعية، وبدأ يمارسها. يبدو أن عبد العزيز امتعض حين أخبروه أن الأمير عبد الحميد يُشرع في البحر يومياً، فأمر بأن يقيم في قصر المسلخ. ولكنه لم ينس طورهان بيك الذي علمه فتح الشراع بعد أن صار سلطاناً، وجلبه إلى القصر، وعيّنه مشرفاً على برك القصر ومراكبه وزوارقه[2].

هواية السلطان الأخرى هي قراءة الروايات البوليسية، أو الأصح إقراؤها. المعروف أن لديه مجموعته الخاصة التي تتألف من 600 مخطوطة رواية بوليسية[3]. كان معجباً بالسير آرثر كونان دويل كاتب سلسلة شارلوك هولمز، ويقال إنه كان يرسل تحياته له مع الذاهبين إلى إنكلترا.

غير هذا، كان يفخر بمكتبته التي تضم عشرة آلاف عمل؛ بعضها نادر، ويستمتع كثيراً بعرض هذه المكتبة على زواره الأجانب (مثلاً المستشرقة السيدة ماكس مولر). ويبيّن عثمان نوري إرغين الذي لا يبالغ بالنظر في كتابه **عهد عبد الحميد الثاني وسلطنته** أن السلطان اعتاد على زيارة المكتبة بشكل منتظم بعد كل غداء.

وقد طلب منه الإمبراطور الألماني فيلهلم الثاني مخطوطاً حول أمراض العين لا توجد منه في مكتبته سوى نسخة واحدة، فلم يُرسل عبد الحميد الكتاب الأصلي، وطلب من الخطاط أن يكتب ترجمته، وأهدى الإمبراطور إيّاه. وبهذا يبدو لنا مدى اهتمامه بالمحافظة على المخطوطات.

إضافة إلى الروايات البوليسية، كان هاوياً لكتب الرحلات. مثلاً، طلب

---

(1) أوندر كوتشوك إرمان، **المفروشات في الإمبراطورية العثمانية 1** طومباق، العدد 21، 1998، ص 27.

(2) عائشة عثمان أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 27–28.

(3) موسى غونر، (حوار مع إرول أوية بازارجي) لدى عبد الحميد الثاني ستمائة مخطوط رواية بوليسية، جريدة زمان – بازار كيف/ متعة الأحد، 20 كانون الثاني 2008.

كتاب رحلة المستكشف نانسن إلى القطب الشمالي. ثمة مئات كتب الرحالة في مكتبة يلضظ. لعل عدم استطاعته القيام برحلات جعله يطلب ترجمة كتب الرحالة في العالم. "كان عبد الحميد يعرف جغرافية العالم الطبيعية والبشرية كلها تقريباً"[1].

جلب فرقَ مسرح وأوبرا إلى المسرح الذي أعده بشكل خاص في قصر يلضظ، وشاهد عروضها بصحبة عائلته. على سبيل المثال، دعا الممثلة الشهيرة على مسارح فرنسا مدام آنّا جوديك إلى مسرح قصر يلضظ عندما زارت إسطنبول في أوائل عام 1896، وأدت عرضاً بحضوره[2]. غير هذا، فقد جاء الممثل الإيطالي الأهم إرنستو ريسي (1827-1896) في 12 آذار 1889 إلى إسطنبول، وأدى مسرحيتي شكسبير عطيل وتاجر البندقية بحضور السلطان في مسرح قصر يلضظ، ولإعجاب عبد الحميد الشديد بريسي وزملائه قدم لهم أوسمة. فنان المسرح الإيطالي إرمنتو نوفيللي أيضاً مثّل مسرحية تاجر البندقية بحضور عبد الحميد[3]. من أحب الأعمال المسرحية إليه مسرحية اللصوص للشاعر الألماني الشهير فريدريك شيلر (وفاته: 1805).

يشرح عزيز إسانبل العارف للقصر عن قرب حبه للمسرح على النحو التالي:

"كانت أوبريات جميلة تؤدى بمستوى متوسط على خشبة مسرح قصر يلضظ اللطيفة. وكان أراندا باشا الفنان الشهير عالمياً يقود الأوركسترا، وهذا الرجل مدرس عبد الحميد الثاني على البيانو... كان هناك مسرح ارتجالي يقيادة الكوميديان عبدي، ومسرح خيال ظل فريد يحركه المداح (الحكواتي) صالح"[4].

(1) نيازي أحمد بان أوغلو، الجانب المجهول لدى عبد الحميد القرن العشرين، 27 أيار – 2 حزيران 1950 (لم يتم التأكد من تاريخه) ص 12.

(2) متين أند، النجمات اللواتي مررن بإسطنبول، سكاي لايف، شباط 2006، ص 84.

(3) متين أند، مشاهير ممثلي المسرح في إسطنبول القديمة، مجلة الحياة تاريخ، العدد 11، كانون الأول 1967، ص 14-18.

(4) عزيز إسانبل، فترة حكم عبد الحميد الثاني، هفطا/ الأسبوع، العدد 124، 1951، ص 25.



واحدة من لوحات الخط النادرة لعبد الحميد الثاني.

أدخل السلطان عبد الحميد الثاني فنانَ المسرح الشعبي الكبير عبدي إلى دائرة الموسيقى السلطانية عام 1898، ورعاه[1].

كان عبد الحميد هاوياً للرسم في شبابه، وقال لواصف بيك عندما أجرى معه حواراً أثناء إقامته الجبرية في قصر بيلر بيه:

"أنا رسام إلى حدٍّ ما. أردت أن أرسم تلك المناطق (يقصد سيلانيك) عدة مرات. ولكن الزاوية لم تعجبني. لو كانت لدي آلة تصوير، لالتقطت لها صورة، ثم نقلتها على الورق؛ فذلك أسهل. ولكنني لم أستطع أن أفعل ذلك لعدم وجودها لدي"[2].

كلف رسام القصر الإيطالي فاوستو زونارو برسم لوحات فتح إسطنبول الرائعة، إضافة إلى اللوحات التاريخية التي نستخدمها اليوم. جاء زونارو إلى إسطنبول عام 1891، وكلفه عبد الحميد الثاني بمهمة رسام القصر، وفقد هذا اللقب بقرار الحكومة بعد إسقاط السلطان عن العرش.

(1) سرفر إسكيت، عبد الرزاق عبدي الموسوعة الشهرية، رقم 26، حزيران 1946، ص 951.

(2) واصف بيك، لقائي مع السلطان عبد الحميد، مجلة الحياة تاريخ، العدد 1، شباط 1967، ص 31.

وقد عمل الرسام الإيطالي لويجي أكورونة أيضاً رساماً للقصر في عهد عبد الحميد[1]. ونعرف أيضاً أن الرسام الروسي أيوازوفسكي الذي كان يدعى إلى القصر في عهدي عبد المجيد وعبد العزيز قُبل في القصر في عهد عبد الحميد عام 1880، وكُرِّم، ومنح وسام عبد المجيد من الدرجة الأولى[2].

ثمة وثائق كافية لألبوم صور له يتألف من 30 ألف صورة، ودوره بتطوير فن التصوير التركي بقدر ما كان هاوياً للتصوير. ما زال هذا الألبوم أهم مصدر بصري عن المدن العثمانية ومجتمعها. الغريب بالأمر أنه لم يكن يرغب بالتقاط الصور له.

يذكر جمال قوطاي أنه ماهر بصيانة الساعات من دون أن يذكر المصدر. وقد تحدث عن أنه اشتغل بصيانة الساعات بشكل خاص أيام منفاه في قصر بيلر بيه. جُلب يوهان ماير من ألمانيا بصفة كبير ساعاتيي القصر، وكان يقوم بصيانة ساعات قصر يلضظ إضافة إلى أعماله[3]. اهتمام السلطان بالساعات أكسب قصر يلضظ مجموعة ساعات غنية[4].

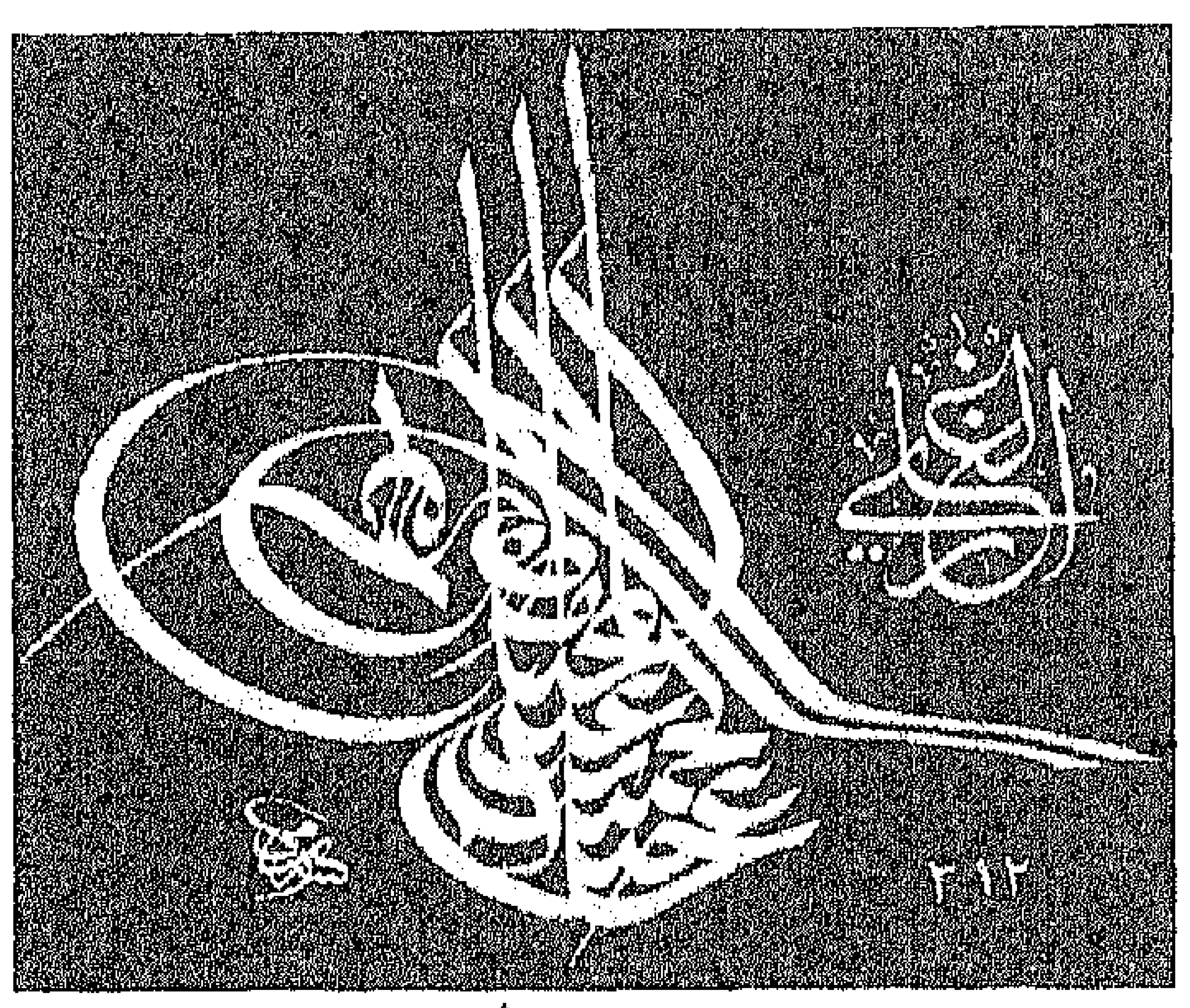
قسم كبير من أبراج الساعات التي أنشئت في المدن العثمانية التي بقيت داخل تركيا أو خارجها نفذت بأمره بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لجلوسه على العرش. ساعة ميدان قوناق في إزمير على سبيل المثال افتتحت في 1 أيلول 1901. مع الأسف، أزيلت طغراء عبد الحميد من تحت الساعة، وشعار الدولة العثمانية على الوجهين، ووُضعت مكانهما زخرفة هلال ونجمة خاوية

(1) حول علاقة فاوستو زونارو بالسلطان عبد الحميد، بتك كرتبوكة، "أقارتلر، رقم 50"، إسطنبول، العدد 6، تموز 1993، ص 107-109. سما أونر، رسامو القصر لدى السلطان عبد الحميد وفاوستو زونارو، الندوة الدولية للتأثير المتبادل في الفن: أنقرة" 25-27 تشرين الثاني 1998، أنقرة 2000، ص 186-191.

(2) سما أونر، إيفان قسطنطينوفيتش أيوازوفسكي (1817-1900) والقصر العثماني، القصور القومية 1993، ص 112-113.

(3) غوكطاش، مصدر سبق ذكره، ص 7.

(4) مجموعة الساعات في القصور القومية/ Clock in the National Palaces إسطنبول 1997، منشورات رئاسة القصور القومية في مجلس الأمة التركي الكبير، ص 17.



طغراء عبد الحميد الثاني التي كتبها سافي أفندي (تاريخها 1896/ 1312).

من الذائقة[1].

الخط هو جانب عبد الحميد غير المعروف كثيراً. أشهر لوحاته عبارة آه يا ودود المكتوبة بماء الذهب على خلفية خضراء[2].

كانت لديه ورشة حدادة وأخرى للخزف في قصر يلضظ. نعرف أنه كان محباً للخزف، وأسس مصنعَ يلضظ للخزف. وبتأسيس عبد الحميد مصنع الخزف قدم خدمة جليلة لتاريخ الفن التركي، وسما بالذائقة التركية. تابع إنتاج الأعمال التي يحتاج القيام بها إلى دقة عالية في إسطنبول، وجاء خزف يلضظ ليخلد اسمه باعتباره راعياً للفن[3].

كان يفهم الفرنسية، ويتكلم بها إذا ضغط على نفسه قليلاً. غير هذا، هناك معلومات تشير إلى اهتمامه بالكيمياء والطب[4].

(1) نجمي أولكر، برج ساعة إزمير، لالة، العدد 7، كانون الأول 1990، ص 13. من أجل الاطلاع على مصمم هذه الساعة وآثاره الأخرى انظروا إلى: جنك برقانط، "التوقيع الموقع على أزمير: رايموند تشارلز بير"، سكاي لايف، شباط 2006، ص 65-76.

(2) كمال تشغ، **السلاطين الخطاطون**... عالم التاريخ، العدد 5، 15 حزيران 1950، ص 197.

(3) خلوق ي. شخصوار أوغلو، **السلطان عبد الحميد الثاني** مجلة التاريخ المصورة، العدد 61، كانون الثاني 1955، ص 3631.

(4) حول حبه للكيمياء نظروا إلى: أحمد رشاد، **عبد الحميد والنساء** عالم التاريخ، العدد 11، 15 أيلول 1950، ص 444.



Le Petit Journal

SUPPLÉMENT ILLUSTRÉ

على الرغم من ندرة صور عبد الحميد الثاني، فقد كان من النجوم الذين كثيراً ما تتصدر صورهم المتوفرة صفحات الصحافة الأوروبية. يُرى أعلاه غلاف مجلة **Le Petit Journal** الفرنسية لتاريخ 21 شباط 1897.

نعرف أن عبد الحميد يعتني بلباسه، ولكنه كان يفضّل البساطة فيه، ويغيّر بنطاله عدة مرات في اليوم لأنه يتجعد عند الصلاة. كان يفضّل ارتداء ألبسة قماشها حريري. وكان يرتدي سترة، ويزرر أزرارها حتى الرقبة[1]. لم يخلع سترته حتى على فراش الموت، ولم يقابل أحداً بالقميص. كان يضع في جيب منديل السترة ساعة مربوطة بسلسلة رفيعة، ويدس منديله في كم السترة الأيسر على الدوام. ولا بد أن يلبس قميصاً تحت السترة[2].

(1) زيا شاكر، الأيام الأخيرة للسلطان عبد الحميد، إسطنبول 1943، ص 261.

(2) سميح ممتاز س. كان يا مكان إسطنبول 1946.

ونعرف أنه كان يطلب من السفير صالح منير باشا في باريس أن يرسل له بعض الملبوسات والألبسة الداخلية[1]. كان الهولندي جين بوتر خياطه الخاص، وهذا صار خياط أتاتورك الخاص لاحقاً[2]. طبيب أسنان القصر سامي غونزبرغ عمل طبيب أسنان لدى أتاتورك أيضاً[3].

الجانب الغريب لدى عبد الحميد الثاني هو حبه للطعام. ولكنه كان يأكل كمية قليلة. لذلك عرف كيف يحافظ على لياقته حتى مماته نتيجة قلة أكله[4].

فطوره صباحاً كان عبارة عن بيضتين مقليتين بالزيت وفنجانين من القهوة، ويتناول غداءً بسيطاً، وعشاءً خفيفاً، ويفضّل طعام الخضار ورقائق العجين، ولا يولي أهمية كبرى للحم، ويعيش عموماً حياة بسيطة.

كان يحب القرفة، ويضيفها لكل طعامه تقريباً. واشتهر بقوله: "لو كان الأمر معقولاً لرششت قرفة على الماء قبل أن أشربه"[5]. تقول ابنته عائشة عثمان أوغلو في مذكراتها إنه كان يحب الليموناضة بالنعناع. وكان يحب نبع قرة قولاق في بايقوظ، ولكنه جلب إلى القصر مياه تشامليجا الكبرى لكي لا يُعرف من أي ماء يشرب[6].

صان جوامع سادتنا "أبو بكر" وعمر وعثمان وعلي وخديجة وفاطمة وحمزة والعباس، وابنة عم الرسول ﷺ أم هاني، وابن عمه سفيان، وأول مؤذن رفع الأذان بلال الحبشي. كما أمر بصيانة قبر عبد الله بن عباس المدفون في الطائف، وابن سيدنا علي الثالث محمد ابن الحنفية بشكل غاية في الجمال،

(1) نيازي أحمد بان أوغلو، كيف كان السلطان عبد الحميد يجلب ألبسته وبعض مأكولاته من أوروبا؟ التاريخ يتكلم، العدد 31، آب 1966، ص 2595-2598.

(2) عفيفة باتور، بناء بوتر موسوعة إسطنبول بين الأمس واليوم، المجلد 2، إسطنبول 1993، ص 312-314.

(3) رفعت ن. بالي، طبيب أسنان القصر والجمهورية سامي غونزبرغ إسطنبول 2007، دار النشر.

(4) يلماظ أوز طونا، أحاديث التاريخ إسطنبول 1998، منشورات أوتوكان، ص 295.

(5) تم التوصل إلى أن القرفة تفيد بتخفف التوتر والشعور بالتعب، وتخفض السكر في الدم، وهي صديقة للمعدة، ولها خصوصية بتقوية المناعة لدى الإنسان. من أجل الحصول على معلومات انظروا: عدنان صراتش أوغلو، "دليل الثقافة النباتية"، إسطنبول 2005، ص 183-184.

(6) مدير المسمكة علي بيك رضا، النساء في حياة القصر العثماني - IX مجلة التاريخ والأدب، العدد 9، أيلول 1981، ص 72.

وأرسل الستائر والأغطية هدية. أعاد بناء بيت سيدتنا أمينة الذي ولد فيه سيدنا الرسول. وجَدَّد قبري سيدتنا خديجة وسيدتنا أمينة. وقدّم كثيراً من الخيرات الأخرى للأرض المقدسة[1].

بحسب المعلومات التي قدّمها عزيز إسانبل العارف لقصر يلضظ عن قرب، فقد كان عبد الحميد الثاني يتابع حالات الولادة اليومية في إسطنبول، ويرسل نقوداً وألبسة ومؤناً للمرأة الفقيرة التي تضع مولوداً[2].

توفي أحد توأمه أحمد نور الدين في سنته الثالثة والأربعين في منفاه الباريسي، والثاني محمد بدر الدين في الثانية والنصف من عمره نتيجة المرض. تاريخ ولادتهما 22 حزيران 1901[3].

وهو أول سلطان يُسقَطُ عن العرش بقرار مجلس النواب. (27 نيسان 1909).

(1) من أجل معلومات أوسع، انظروا إلى: محمد الأمين المكي، خدمات السلاطين للحرمين، ص 19-33.

(2) إسانبل، مصدر سبق ذكره، ص 25.

(3) آلدرسن، مصدر سبق ذكره، ص 168؛ من أجل معلومات حول أحمد نور الدين وحياة أرملته، وصراعها من أجل الميراث، انظروا إلى: عمر فاروق يلماظ، حياة السلطان عبد الحميد خان في الحرم ص 117-119.

شاعر تشنق قلعة وسلطانها: محمد الخامس رشاد (1909–1918)

كان حاضر البديهة وقوي الذاكرة،
سليم القلب وحالم الطبع، لا يؤذي أحداً.

علي فؤاد تورغالدي

محمد الخامس رشاد أولُ سلطان جلس على العرش بقرار من مجلس العموم المجتمع في يشيل كوي. أطلق الاتحاد والترقي اسم "محمد" على السلطان رشاد بعد انتخابه سلطاناً في 31 آذار تيمناً باسم السلطان محمد الفاتح. لم يتدخل السلطان رشاد الملكي الدستوري بكل معنى الكلمة بالسياسة كثيراً، وكان ينتفض بوجه الذين يطالبونه بالتدخل قائلاً: "ما ذنب أخي لتسقطوه عن العرش إذاً؟".

كان السلطان رشاد مربوع القامة، وبديناً، وأشقرَ، وأزرقَ العينين، ومستدير الوجه، وبريئاً، وطيب القلب، ويشبه الدراويش.

بقي السلطان رشاد ولياً للعهد ثلاثة وثلاثين عاماً، وجلس على العرش في الخامسة والستين من عمره. ومحمد الرابع "الصياد" أصغر سلطان جلس على العرش.

كان السلطان رشاد قابض اليد إلى درجة أنه يُسلّم موظفي القصر رواتبهم بيده[1].

هو من المنتسبين إلى الطريقة المولوية. لهذا السبب احترم المولوية، وشيوخ الطرائق عموماً، وجاملهم. شارك بحفل افتتاح التكية المولوية المبنية حديثاً في

(1) عزمي نهاد إرمان، حضرة السلطان يوزع الرواتب! التاريخ عبر السنين، العدد 2، شباط 1980، ص 34-35. أوشاقغيل، القصر وما بعده، ص 349-352.



صورة تظهر السلطان "رشاد" أثناء ذهابه إلى قبر السلطان أيوب من أجل حفل تقليد السيف.

أيوب بتاريخ 3 تشرين الثاني 1910[1].

كان قارئاً للكتب الدينية، ومهتماً بالآداب الشرقية. لطالما كرر أنه سعيد جداً لعدم تركه أي صلاة ليقضيها. توفي بعد سوء حالته أثناء زيارته البردة النبوية بتسعة أيام.

تتفق المصادر على أن السلطان "رشاد" طيب القلب، ولبق لا يريد أن يزعج أحداً[2]. كان يهرع إلى الصلاة عندما يغضب من أحد، وتبرد حدة غضبه حتى نهاية الصلاة[3]. كان يفضل قراءة كتب من قبيل الدلائل المحمدية.

أجاد الفارسية، وأحب الأدب، وكتب الشعر. له قصيدة شهيرة نظمها بمناسبة نصر تشنق قلعة، وكتب مناظرة لها يحيى كمال.

هاجم تشنق قلعة براً وبحراً بقوة

عدوّا أهل الإسلام القويان معاً

لكن مدد الله أسعف جيشنا

وصار كل جندي قلعة فولاذية

(1) لطفي سماوي، أيام القصر العثماني الأخيرة إسطنبول 2006، منشورات بيغاسوس، ص 116.

(2) أوشاقغيل، القصر وما بعده، ص 349-352.

(3) منير سيرار، محمد الرابع رشاد مجلة الحياة تاريخ، العدد 8، آب 1976، ص 19.



القصيدة الشهيرة التي كتبها السلطان رشاد بمناسبة انتصار تشنق قلعة.

عزيمة أولادي الجنود القوية
جعلت العدو يدرك عجزه نهايةً
فروا وكرامتهم تحت الأقدام
حين حاولوا خرق قلب الإسلام
اسجد شكراً يا رشاد وادعُ أن
يجعل الهدى ملك الإسلام آمناً

(ثمة شائعة ما زالت تتردد منذ 90 عاماً مفادها أن الاتحاديين طلبوا من أحد شعراء ذلك الوقت أن يكتب هذه القصيدة، ووقعوها باسم السلطان لاستغلال القضية لصالحهم).

كان السلطان رشاد محباً لقراءة التاريخ في أوقات فراغه، وانشغل بركوب الخيل، والذهاب إلى الصيد، والنزهات حين كان أميراً[1]. يتحدث خالد زيا

(1) خلوق ي. شيخصوار أوغلو، السلطان محمد الخامس رشاد مجلة التاريخ المصورة، العدد 13، كانون الثاني 1951، ص 524-527.

أوشاقغيل في كتابه القصر وما بعده عن حبه للحمام، وقضائه الكثير من وقته في برج الحمام الخاص بقصر ضولما بهتشة. ولعلم السلطان رشاد بحب أوشاقغيل للحمام، أمر مربي الحمام لديه ببناء برج حمام في داره الواقعة في نيشان طاشِ، وأرسل له عشرين أو ثلاثين زوجاً من أفضل الأنواع[1]. وبحسب ملاحظات كاتب الوساطة علي فؤاد تورك غالدي، فإن الحمام متعته الوحيدة. كان يستجلب أنواعاً أصيلة من الحمام الأوروبي، ويزاوجها مع الأنواع المحلية للحصول على أنواع جميلة من الحمام. أمر ببناء مختلف أنواع أبراج الحمام في حديقة قصر ضولما بهتشة الخلفية، وبيت يتألف من غرفة واحدة، وكان يذهب إليه في الأمسيات التي لا يخرج فيها، ويتفرج على الحمام[2].

أحب السلطان رشاد قصر الزيزفون وحديقته كثيراً، وغالباً ما كان يذهب بعد استقبالات يوم الجمعة إليه. كان يقطف وروداً من حديقته في موسم الورد، ويقدم لكل من نساء الحرم واحدة. ولكنه لم يسخُ بقطف وردتين[3].

بحسب خالد زيا، كان يحب من الأزهار الشقائق الصفراء. عندما عرّج على السلطان قبيل سفره إلى ألمانيا، قال له: "أرجو أن تجلب لي معك شقائق صفراء من ألمانيا إذا وجدت". وقد جلب خالد زيا شقائقَ، ولكن السلطان كان قد توفي وقتها.

كان السلطان محمد الخامس خبيراً بالطعام، ولكن طعامه قليل جداً، وطالما ردد: "إذا أكلتُ لا أشبع". ونعرف أن هذا جزء من حديث الرسول ﷺ.

نعرف أن السلطان "رشاد" تقليدي، ويخرج إلى المراسم ببذلة عسكرية. على الرغم من أن الاتحاديين ألغوا الطربوش من اللباس العسكري، وأحلوا محله القبعة الصوفية (قلبق)، فقد استمر باعتمار الطربوش عندما كان يرتدي بذلة المشير[4].

السلطان محمد رشاد هو السلطان الأول والوحيد الذي خضع لعملية جراحية

(1) أوشاقغيل، مصدر سبق ذكره، ص 312.

(2) علي فؤاد تورك غالدي، ما رأيته وسمعته الطبعة الثالثة، أنقرة 1984، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 269-270.

(3) تورك غالدي، مصدر سبق ذكره، ص 265-266.

(4) ناهد سري أريك، قصص القصر من التاريخ القريب، عالم الجغرافية والتاريخ، العدد 1، 15 نيسان 1959، ص 22.

أثناء جلوسه على العرش. استُؤصلت له حصاة كلوية في عملية جراحية خضع لها في قصر يلضظ بتاريخ 24 حزيران 1915. وقد جَلَب من ألمانيا بروفيسور يدعى جيمس إسرائيل لكي يجريها له، وقد قدّم له الوسام العثماني الكبير من الدرجة الأولى تقديراً له لنجاح العملية[1].

الخصوصية الأخرى للسلطان رشاد أنه آخر سلطان ولد في إسطنبول، ودفن فيها. وكما رأينا من قبل، إن "سليم" الثاني أول سلطان ولد في إسطنبول ومات فيها. غير هذا، فهو آخر حاكم عثماني مات على العرش بشكل طبيعي. وكما هو معروف، إن السلطان الذي جاء بعده وحد الدين توفي في سان ريمو، ودفن في دمشق.

---

(1) آيتن آلطنطاش ونرمين صنار، مقطع من تاريخنا الطبي: عملية السلطان رشاد التاريخ والحضارة، العدد 34، كانون الثاني 1997، ص 50-53.

كيف كان أنور باشا يتناول الطعام؟

دعا السلطان رشاد أعضاء الحكومة الكبار إلى مزرعة بال مومجو بعد نصر تشنق قلعة، وجلس مع ضيوفه إلى المائدة. كان الصدر الأعظم سعيد باشا حليم، ووزير الحربية أنور باشا، ووزير الداخلية طلعت بيك جالسين إلى المائدة أيضاً. أثناء حديثه مع كاتب دائرة الوساطة علي فؤاد بيك (تورك غالدي)، قدم له القصيدة التي كتبها عن تشنق قلعة، وقال عن أنور باشا الذي كان يتناول الطعام التالي:

– هذا الرجل لا يعرف كيف يؤكل الطعام. إنه يشرب الماء مع الباميا! وهل يُشرب الماء مع الباميا؟

علي فؤاد تورك غالدي[1]
رئيس كتاب دائرة الوساطة

(1) ما رأيته وسمعته، الطبعة الثالثة، أنقرة 1984، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 268.

"هذه كارثة": محمد السادس وحد الدين (1922-1918)

بقدر ما كان لبقاً في جناحه كان بارداً في الخارج.

علي فؤاد تورك غالدي

جلس وحيد الدين (درج اسمه وحد الدين) الذي ما زلنا نناقش ما إذا كان "بطلاً أم خائناً؟"، على عرش السلطنة في أحرجِ ظروف الدولة. وبحسب ما يرويه علي فؤاد تورك غالدي، فإنه عندما انتبه إلى أنه نسي عكازه في تشنغل كوي أثناء ذهابه إلى مراسم الجلوس، قال: "هذه كارثة!". ويقال إن هذه العبارة التي قالها وهو يخطو عتبة قصر طوب قابِ كانت سبباً بجعل فترة حكمه كارثية أكثر[1].

كان طويل القامة، وأسمر، وجاف البشرة، ومحني الظهر قليلاً. وكان حليق اللحية مثل السلطان سليم الجبار. وهو السلطان العثماني الوحيد الذي استخدم نظارة. وبحسب شهادة القريبين منه مثل علي فؤاد تورك غالدي فقد كان "شيطاني الأفكار" و"سريع الانتقال من فكرة إلى أخرى".

كان يرتدي بذلة عسكرية على الأغلب، ويضع فوق أنفه نظارة دون إطار.

بحسب ما أوردته ابنته السلطانة صبيحة فقد بنى نفسه بنفسه، وحتى إنه كان يذهب إلى مدرسة الفاتح الدينية مخفياً هويته الحقيقية، ويدرس علم الكلام، والفقه، والتفسير، والحديث النبوي. ويذكر علي فؤاد تورك غالدي أنه عالم فقه على الرغم من عدم إجادته العربية والفارسية كالسلطان رشاد.

تلقى دروساً في الموسيقى الغربية على يد نجيب باشا مثل أخيه محمد رشاد. تعلّم العزف على البيانو، ولكنه أحب الموسيقى التركية كثيراً، وكان ملحناً

(1) تورك غالدي، مصدر سبق ذكره، ص 138.



السلطان الأخير وحد الدين على وشك الذهاب إلى حفل بعربته.
الشخص المجاور له هو الصهر محمد علي بيك.

بدرجة جيدة. ما زالت مقطوعته السيرتو على مقام الحجاز تحظى بالإعجاب إلى اليوم. وتم التحقق من ثلاثة وستين لحناً له، بين أيدينا مدونات لواحد وأربعين منها[1].

يفهم ما يقرأه جيداً، ويفضّل الكتابة بقلم الرصاص.

بحسب ما تفيدنا به المصادر فقد كان يعرف قواعد العربية كلها، ولكنه لا يستطيع التكلم بها. ويعرف الفارسية بدرجة قريبة منها.

يُعتبر السلطان وحد الدين خطاطاً جيداً. "كان خطه في الرقعة بشكل خاص جيداً جداً". وحتى إن خطه من أجمل خطوط أفراد الأسرة المالكة، وهو أقلهم خطأً بالكتابة.

يقول محمد إنال كمال ابن الفلكي حول جانبه الموسيقي:

"كانت ألحانه ألحان أساطين، يرسلها مع أغانيه إلى الفرقة السلطانية مرة كل أسبوع، قائلاً إنها لأحد المتدربين القدماء، إذا وجدوا فيها خيراً فليعزفوها ويؤدوها، وإلا فليرموها. وعند عزفهم لها، وغنائها تستغرب الجاريات

(1) مراد باردقجي، الألحان السلطانية، إسطنبول 1997، منشورات بان. ويقول وداد قوصال "خلّف أكثر من سبعين عملاً" (مصدر سبق ذكره، ص 63).



مراسم جلوس وحد الدين تتم في قصر طوب قابِ. يوم تاريخي. يظهر على اليمين الباشاوات أنور وجمال وطلعت مع شيخ الإسلام موسى أفندي كاظم (1918).

القديمات من إبداع أعمال كهذه، وفي النهاية أدركوا أنها أعمال السلطان..."[1].

يقول ابن الأمين إنه أثناء حديثه مع سيدة من الخزينة سألها عن الآلة الموسيقية التي يعزف عليها السلطان، فأجابت: "أي آلة يمسكها يعزف عليها، ليست هناك آلة محددة". ومن المعروف أن لديه مجموعة مدونات موسيقية.

عُرف عنه اللباس الجيد والفخم. ونعرف مما روته ابنته عنه أنه كان يركب الخيل[2]، وماهر باستخدام السلاح والصيد[3].

بحسب كاتب دائرة الوساطة خالد زيا أوشاقغيل، إن وحد الدين "أكثر من أحب الحمام في الأسرة المالكة، وامتلك أفضل أنواع الطيور".

جاء في خبر مراسم جلوس وحد الدين المنشور في مجلة الحرب التي كانت تصدر في تلك الفترة الأسطرُ التراجيدية التالية:

"إنه الرابع من تموز. ثمة استعدادات غير عادية في قصر طوب قابِ. فُرِشَ السجاد أمام باب السعادة... العرش الذهبي المزيّن بالزمرد البرّاق يلمع تحت

(1) الناقل: آقصون، مصدر سبق ذكره، ص 213.

(2) مدحت سرت أوغلو، أحاديث من التاريخ ص 181، هامش 32.

(3) مراد باردقجي، شاه بابا: حياة آخر الحكام العثمانيين محمد الخامس وحيد الدين ومذكراته ورسائله الخاصة، الطبعة الثامنة، إسطنبول 2002، منشورات بان، ص 492-495.

أعمدة باب السعادة الرخامية والسقيفة المحفورة والمزينة للباب العريض. هنا سيجلس وحد الدين على عرش أجداده البرّاق الرائع... بجلوس السلطان الجديد يأمل الجميع بحياة جديدة للوطن العثماني، ملؤها اليمن والسعادة وفيض البركة"[1].

أُلغيت السلطنة بموجب القرار الذي اتخذه مجلس الأمة التركي الكبير المجتمع في أنقرة، وأُسْقِط وحد الدين، وبهذا كان السلطان الثاني والأخير الذي يُسقط بقرار من المجلس (1 تشرين الثاني 1922). حين غادر بلده في 17 تشرين الثاني كان خليفة فقط وليس سلطاناً.

---

(1) الجلوس السلطاني في قصر طوب قابِ العدد 27، ص 418؛ مجلة الحرب، إعداد علي فؤاد بيلقان وعمر تشاقر، إسطنبول 2004، مكتبة قاينق/ مصدر، ص 296.

سلطان الرسم غير المتوج:
الخليفة عبد المجيد
(1922–1924)

كان يتردد على بيت شاعرنا الكبير عبد الحق حميد في صرا سلويلر، ويجلسان طويلاً... وكان رسامونا إبراهيم تشال، وفيهمان، وشوكت، وحكمت الرائد سامي، ونامق إسماعيل أصدقاء الأمير الأحب.

إسماعيل بايقال

لم يصبح عبد المجيد أفندي سلطاناً، وحمل لقب خليفة ستة عشر شهراً فقط، وكان فناناً ناجحاً، وما زالت لوحاته تجذب اهتمام سوق اللوحات والمزادات إلى اليوم. تلقى دروساً بالرسم على يد الفنان البولوني بتروفيسكي لعدة أشهر، وبعد عودته إلى روسيا بقي فترة يرسم مع سامي باشا، وهكذا طور رسمه[1]. ونعرف أنه تلقى دروساً على يد زونارو الذي جاء إلى القصر في عهد عبد الحميد. وبقي ينفق على نفسه من ثمن لوحاته ودعم أصهاره على مدى عشرين سنة منذ إخراجه خارج الوطن عام 1924 حتى وفاته عام 1944. يُتوقع أن لديه ما يزيد عن مائتي لوحة.

كان عبد المجيد أفندي داعماً دائماً للفن والفنانين، وأسس صداقات حميمة مع الفنانين والأدباء السياسيين المحليين، والمثقفين الأوروبيين[2].

يقول أحد رجال المخابرات الإنكليزية عن الخليفة عبد المجيد: "عصبي جداً، وسريع الغضب". كان داعماً وراعياً للرسامين وفن الرسم إلى جانب ممارسته الرسم، ولخّص الباحث أحمد كامل غوران لنا المعلومات حول جانبه

(1) صودي ياغظ، عبد المجيد أفندي آخر الخلفاء، مجلة التاريخ المصورة، العدد 14، شباط 1951، ص 598–600.

(2) عقيلة تشليك، لؤلؤة ضولما بهتشة المخبوءة: مكتبة عبد المجيد أفندي سكاي لايف، العدد 321، نيسان 2010، ص 122–129.



عمر أفندي فاروق بريشة والده
الخليفة عبد المجيد.

هذا على النحو التالي:

"لعبد المجيد أفندي مكانة لا تُعوض لمن يهتم بفن الرسم التركي. لم يغب اسمه عن غالبية فعاليات عالم الفن طوال فترة إمارته وولايته للعهد وخلافته. يبرز عبد المجيد أفندي باعتباره أحد أفراد الأسرة المالكة كرسام وداعم للأنشطة الفنية مادياً ومعنوياً، إلى جانب كونه رجل دولة: محاولة إصدار جمعية الرسامين العثمانيين جريدة، معارض غلاطة سراي، طباعة أدلة المعارض، مرسم شيشلي، معرض فينا، إرسال عوني ليفيج إلى باريس ليدرس منحة على حساب الدولة أول ما يخطر بالبال من فعاليات"[1].

كان الخليفة عبد المجيد يخصص أيام الأربعاء للرسم، ولذلك لا يستقبل أحداً في تلك الأيام[2]، وقد عُرضت أعماله التي أمكن جمعها من مختلف

(1) أحمد كامل غوران، إعادة تقييم أعمال الأمير ووالي العهد والخليفة عبد المجيد أفندي (1868-1944) على ضوء المعلومات الجديدة عالمنا الفني، العدد 93، خريف 2004.

(2) إسماعيل بايقال، ما الذي رأيته في قصر عبد المجيد آخر ولي عهد وخليفة عثماني عالم التاريخ، العدد 17، 15 كانون الأول 1950، ص 709.

المجموعات في القصر المسمى باسمه في حي باغلرباشي الإسطنبولي عام 1986. تُجسّد لوحته درس تاريخي التي استلهمها من حرب البلقان بشكل ناجح الناس المتعرضين للكارثة.

عُرضت بعض لوحاته في معرض فينا عام 1918. حاول أن يكون واقعياً كالتصوير الضوئي في لوحته التي تجسد إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني معتمداً على الشهود، والمعروف أنه اصطحبهم إلى مكان تبليغ عبد الحميد، وجعلهم يمثلون الواقعة.

تبرز الشخصيات في رسومه. وكان أولَ رئيس فخري لجمعية الرسامين العثمانيين التي تعتبر أول اتحادٍ للفنانين، وتأسست عام 1909[1].

رسم الخليفة عبد المجيد رجائي زادة وعبد الحق حميد من معاصريه الأدباء. وبهذه المناسبة، يمكننا أن نقول إن الكثير من هواة الرسم أبناء العائلات المالكة رسموا أنفسهم، ولكن، لا أحد منهم تنازل لرسم شعراء من معاصريهم مثل الخليفة عبد المجيد[2]. خاصة اللوحة التي تجسّد قصيدة ضباب لتوفيق فكرت، وتزيّن بهو متحف الشاعر؛ فهي نموذج ناجح بالتعبير عن روحه الفنية. غير هذا، فقد رسم لوحاتٍ شخصية لمؤلفين موسيقيين عظماء كبتهوفن، وشوبان، وفاغنر، وموزارت، وليز.

إلى جانب هذا، يعتبر عبد المجيد فنان خط جيداً[3]. وقد كتب لفظ الجلالة على لوحة بطول متر عندما كان في مدينة نيس[4].

كان عارفاً بالموسيقى الشرقية والغربية. كما يعزف على الناي والكمان والهاربسكورد واللوت. وكان عازفاً جيداً على البيانو، وقد لحّن ألحاناً خاصة

(1) سما أونر، الخليفة عبد المجيد أفندي عبر مجموعة أعماله الفنية في قصر ضولما بهتشة، عثمان حمدي بيك ومرحلته، 17-18 كانون الأول 1992، إعداد زينب رونا، إسطنبول 1993، منشورات يورد/ الوطن التابعة للأوقاف التاريخية، ص 83-97.

(2) أوران أوقاي، صور باهتة إسطنبول 2001، منشورات أوتوكان، ص 196.

(3) مادة عبد المجيد أفندي من موسوعة إسطنبول الثقافية والفنية، المجلد 1، إسطنبول 1982، منشورات ترجمان الثقافية، ص 201.

(4) فريد كريم أوغلو، آخر أيام آخر خليفة، مجلة التاريخ المصورة، العدد 61، كانون الثاني 1955، ص 3605.

بهـذه الآلـة. فـي لوحتـه الزيتية المسـماة بيتهوفن في الحرم رسـم تمثـالاً نصفياً لبيتهوفن مع ثلاثة عازفين على الكمان والكمان الجهير (تشيلو) والبيانو. ويعطينا إسماعيل بايقال معلومات غريبة عن الأوركسترا التي شكّلها الخليفة عبد المجيد من نساء الحرم:

كان يعـزف علـى الكمـان والفيولين، والسيدة الكبيرة على الكمان، والسيدة الثانية (خير النسا) على التشلو، والخادمة أوفيليا على البيانو، والخادمة فيروزة على الكونترباص، وقد شكّل أوركسترا ممن دربهن. تقدم الأوركسترا نشاطها بعد العشاء في بعض الأمسيات.

أعدوا حفلاً موسيقياً من أجلنا ذات أمسية، ودعونا. دخلنا بهو القصر. وُضع حاجـزٌ أمـام غرفة البيانو، وعزفت الأوركسـترا فـي الداخل. كان عبد المجيد أفندي يقترب منا أحياناً وهو يعزف الفيولن، ونصفق له[1].

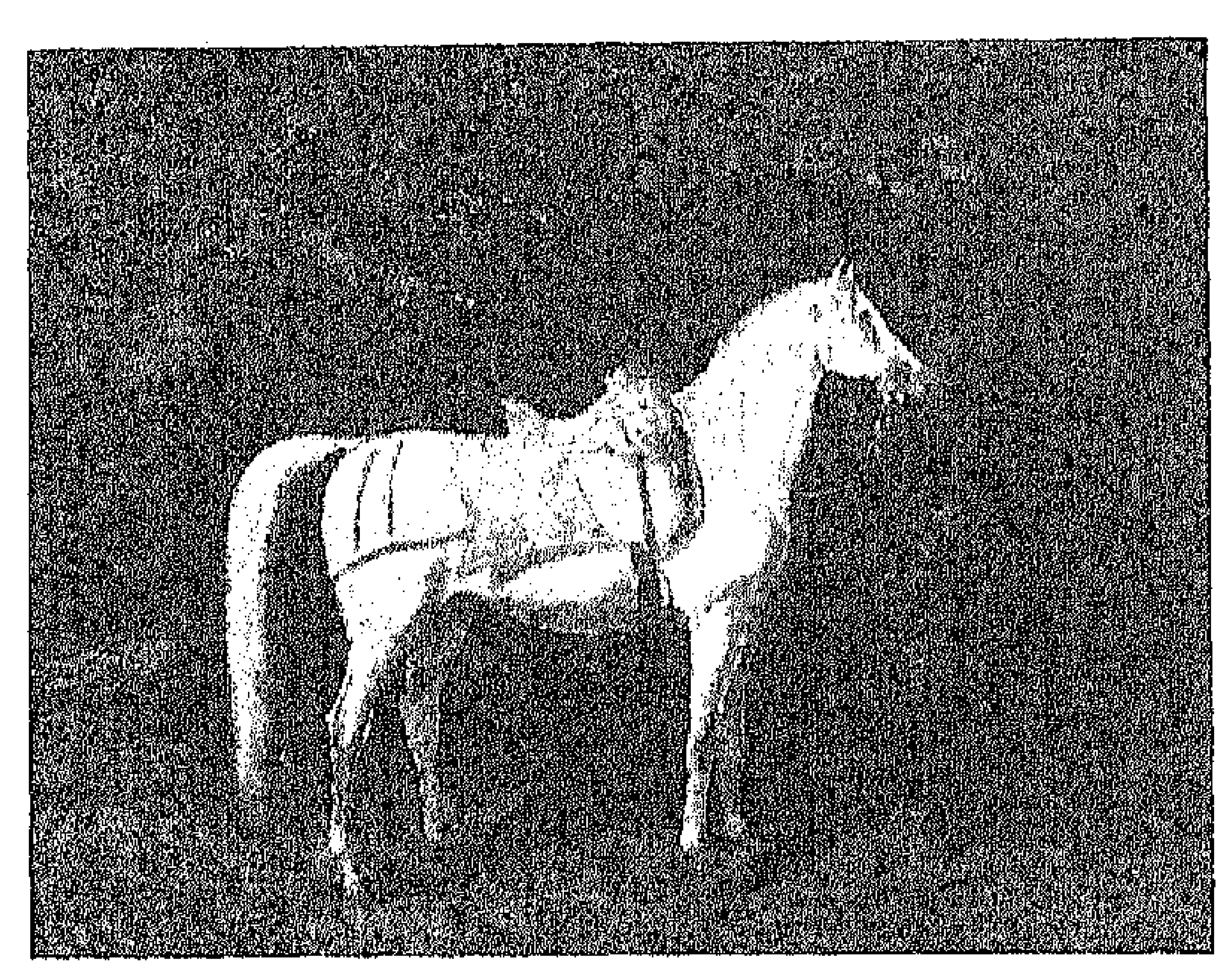
أما رأي المؤرخ إلبر أورطايلي حول فنه في الرسم والموسيقى فهو:

المعروف أن آخر الخلفاء عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز رسام. بعض لوحاته رفيعة المستوى وبعضها ليست كذلك. في معرض لوحاته الذي افتتح فـي قصـر ضولما بهتشـة الأحد الماضـي كانت صورة ابنه عمر فاروق أفندي أفضل من صورة ابنته السلطانة (دُرُّ شهور) بكثير. يتقن الخليفة رسم الخيول، ولا يمكن القول إنه حقق المستوى نفسه في رسم الشخصيات. ولكن، يبدو من خطوطه أنه رسـام مسـتقر. من الواضح أن موهبة عبد المجيد الأساسـية في ميدان الموسيقى. يمكن القول إن المرثاة التي لحنها ووزعها أمرة أراجي وعُزفت هذا الصيف في متحف الآثار القديمة ذهبت بألباب المستمعين.

نعرف أنه أحبّ المؤلف الموسيقي بيتهوفن إلى درجة الشغف[2]. فقد تلقى دروساً على البيانو من المسيو هيغ تلميذ الملحن ليز الذي زار إسطنبول في عهد

(1) إسماعيل بايقال، ما رأيته في قصر عبد المجيد آخر ولي عهد وخليفة عثماني، ص 824.

(2) إمرة أراجي، خليفة شغوف ببيتهوفن، رسام من الأسرة المالكة: عبد المجيد أفندي، إسطنبول 2004، منشورات بنك البناء والقروض، ص 113-122.



رسم الخيول أصعب مما يعتقد. إيجاد التناسب بين الرأس والجسم يتطلب معرفة وثيقة بالخيول. وبفضل حب الخيول الذي ورثه عبد المجيد أفندي من أجداده تمكن من التغلب على هذه الصعوبة. جاء في تقرير إنكليزي: "نجح ولي العهد بالتغطية على الكثير من النواقص الفنية بالموهبة التي يمتلكها من الولادة"*.

السلطان عبد المجيد، وحصل منه على وسام (من بين الذين أخذوا دروساً منه السلطانة شادية ابنة عبد الحميد، والسلطانة صبيحة ابنة وحد الدين)[1].

وروى إسماعيل بايقال من المدرسة السلطانية الذي كان بخدمة الخليفة عبد المجيد أنه مارس الرياضية في شبابه، واستطاع حمل أناس يزنون أكثر من مئة كيلو غرام، وقد تعلّم المبارزة من ضابط نمساوي، وبارَز، وكان فارساً جيداً، ويرمي وهو على حصان بأقصى سرعته، ويسدد بالهدف.

وقد أُعطي الحصان العربي الأصيل الرمادي خيام الذي كان الخليفة يمتطيه إلى استقبال يوم الجمعة، ويُغذى بالبيض والزبيب لمدرسة حلقالي الزراعية. المهور التي تكسب السباقات في تراكيا كلها تقريباً من نسل الخيام[2]. اللافت

* (هامش شرح الصورة ص 240): انظروا إلى: علي سلطان، تركيا في التقارير الإنكليزية السنوية 1920، إسطنبول 2010، منشورات تاريختشي/ المؤرخ، ص 151.

(1) طه طوروس، أولئك الناس الرائعون إسطنبول 2000، آقصوي للنشر، ص 397-398.

(2) الحصان الشهير الذي يتغذى على البيض والزبيب: الخيام، عالم التاريخ، العدد 1، 15 نيسان 1950، ص 31.



لم يقطع الخليفة عبد المجيد أفندي الصلاة في منفاه الباريسي، وكان يجتمع بالمسلمين كل جمعة. وهذه صورة له أثناء خروجه من جامع باريس. لا بد أنها في سنوات حياته الأخيرة، لأن لحيته بيضاء تماماً.

للنظر أن هذه الهواية جعلته يرسم الخيول التي تعتبر من أصعب العناصر رسماً بمهارة.

بحسب مذكرات إسماعيل بيك (بايقال) فقد كان يهرب من مدرسة الأمراء عندما تسنح له الفرصة، ويذهب إلى الصيد[1].

تعلّم الفرنسية والألمانية والفارسية والعربية. وحسب ما وصلنا، إنه الخليفة الوحيد الذي تعلم الألمانية. غير هذا، إن عبد المجيد أولُ أميرٍ عثماني أرسل ابنه "عمر فاروق" أفندي للدراسة في أوروبا[2].

لا تزال مكتبته القيمة والغنية والتي تشكل الكتب الفرنسية قسماً مهماً منها محفوظة في قصر ضولما بهتشة. ونعرف أن أتاتورك استفاد من تلك الكتب أثناء إقامته في القصر.

(1) إسماعيل بايقال، ما رأيته عن آخر ولي عهد وخليفة عثماني في القصر، عالم التاريخ، العدد 19، 15 كانون الثاني 1951، ص 822.

(2) نهاد سري أوريك، عبد المجيد أفندي آخر ولي عهد وخليفة، مجلة التاريخ المصورة، العدد 39، آذار 1953، ص 2092.

المعروف أنه كتب مذكراته (يروي كاتبه الخاص أنها غطت الفترة الممتدة بين عامي 1924-1944)، ولكن لم يُعثر عليها حتى الآن[1].

كان يصلي الأوقات الخمسة في مواعيدها، وكل صلاة جمعة يؤديها في الجامع بين الناس، وهذا التصرف هو الأول في الأسرة المالكة[2]. لم يفوّت صلاته حتى وهو خارج الوطن، وقد كان يؤدي صلاة الجمعة في باريس مع المسلمين المغاربة والجزائريين، ويتردد في أيام محددة على المكتبات والمتاحف والحفلات الموسيقية، وكان في حركة دائبة.

أحد الجوانب الغريبة لعبد المجيد أفندي أنه الخليفة الوحيد الذي نُظّم بحقه ضبط مروري. أوقفه ضابط إنكليزي لا يعرفه أثناء عبوره جسر غلاطة بسيارته أيام الاحتلال، ونظّم له مخالفة مرورية نقدية كما يُنظم لأي مواطن[3].

المعلومات الواردة أدناه تنير جوانب من حياة الخليفة عبد المجيد أيام المنفى في باريس:

> كان يرسم ويكتب الشعر ويسلي نفسه في باريس، وفي الوقت نفسه يزور المكتبات العامة والمتاحف، ولا يفوت الحفلات الموسيقية التي يقيمها الموسيقيون الكبار. وكان شغوفاً بالموسيقى الغربية منذ البداية، ومتمكناً من الموسيقى الشرقية إلى درجة التأليف.
>
> ... خط عبد المجيد جميل كرسمه. حتى إنه كتب لفظ الجلال وهو في نيس على لوحة طولها متر.
>
> لم يكن يشرب الكحول أو يدخن. ولم تكن علاقته بالقهوة جيدة. كان يقصد جامع باريس كل يوم جمعة، ويؤدي صلاته فيه[4].

(1) محمد ج. تشفتشي غوزالي، ما بقي من العثمانيين (حوار مع صالح كرامة نيغار)، سبيل، العدد 3، 16 كانون الثاني 1976، ص 8-9.

(2) إسماعيل بايقال، ما رأيته عن آخر ولي عهد وخليفة عثماني في القصر، عالم التاريخ، العدد 17، 15 كانون الثاني 1950، ص 709.

(3) نجدت صقا أوغلو، الخليفة عبد المجيد، موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم، المجلد 1، ص 58.

(4) فريد كريم أوغلو، آخر أيام آخر الخلفاء، ص 3605.

لنذكّر بهذا أخيراً: عندما ألغى مجلس الأمة التركي الكبير الخلافة بتاريخ 3 آذار 1924 عرض عليه الإنكليز الإقامة في مصر، وتخصيص قصر السلطان حسين له، والاستمرار بخلافته على العالم الإسلامي. ولكن عبد المجيد رفض هذا العرض الذي سيريحه مادياً على الصعيدين الشخصي والعائلي، وفضّل الذهاب إلى بلد محايد هو سويسرا[1].

وُضع جثمانه في إحدى غرف جامع باريس الذي داوم على الصلاة فيه عشر سنوات، ثم نقلت رفاته إلى المدينة، ودُفن هناك. قبره مجهول. ألغيت سلطنة آل عثمان عام 1922، ودُفنت الخلافة في التاريخ مع عبد المجيد. ولا أعتقد أن هناك ما يوضح عبارة "دفنت في التاريخ" أفضل من كون قبر عبد المجيد أفندي مجهولاً.

دخل عبد المجيد أفندي التاريخ بوصفه الخليفة المعين بقرار من المجلس، وآخر خليفة مع إلغاء الخلافة بقرار من المجلس أيضاً.

(1) للاطلاع على المذكرات التي نقلها المدير العام للأمن في ذلك الوقت محي الدين بيك أُستنضاغ انظروا إلى: جمال قوطاي، الإنكليز وعرضهم على الخليفة عبد المجيد إسكانه في مصر، التاريخ يتكلم، العدد 32، أيلول 1966، ص 2669-2673.

الخليفة الذي لم يسلّم من يلجأ إليه رغماً عن النازيين

أُدْرِجُ أدناه حادثة عاشها الخليفة عبد المجيد في منفاه الباريسي تبرز صفات العائلة المالكة العثمانية الثابتة التي يتحلى بها على الرغم من فقدانه موقعه:

أمضى عبد المجيد فترة الحرب العالمية الثانية في مركز الدولة الفرنسية باريس. وأثناء اشتداد المقاومة الفرنسية في أواخر فترة الاحتلال في شهر حزيران من عام 1943، لجأ سبعةُ وطنيين فرنسيين إلى بيت الخليفة السابق حين كان الغستابو على وشك القبض عليهم بعد أن تعرف على هوياتهم.

لم يسلِّم عبد المجيد أفندي الفرنسيين اللاجئين إليه على الرغم من طلب الألمان منه ذلك، وأطعمهم من طعامه؛ إذ كان يُوزع كل شيء بموجب البطاقة. وزار قائد القوات الألمانية المحتلة في مكتبه، وطلب منه بصفته صاحب الصلاحية الوحيد من الإمبراطورية العثمانية التي كانت حليفة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أن يكون الفرنسيون بأمانته؛ متعهداً ألا يعودوا إلى أي نشاط جديد. وبعد أن تلقى الجنرال الألماني مطالعة برلين، وافق على العرض[1].

(1) جمال قوطاي، العروض الإنكليزية والفرنسية السرية للخليفة عبد المجيد أفندي، التاريخ يتكلم، العدد 1، شباط 1964، ص 65.

- من هو السلطان الذي لم تطأ قدماه إسطنبول أثناء فترة حكمه؟
- من هـو السلطـان الـذي كان يحفر الأختـام بيديـه، ويبيعهـا بالسـوق، ويـوزّع ثمنها على الفقراء؟
- من أهدى أحب الخيول إلى قلب عبد الحميد الثاني لقاطع طريق بلغاري؟
- من هو السلطان الذي كتب مقالة ضد التدخين؟
- من هو السلطان العثماني الذي لا يُعرف اسم أمه؟
- أي سلاطين أسسوا نواديَ رياضية؟
- هل تعرفون السلطان الذي حمل على رأسه أثر قدم الرسول (صلعم)؟
- من هم السلاطين الذين عملوا بالصياغة والنجارة وغزل الحبال؟
- هـل تعلمـون أن هنـاك سـلطاناً شـاعراً اشـتهر بنظمه الشـعر بغزارة فاقت معاصريه من الشعراء؟
- مـن الـذي بنـى جامعاً عـن روح أمه، وخـطّ بيده الحديث الشـريف: «الجنة من تحـت أقدام الأمهات»؟

التاريـخ السـرّي للإمبراطوريـة العثمانية عملٌ يكشـف النقاب عن وجه غير مرئـي لتاريخ مرئـي. إنـه عمـل يتضمـن معلومات مسـتقاة مـن مئـات المصادر، ويعرض جوانب مدهشـة، لا يمكنكم أن تسقطوه من أيديكم قبل الانتهاء من قراءته.

التـــاريخ الســرّي للإمبراطـوريـة العـ



يُقدم لنا الكاتب **مصطـفى أرمغـان**، صاحب الرؤى التاريخية المختلفـة والكتـاب الأكثر م

إنـه يصطحبنـا إلى العـالم السـري للقصـر، ويفتح أمامنـا العالم الشـخصي للسـلاطين عند

ويبقون وحيدين.


ISBN 978-614-01-1122-6
9 786140 111226




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com